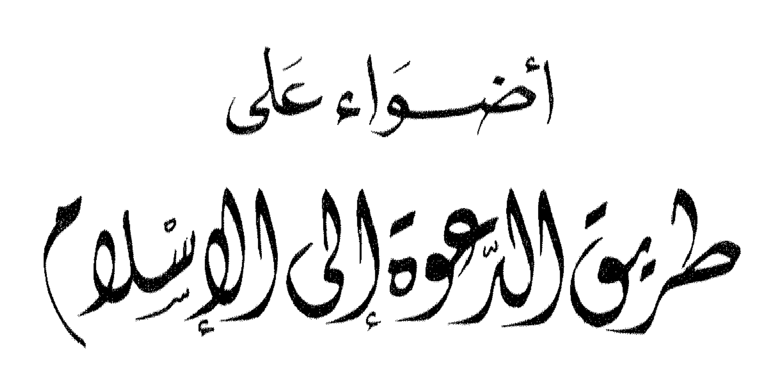


أضواء على طريق الدعوة إلى الإسلام

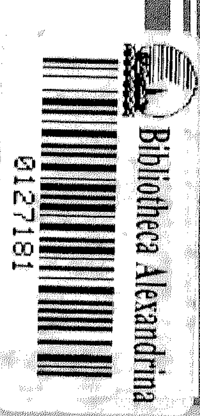
تأليف

د. محمد أمان بن علي الجامي

رئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

راجع الكتاب وخرج نصوصه

عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي



دار الجيل

بيروت

أضـــواء على

طريق الدعوة إلى الإسلام

تأليف
د. محمد أمـــان بن علي الجامي
رئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

راجع الكتاب وخرج نصوصه
عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي

دار الجيـــل
بـيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم
ابرهيم ابراهيم هلال

بعد أن تطرق التصوف والفلسفة إلى العالم الإسلامي، وراج فيه الاشتغال بعلم الكلام، أسقطت رواسب من هذه الفلسفات والعقليات غير المستقيمة على عقائد الكثيرين من المسلمين علماء وعامة على السواء، وأصبحنا نجد مظاهر ذلك التصوف والفلسفة، والكلام في علم هؤلاء العلماء وفي حديث أولئك العوام. وتأصل ذلك في بيئتنا الإسلامية قرونا على الدهر، حتى صار العوام ينظرون إلى هذه العقائد البالية على أنها أصول الإسلام وساعد على ذلك وزاده ترسيخا في نفوسهم، ما يقوم به هؤلاء العلماء المضللون من دعوة في مجال الدين على طريقة أولئك المتصوفة، والمتكلمين، بل وقد بلغ الأمر ببعض المتصوفة، أن تقدموا، للدعوة إلى الله وإلى دينه، في بعض البلاد الخام كبعض بلاد أفريقيا. مقدمين وثنيات التصوف وفلسفاته على أنها في الإسلام، وظن كثيرون أن هؤلاء نشروا الإسلام في غرب أفريقيا وجنوبها. وما دروا أنهم نشروا وثنية مقنعة؛ تتسمى باسم الإسلام، وليست من الإسلام إلا في اللفظ، أما العقيدة والشريعة التي جاء بها القرآن الكريم والحديث الشريف على يد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تكاد تتميز بين هذه الأوشاب المستوردة.

لذلك كان الله يقيض لدينه على مر العصور، من يقوم عليه وعلى حفظه تحقيقاً لوعده بذلك في كتابه العزيز : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾

وظهر ذلك على أدوار التاريخ في علماء السلف من التابعين، وتابعي التابعين وتابعيهم بإخلاص إلى يومنا هذا.

وهذه هي رسائل فضيلة الشيخ محمد أمان بن علي الجامي المدرس بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تسير على درب هؤلاء المجاهدين والمحافظين على عقيدة المسلمين والداعين إليها على هدى من الله وبصيرة، نقدمها إلى القراء في مختلف العالم الإسلامي، أضواء كاشفة لذلك الزيغ الذي لحق بالعقائد والقلوب، سواء بقلوب العلماء أم العوام، ومنبهة إلى اتجاه الإسلام الخالص، وصراطه المستقيم الذي يجب أن يسلكه الدعاة إلى دين الله كما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾.

٢١ من المحرم سنة ١٣٩٨ هـ

ابراهيم ابراهيم هلال
مدرس الدراسات الإسلامية
بكلية البنات ـــ جامعة عين شمس

المحاضرة الأولى

منزلة السنة في التشريع الإسلامي

الرسالات السماوية التي كلف الله بها رسله المختارين من البشر، هي الرابطة بين السماء والأرض؛ ولقد كانت تلك الرسالات متحدة في أصولها، إذ كانت كلها تنادي أول ما تنادي (اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[1]، ولكنها كانت متنوعة أو مختلفة في الشرائع والمناهج إذ كان كل رسول يُبعث إلى قومه، وبلسان قومه، على ضوء منهج معين، وتشريع خاص محدود واستمر الوضع هكذا، لحكمة يعلمها ربنا سبحانه، فترة طويلة من الزمن.

ولما أراد الله أن يختم رسالته إلى أهل الأرض، اختار من بين عباده نبيه المصطفى، ورسوله المرتضى، محمد بن عبد الله، النبي العربي الهاشمي، ليرسله إلى الناس كافة، وقد خلقه الله لهذا الغرض، وربّاه تربية خاصة، وأولاه عنايته، وأدّبه فأحسن تأديبه؛ وبعد تمهيدات وإرهاصات مرّت عليه في طفولته وصباه، بعثه الله إلى الناس كافة، وأنزل عليه كتابه الأخير الذي ليس بعده كتاب (القرآن الكريم)، وهو كتاب الله المهيمن على الكتب التي قبله، ووصفه بأنه كتاب ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[2] يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرج به الناس من الظلمات إلى النور ﴿ **ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[3]؛ وقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون** ﴾[4]؛ ووكل تبيانه إلى رسوله الأمين محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر، لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[5]، وشهد له أنه في بيانه هذا، وأداء أمانة الرسالة ﴿ **وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[6] ولما كان هذا شأنه، وهذه مكانته، أوجب الله طاعته، وحرّم معصيته، إذ يقول عز من

(١) الأعراف آية (٥٩)
(٢) فصلت (٤٢)
(٣) المائدة (١٦)
(٤) الحجر، آية (٩)
(٥) النحل، آية (٤٤)
(٦) النجم (٣)

قائل : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[١]، ويقول سبحانه، وهو ينفي عمن لا يحكمونه، أو يرون في أنفسهم حرجاً وغضاضة أو توقفاً عن حكمه، ولا يسلمون تسليماً كاملاً عن اقتناع، وانشراح نفس، يقول الله في حق هؤلاء : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون، حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليما** ﴾[٢]؛ هكذا تكشف هذه الآية الكريمة دعاة الإيمان ــ بالرسول، دون عمل بسنته، أو رضىً بحكمه، فالآية ــ كما ترون ــ تنفي عنهم الإيمان، وتعريهم أمام الناس، لئلا ينخدع ويظن، أن الإيمان بالرسول يتم بمجرد دعوى الإيمان، والقول باللسان؛ وتأتي في هذا المعنى آية أخرى، تهدد أولئك المدعين المخالفين عن أمره بالفتنة والعذاب الأليم : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره، أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[٣]، وقد فسّر بعض أهل العلم الفتنة هنا، بالزيغ والإلحاد، لقاء رده لقول الرسول ﷺ، إذا تكرر منه ذلك، والله أعلم؛ وبهذه الأساليب المتنوعة يدعو القرآن الناس، إلى الإيمان بالسنة، والعمل بها، وأنها هي والقرآن، هما الأساس حقاً لهذا الدين. وإذا كان الإيمان بالرسول أصلاً من أصول الإيمان، فإن الإيمان بسنته، جزء لا يتجزأ عن الإيمان به، عليه الصلاة والسلام، لأنه صاحب السنة، ولأن الإيمان ــ كما يُعَرِّفه الإمام ابن القيم : هو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والإنقياد له، محبةً وخضوعاً، والعمل به ظاهراً وباطناً، وتنفيذه، والدعوة إليه بحسب الإمكان.

وكما له في الحب في الله والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده معبوده؛ والطريق إليه، تجريد متابعة رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى رسول الله ﷺ، وبالله التوفيق.

---

(١) محمد، آية : (٣٣).

(٢) النساء، آية : (٦٥).

(٣) النور، آية : (٦٣)

وبعد : فأنت ترى أن الإمام ابن القيم رحمه الله، يجعل تجريد متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام، طريقاً إلى حقيقة الإيمان.

ولا غرابة في ذلك، بل هو أمر منطقي، كما ترى ؛ ولو أنك زعمت بأنك تحب العالم الفلاني وتقدره، وله في نفسك كل تقدير واحترام، ومع ذلك كنت لا تقدر كلامه، ولا تعيره اهتماما، ولا ترفع رأسا لحديثه، فطبيعي أن يصارحك إنسان ما : مالي أراك ـــ يا فلان ـــ تدعي محبة ـــ العالم الفلاني ـــ بل التفاني في حبه، ومع ذلك لا تعير أدنى اهتمام لكلامه وحديثه وعلمه ؟!! هذا تساؤل لابد منه، عقلاً ومنطقاً، ولست أدري ماذا يكون جوابك ؟!! هل تقول في الجواب : إني في الواقع لا أكنّ له محبة، وإنما هي مجرد إدعاء لظروف ما، ولا أعني بالمحبة أكثر من ذلك !!

أو تقول : إنّي أحبه وأقدره حقاً، ولكن الهوى والشيطان، ولكن القرناء، ولكن الجفاف الذي أصاب قلبي، كل ذلك حال دون الانتباه لكلامه، والانتفاع بحديثه، والتأسي له؛ ولا بُدَّ لك من أحد الجوابين فأي ذين تقدم وتختار ؟!! فأحلاهما مرّ، والله المستعان، والأمر بالنسبة للرسول وسنته أعظم وأخطر وكيف لا ؟!!، ونحن إنما عرفنا الله وآمنا به وعبدناه وحده، بدعوته التي بلغتنا في طيات سنته، التي حملها إلينا الثقات من علماء المسلمين من الصحابة ومن بعدهم؛ الذين قيضنهم الله لها، وأكرمهم بخدمتها، فبها بينوا القرآن وفسروه، وعلى ضوئها بنو أحكام الشيعة حكماً حكماً. وقعدوا القواعد، وضبطوا الضوابط، التي يُرجع إليها عندما تنزل نازلة، وتحدث حادثة، وتجدّ الأمور.

وكل من يدعي الإيمان بالله وبرسوله، ثم يتجرّأ فينكر سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو ينكر حجيتها، أو إفادتها العلم اليقيني، إنما يتناقض تناقضاً، ويضطرب في كلامه اضطراباً، ويتخبط في تصرفه تخبطاً؛ فليقرأ ـــ إن شاء ـــ قول الحسن البصري رحمه الله : (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل[1])، ولا عمل يقبل دون موافقة السنة (من عمل عملاً ليس عليه

---

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (رقم ٥٦)

آمرنا، فهو رد)[1] وسوف تنجلي الحقائق، يوم تبلى السرائر، والله المسعان.

سوف ترى إذا انجلى الغُبار أفرس تحتك أم حمار ؟

وبعد هذه المقدمة القصيرة، نأخذ في الحديث في صلب الموضوع، مستعينين بالله وحده فنقول :

المنزلة هي المكانة والمرتبة، والمراد بها هنا : المرتبة التي تشغلها السنة النبوية في باب التشريع، حيث لا يستغنى عنها بوجه من الوجوه، إما مستقلة أو مبينة للكتاب، إذ لا بد من عرض كثير من آيات الأحكام عليها، لتفسر المجمل، وتقيد المطلق، وتخص العام، إلى غير ذلك من الأغراض التي تحققها السنة، والدور الذي تمثله ـــ إن صح مثل هذا التعبير.

السنـــة في اللغـــة

السنة في اللغة : هي الطريقة : سواء كانت محمودة أو سيئة، ويشهد لهذا المعنى، حديث جرير بن عبد الله البجلي : (من سنّ سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. ومن سنّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)[2]؛ ومعنى الحديث : أي من أتى بخصلة حسنة، فله أجرها وأجر من تأسى به وعمل مثل عمله، لأنه الفاتح لباب الخير، والدال عليه بعمله؛ وكذلك الحال بالنسبة للسيئة، لأن من أتى بخصلة سيئة، وتأسى به غيره، فعليه وزرها ووزر كل من تأسى به بعده، لأنه فاتح لباب الشر، وداعٍ إلى الشر بفعله ومبادرته.

ويقول أهل اللغة : السنة : السيرة، حسنة كانت أو قبيحة.

---

(١) البخاري : الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٥/٣٠١) ومسلم : الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٣٤٣/٣ ـــ ١٣٤٤) من حديث عائشة.

(٢) راجع مسند أحمد (٣٥٧/٤، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١) صحيح مسلم : الزكاة، باب الحث على الصدقة (٧٠٥/٢ والعلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٢٠٥٩/٤).

السنة في لسان علماء الشريعة

يختلف علماء الشريعة في معنى السنة إختلافاً لفظياً لا جوهرياً :

فيطلق علماء الأصول لفظ السنة على أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وأفعاله وتقريره ـــ وربما أطلقوها على أعمال الصحابة، كعمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن، وعمل عمر رضي الله عنه في تدوين الدواوين، ونحو ذلك، وهو مذهب جماعة من أهل الحديث.

وقد يطلق الفقهاء السنة على الطريقة المسلوكة في الدين. في غير وجوب أو لزوم؛ ومن عباراتهم المعروفة في تعريف السنة : أن السنة ما يُثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

ويطلق جمهور علماء الحديث، السنة على ما يقابل البدعة، فيقال : فلان على السنة، إذا كان عمله وتصرفاته الدينية، وفق ماجاء به رسول الله ﷺ، كما يقال : فلان على بدعة، إذا كان مخالفاً لهديه وسنته عليه الصلاة والسلام؛و من إطلاقات السنة عندهم أيضاً : أنها قد تشمل صفاته الحميدة، وأخلاقه الكريمة، وسيرته العطرة، ويمكن أن يشهد لهم على هذا الإطلاق، قول أم المؤمنين خديجة ـــ رضي الله عنها (كلا والله، ما يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق)[1].

وكذلك ما كان عليه الصلاة والسلام، معروفاً بين قومه، حتى قبل مبعثه من الصدق والأمانة، لأن كل[2] ذلك يستفاد منه في إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام، ورسالته، وهي مرادفة للحديث، كما ترى بهذا الاعتبار.

حاجة الإنسان إلى الرسول والرسالة

الإنسان، ذلك المخلوق المختار، ولكنه تحفه الشهوات، وتكتنفه متطلبات

(١) البخاري بدأ الوحي باب (٣) (١/٢٣) من حديث عائشة

(٢) الحديث والمحدثون ـــ بتصرف.

الغرائز، وتجتاحه الأهواء، وهو أشبه ما يكون بالمريض مثلا، لا يجد سبيلا للخلاص مما حل به من مرض، والفوز بالبرء والعافية، إلا بطبيب ناصح ؛ فإن ائتمر بأمره فعزف عمّا تميل إليه نفسه، وامتنع عن الشهوات، ومتع ولذّات، سلم من الهلاك، وإلا فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة، وهذا يعني : أن حاجة الإنسان إلى الرسول ورسالته، وما تشتمل عليه سنته أمسّ من حاجته إلى الطبيب والدواء ـــ ويتضح ذلك بإجراء مقارنة ملموسة، بعيدة عن الفلسفة.

وذلك أن غاية ما يصيب الإنسان، إن أعرض عن الطبيب، ولم يحيى قلبه بما فيها من الوحي الإلهي، كتاباً وسنة، فتعتريه الأسقام والآفات التي لا برء منها، ويموت قلبه ولا يرجى بعده الحياة، وتنضب ينابيع السعادة، وتغشاه أمواج غامرة متلاطمة من الشقاء والتعاسة، ويغادره اليقين، ولا تعود الحياة والسعادة إليه إلا بالعودة إلى نور الوحي والاستضاءة بنوره، والله المستعان.

السنـــة صنو القـــرآن

ويتضح مما تقدم، أن ملخص معنى السنة، ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وأن السنة من الوحي الإلهي : (إن هو إلا وحي يوحى، علّمه شديد القوى)[(١)]. كما يدل على ذلك من السنة قوله عليه الصلاة والسلام : (ألا، وإني أوتيت القرآن، ومثله معه)[(٢)]. فالسنة إذاً صنو القرآن، وهي وحي مثله، وملازمة له، ولا تكاد تفارقه، ولا يكاد القرآن يُفهم كما يجب أن يفهم، إلا بالرجوع إلى السنة في كثير من آياته، ولا سيما آيات الأحكام.

معنـــى الـــوحي

الوحي : هو الإعلام الخفي والسريع، ولذلك يطلقون على الرموز والإشارات

(١) النجم، آية : (٣ ، ٤)

(٢) أحمد (١٣١/٤) وأبو داود السنة، باب لزوم السنة (١١/٥) من حديث المقدام بن معدى كرب

الخفية أنها من الوحي، عند أهل اللغة ! ومنه الإلهام : (وهو القاء المعاني الخاصة في النفس) والوحي إلى غير الأنبياء من هذا القبيل، كالوحي إلى النحل : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾[1]، وأما في لسان الشرع : إعلام الله لأنبيائه بطريق خفية[2] أخبار السماء، وما يريد أن يبلغه من التعليمات والتوجيهات والتشريع، بحيث يحصل لديهم علم، قطعي، لا يتطرق إليه أدنى شك، بأن ذلك من عند الله سبحانه، فيكون مصدر الوحي : هو الله وحده، فلا وحي إلا من الله؛ ومورد الوحي هم الأنبياء، فلا يكون الموحى إليه إلاّ نبياً؛ وهكذا يتضح أن المعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي كما ترى.

أقســـام الــوحي

إعلام الله لأنبيائه ما يريد إعلامهم، يكون بطرق ثلاثة، وقد أشار القرآن إلى هذه الطرق، حيث يقول عز وجل : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، فيوحي ــ بإذنه ما يشاء** ﴾[3].

أولا : المراد بقوله تعالى (**إلا وحياً**) : الإعلام، الذي هو الإلهام : وهو إلقاء المعنى المراد في قلب نبي من أنبيائه، حتى يفهمه جيداً، ويقطع بأنه من عند الله.

ثانياً : الكلام من وراء حجاب، كلاماً حقيقياً، يقطع بأنه سمع كلام ربه الذي كلمه كيف شاء، دون أن يراه، كما حصل لنبي الله وكليمه موسى عليه السلام في أول بدء الوحي، حيث : (نودي يا موسى إني أنا ربك)[4]، حتى سمع سماعاً حقيقياً، ولكن دون رؤية؛ وكذلك عند مجيئه للميقات، حيث يقول الله سبحانه : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربُّه** ﴾[5]؛ وقد حصل هذا النوع لنبينا محمد عليه

(١) آية : ٦٨، النحل

(٢) كذا في الأصل ولعل الصواب : بطرق خفية. الناشر

(٣) الشورى، آية : (٥١).

(٤) طه، آية : (١١، ١٢).

(٥) الأعراف، آية : (١٤٣).

الصلاة والسلام، ليلة المعراج، عندما فرض الله عليه وعلى أمته الصوات الخمس، والقصة معروفة ولا حاجة لسردها.

ثالثاً : إعلام الله لنبي من أنبيائه ما يريد تبليغه بواسطة الملك (جبرائيل)، وهذا النوع هو الغالب والأكثر وقوعاً، وقد كان جبرائيل يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بأشكال وصور مختلفة، إذ كان يأتيه أحياناً، متمثلا بصورة الصحابي الجليل (دحية الكلبي)، وربما جاء بصورة أعرابي، وقد رآه مرتين على صورته الحقيقية : مرة عند غار حراء، حيث كان يتحنّث قبل الوحي، ومرة عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج؛ وقد لا يرى النبي عليه الصلاة والسلام الملك أحياناً، وإنما يسمع عند قدومه دوياً كدوي النحل، وصلصلة شديدة، فتعتريه حالة روحية غير عادية.

تؤخذ هذه المعاني كلها أو بعضها، من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها، ذكره البخاري في صحيحه : (أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال؛ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً).[٣]

ومما لا يختلف فيه إثنان دارسان للإسلام : أن ديننا مبني على أصلين اثنين :

الأصل الأول : أن يعبد الله وحده دون أن يشرك به غيره بجميع أنواع العبادات، وأن لا يصرف منها شيء لغير الله؛ وذلك معنى قول المؤمن : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

الأصل الثاني : أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله وخليله محمد عليه

(٣) كتاب بدأ الوحي، باب (٣) (١٨/١).

الصلاة والسلام، وهو معنى قول المؤمن : وأشهد أن محمداً رسول الله؛ وصحة الأصل الأول تتوقف على تحقيق الأصل الثاني، ومعنى تحقيقه نوجزه في صدق متابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأن اتباعه دليل محبة الله عز وجل، الذي محبته ومراقبته والأنس به، غاية سعي العبد وكده، وهي أيضا جالبة لمحبة الرب عبده ومغفرته له، إذ يقول عز من قائل : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم** ﴾[١]. وذلك لأنه رسوله المختار ليبلغ دينه الذي شرعه لعباده، وهو المبلغ عنه أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه وارتضاه، والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين عباده في بيان التشريع، وما يترتب عليه من وعده ووعيده، وتبليغ وحيه الذي اشتمل على ذلك كله قرآناً وسنة، وقد كلف بذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾[٢]. وبقوله : ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾[٣].

وقوله : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[٤]، وقوله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[٥].

إن هذه الآيات من الذكر الحكيم، تبين بوضوح وظيفة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وهي القيام بواجب التبليغ، والبيان والدعوة إلى دين الله وإلى شرعه الذي شرعه الله تعالى لعباده وارتضاه لهم.

وهذه الأوامر الربانية الثلاثة، التي تقدم ذكرها في طي الآيات السابقة، تحقق غرضاً واحداً، وهو دلالة الخلق على الطريق الموصلة إلى الخالق سبحانه، وهو راض

---

(١) آل عمران، آية : (٣١).
(٢) المائدة، آية : (٦٧)
(٣) النحل، آية : (٣٥)
(٤) النحل (٤٤)
(٥) النحل (١٢٥)

عنهم، حتى يكرمهم في دار كرامته، لقاء ما قاموا به من أداء ما أوجبه الله عليهم في هذه الدار، من تحقيق العبودية، ليصدق في حقه عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾(1)، حقاً إنه رحمة مهداة، ونعمة مسداة للبشرية جميعاً، ولكن الشأن أن يرفع أتباعه رؤوسهم لدراسة سنته كما يجب، مكتفين بها، ليفهم كتاب الله على ضوئها، متجردين لها؛ تلك السنة التي هي ذلكم البيان، وذلكم البلاغ، وتلكم الدعوة.

وبعد : فلا يشك مسلم مهما انحطت منزلته العلمية، وضعفت ثقافته، وضحلت معرفته أن الرسول الكريم، محمداً عليه الصلاة والسلام، بلغ ما نزل إليه من ربه، وهو القرآن الكريم، وذلك لأن الإيمان بأن الله نزل القرآن على رسوله الذي اصطفاه محمدٍ عليه الصلاة والسلام، وأنه بلّغ مانزل إليه، كما نزل، وأنه بين للناس ما احتاج إلى بيان، وأجاب على أسئلتهم واستفساراتهم في موضوعات كثيرة، ودعاهم إلى الأخذ بما جاء به من ربه من الوحي، ولم يفتُر عن الدعوة إلى ذلك حتى التحق بالرفيق الأعلى إن هذا المقدار من الإيمان، أصل من أصول هذا الدين، وأساسه الذي ينبني عليه كل ما بعده من واجبات الدين وفرائضه، وإذا كنا نؤمن هذا الإيمان ــ ويجب أن نؤمن ــ فأين نجد بيانه الذي يتحقق به، امتثاله عليه الصلاة والسلام لتلك الأوامر الربانية (بلغ) (لتبين) (ادع) الجواب : نجد ذلك في سنته المطهرة، ولا نجد في غيرها، تلك التي قيض الله لها من شاء من عبادة، وهم جهابذة علماء المسلمين، فحفظوها وصانوها من كل مختلف، وكل معنى مزيّف ليصدق قوله تعالى : وقوله الحق وخبره المصدق : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون** ﴾(2)، والذكر المنزل المحفوظ هو القرآن بالدرجة الأولى، وقد حفظه الله بما شاء، وكيف شاء، وتدخل السنة في عموم الذكر في الدرجة الثانية عند التحقيق وإنعام النظر، وقد حفظها الله تعالى بأولئك الجهابذة العلماء، كما قلنا آنفاً والسنة

---

(١) الأنبياء (١٠٧)

(٢) الحجر، آية : (٩).

التي يتم بها ذلك البيان المطلوب : هي أقواله وأفعاله وتقريراته[1].

السنـــة هي الحكمـــة

وقد ذكر الله الحكمة في عديد من آيات الكتاب العزيز، مقرونة بالكتاب، ومما لا شك فيه أن المراد بالحكمة في تلك الآيات المشار إليها كلها : السنة النبوية.

ومن تلكم الآيات قوله تعالى : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ **لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[3]. وقوله : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** ﴾[5] وقوله سبحانه : ﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة، إن الله كان لطيفاً خبيراً** ﴾،[6] والآيات في هذا المعنى كلها تعطف الحكمة على الكتاب عطفاً يدل على المغايرة طبعاً.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله : فرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله عليه الصلاة والسلام وقال رحمه الله في رسالته المشهورة : فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضاه من أهل العلم بالقرآن يقول : (الحكمة سنة رسوله) ثم قال الإمام رحمه الله معلقاً على هذا القول : (وهذا

---

(١) من تصحيح المفاهيم : محمد أمان.
(٢) البقرة، آية : (١٢٩)
(٣) آل عمران، آية : (١٦٤).
(٤) النساء، آية : (١١٧).
(٥) البقرة، آية : (٢٣١).
(٦) الأحزاب (٣٤).

أشبه ما قال والله أعلم) ثم علل ذلك قائلا : لأن القرآن ذكر وتبعته الحكمة، وذكر الله مَنَّتَهُ على خلقه، بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز ـــ والله أعلم ـــ أن يقال : الحكمة هاهنا غير سنة رسول الله، وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأنه افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول فرض، إلا لكتاب الله، ثم سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، إلى أن قال : (وذلك لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان بالله وسنة رسوله، مبينة عن الله معنى ما أراد ثم قرن الحكمة بكتابه، واتبعها إياه، ولم يجعل لأحد من خلقه غير رسوله عليه الصلاة والسلام)(١).

وقد نقل البيهقي عن الإمام الشافعي عدة نقول في هذا الصدد نختار منها الآتي :

نبذة من كلام أهل العلم في مكانة السنة وثبوت حجيتها

١ ـــ قال البيهقي : قال الإمام الشافعي رحمه الله وسنة رسول الله ﷺ على ثلاثة أوجه :

أحدهم : ما أنزل الله فيه نص كتاب، فَسَنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام بمثل نص الكتاب.

والثاني : ما أنزل فيه جملة كتاب، فبين رسول الله عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها عاماً أو خاصاً، وكيف أراد أن يأتي به العباد.

والثالث : ما سنّ رسول الله عليه الصلاة والسلام مما ليس فيه نص كتاب، فمنهم من قال جعله الله له بما افترض من طاعته، وسبق علمه من توفيقه له، ورضاه أن يسنّ فيما ليس فيه نص كتاب، ومنهم من قال : لم يسنّ سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب كتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة وكذلك ما سنّ في

---

(١) مفتاح الجنة للسيوطي (٧)

البيوع وغيرها من الشرائع، لأن الله تعالى ذكره قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾[1] وقال : ﴿ **وأحل الله البيع وحرّم الربا** ﴾[2]، فما أحل وحرّم، فإنما بين فيه عن الله، كما بين في الصلاة؛ ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله، فأثبتت سنته بفرض الله تعالى؛ ومنهم من قال : كل ما سنَّ، وسنته هي الحكمة التي ألقيت في روعه من الله تعالى. انتهى كلام الشافعي.[3].

وقال الشافعي في موضع آخر : (كل ما سنّ فقد ألزمنا الله تعالى اتباعه، وجعل اتباعه طاعته، والعدول عن اتباعه معصيته، التي لم يعذر بها خلقاً، ولم يجعل له من اتباع سنن نبيه مخرجاً).

قال البيهقي : (باب ما أمر الله به من طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، والبيان أن طاعته طاعته)، ثم ساق الآيات التالية : قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث، فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[4]، قال عز من قائل : (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)[5] إلى غيرها من الآيات البينات التي مضمونها أن طاعة رسوله هي طاعة له تعالى، وأن معصيته معصية له تعالى، ثم أورد البيهقي حديث أبي رافع قال : قال رسول الله ﷺ : (لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه يقول : لا أدري ؟!!! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) أخرجه أبو داود والحاكم[6]، ومن حدث المقدام بن معدى

(١) النساء، آية : (٢٩).

(٢) البقرة، آية : (٢٧٥).

(٣) مفتاح الجنة (١٤).

(٤) الفتح، آية : (١٠).

(٥) النساء ، آية : (٨٠)

(٦) أبو داود : السنة، باب في لزوم السنة (١٢/٥) والترمذي : العلم، ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (٣٨/٥) وابن ماجه : المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (٧/١) وقال الترمذي : هذا حديث حسن، وذكر أن بعضهم رواه مرسلاً.

كرب قال : إن النبي عليه الصلاة والسلام حرّم أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلي وغيره، ثم قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : (يوشك أن يقعد رجل على أريكته، يتحدث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال إستحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرم الله)[1]، ثم قال البيهقي، : وهذا خبر من رسول الله عليه الصلاة والسلام عمّا يكون بعده من ردّ المبتدعة حديثه، فوجد تصديقه فيما بعد ؛ ويقول الإمام البيهقي في هذا الصدد : ولو لا ثبوت الحجة بالسنة، لما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم : (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع)[2].

ثم أخرج البيهقي بسنده عن شبيب بن أبي فضالة المكي، أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر الشفاعة، فقال رجل من القوم : يا أبا نجيد، إنكم تحدثوننا بأحاديث لم نجد لها أصلا في القرآن !! فغضب عمران فقال للرجل : قرأت القرآن كله ؟!! قال : نعم. قال : هل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً، ووجدت المغرب ثلاثاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً، والعصر أربعاً ؟!! قال : لا. قال : عمن أخذتم ذلك ؟!! ألستم عنا أخذتموه، وأخذناه عن النبي عليه الصلاة والسلام ؟!! ثم قال : أوجدتم في القرآن من كل أربعين شاة، شاة؟!! وفي كل كذا بعير، كذا، وفي كل درهم كذا؟!!) إلى آخر ذلك الحوار الحاد الذي أفحم فيه الصحابي الجليل ذلك السائل، الذي تجرأ فسأل ما ليس له، فاستحق التوبيخ والتأديب وفي الوقت نفسه، يدل على مدى ما يكنه سلفنا الصالح، من تقديرهم للسنة النبوية، والذود عنها، ومحبتها، وما من شك أن محبة سننه من محبته عليه الصلاة والسلام، ومحبته من أسس الإيمان، كما لا يخفى؛ والمحبة الصادقة، إنما تتمثل في الاهتمام بسنته علما وعملا،

(١) تقدم بعضه قبله، وأخرجه أيضا الدارمي : المقدمة باب السنة قاضية على كتاب الله (١/١٤٤) الترمذي : العلم، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (٥/٣٨) وابن ماجه : المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (١/٦) وحديث أبي داود المتقدم ذكره أتم من حديثهما.

(٢) من خطبة حجة الوداع المشهورة.

وتقديرها والاحتجاج بها، والذود عنها بكل سلاح ممكن ومتيسر.

مكانة السنة عند الخلفاء الراشدين

السنة النبوية بعد ثبوتها وصحتها، تتمتع عند المسلمين، قديماً وحديثاً، بما يتمتع به القرآن الكريم من حيث وجوب العمل بها، والرجوع إليها عند التنازع، وترك الرأي من أجلها، فلنسمع قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا المعنى : إذ أخرج البيهقي بسنده عن عمر رضي الله عنه قوله وهو على المنبر : (يا أيها الناس : إن الرأي إنما كان من رسول الله مصيباً، لأن الله تعالى كان يريه، وإنما هو منا الظن والتكلف). لهذا نرى عمر رجاعا في كل ما يبلغه حديث رسول الله في حادثة ما، ونازلة علمية جديدة، لا علم له فيها بسنة ثابتة، وإذا ثبتت السنة بادر دون أدنى توقف، إلى العمل بالسنة والرجوع إليها ومن شواهد ما ذكرنا ما يرويه ابن المسيب، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان يقول : الدية للعاقلة ـــ ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً، حتى أخبره الضحاك بن سفيان : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، كتب إليه أن يورث إمرأة أُشْيَم الضبابي، فرجع إليه عمر) أخرجه أبو داود[1].

ومنها ما أخرجه البيهقي عن طاووس، أن عمر قال : (أذكر الله امرأً سمع من النبي عليه الصلاة والسلام في الجنين شيئاً ؟، فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال : كنت بين جاريتين لي ـــ يعني ضرتين ـــ فضربت إحداهما الأخرى بمسطح، فألقت جنيناً ميتاً، فقضى فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام بغرّة)، فقال عمر : لو لم نسمع هذا لقضينا فيه بغير هذا، إن كدنا أن نقضي في مثل هذا برأينا)[2]. يقول الإمام الشافعي وهو يعلق على هذه الأخبار، وموقف عمر من السنة : قد رجع عمر عما كان يقضي فيه، لحديث الضحاك بن سفيان، فخالف حكم نفسه، وقال في

---

(١) مفتاح الجنة للسيوطي (٢٨ ـــ ٢٩)

وانظر : أبو داود الفرائض، باب في المرأة ترث من دية زوجها (٣/٣٣٩).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٨/١١٤).

الجنين، إنه لو لم يسمع هذه السنّة، لقضى فيه لغيرها، وقال : إن كدنا نقضي فيه برأينا.

ومنها، ما أخرجه الشيخان[1] من طريق ابن شهاب عن عبد الله بن عامر ابن ربيعة، أن عمر خرج إلى الشام، فلما جاء (سَرْغَ)[2]، بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً، فرجع عمر من (سَرْغَ) قال ابن شهاب : وأخبرني سالم بن عبد الله بن عمر، أن عمر إنما انصرف بالناس من حديث عبد الرحمن بن عوف.

ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله أخذها من مجوس هجر.[3]

هذا بعض ما أُثر عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله مواقف أخرى كثيرة ومماثلة، وهو موقف كل صحابي من الخلفاء وغيرهم، وهاك بعض مواقف الخليفة الأول، أبي بكر رضي الله عنه :

عن قبيصة بن ذؤيب قال : جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، لتسأله عن ميراثها، فقال لها أبو بكر : مالك في كتاب الله شيء، وما أعلم لك في سنة نبي الله شيئاً، فارجعي حتى أسأل الناس، فسأل الناس، فقال له المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله عليه الصلاة والسلام، فأعطاها السدس، فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما

---

(١) البخاري : الطب، باب ما يذكر في الطاعون (١٧٩/١٠) والحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (٣٤٤/١٢) ومسلم : السلام، باب الطاعون والطيرة (١٧٤٠/٤ — ١٧٤٢).

(٢) بفتح أوله وسكون ثانيه، وبالغين المعجمة، وبالمهملة لغة فيه قرية كانت بوادي تبوك في طريق الشام (معجم البلدان ٢١١/٣ — ٢١٢).

(٣) الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة (٢٥٧/٦)

قال، فأنفذه لها أبو بكر(١).

هكذا نتبين من هذا الاستعراض السريع لنصوص أهل العلم ومواقفهم في مختلف العصور، تلك النصوص التي يصعب إحصاؤها ؛ نتبين أن الأمة مازالت، ولن تزال متفقة على أن السنة النبوية يجب أن تكون لها مقام معلوم في بيان الأحكام، وأنها حجة قائمة بنفسها، وأنه يجب الرجوع إليها، إذا ثبتت، ولا يجوز الحكم بالاجتهاد والرأي مع ثبوتها، وأنها قد ثبتت بها الأحكام، ولو لم يرد بها الكتاب، هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى، أنها بيان للقرآن، وتفسير له، ومفصّلة ما أجمل فيه، وهذه المعاني كلها محل إجماع عند من يعتد بأقوالهم، ولا نعلم أحداً شذ عن هذه القاعدة إلا الزنادقة وغلاة الرافضة الذين لا يتأثر الإجماع بمخالفتهم، بل لا يستشارون إن حضروا، ولا يُسأل عنهم إذا غابوا، لأنهم فارقوا جماعة المسلمين ونابذوهم، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، بمواقفهم العدائية لأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك الموقف الذي أدى إلى رد أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ـــ المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ـــ بدعوى أنها رواية قوم كافرين؛ ومن باب ذر الرماد في العيون ـــ عيون السذّج طبعاً ـــ قالوا : نحن نعمل بالقرآن، ونقتصر عليه، وهذا كلام لا ينطلي على أولى النُهى من طلاب العلم، وأهل الإيمان، والله الموفق.

لابد من الرجوع إلى السنة لفهم عديد من الأحكام

إن الدارس لكتاب الله والسنة النبوية، ولا سيما آيات الأحكام، وأحاديث الأحكام، ليدرك تمام الإدراك أن للسنة دوراً هاماً، لا يستهان به في بيان الأحكام

---

(١) موطأ مالك : الفرائض، باب ميراث الجدة (٣٣٥/١) وأبو داود : الفرائض، باب في الجدة (٣١٦/٣ ـــ ٣١٧) والترمذي : الفرائض، باب في ميراث الجدة (٤٢٠/٤) وابن ماجة : الفرائض، باب ميراث الجدة (٩١٠/٢)

المجملة في القرآن الكريم، وهي التي تقيد المطلق، وتخصص العام، وتبين الناسخ والمنسوخ.

الأمثـــلة

إذا أردنا أن نسوق أمثلة للأحكام التي أجملت في القرآن، وبينتها السنة وفصلتها، وأمثلة أخرى للأحكام التي انفردت بها السنة ولا وجود لها في القرآن، لوجدنا الشيء الكثير في مختلف أبواب العبادات والمعاملات والحدود وغيرها.

الطهـــارة

من الأحكام التي وردت في القرآن مجملة، وزادتها السنة بياناً وتوضيحاً، الوضوء والتيمم : ذكر الوضوء والتيمم في القرآن بنوع من التفصيل، إذ يقول الله تعالى، مخاطباً المؤمنين، الذين يريدون القيام إلى الصلاة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء، فلم تجدوا ماءً، فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم عليكم نعمته، لعلكم تشكرون** ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة من سورة المائدة، بيّن الله تعالى صفة الوضوء، بنوع من التفصيل، إذ بيّن المغسول والممسوح من أعضاء الوضوء، كما بين حد اليدين والرجلين، ثم ذكر التيمم، وأنه في الوجه واليدين دون سائر أعضاء الوضوء، كالرجلين والرأس مثلا، إلا أن الحاجة إلى بيان السنة لا تزال قائمة، حتى مع هذا البيان الذي ترى :

---

(١) سورة المائدة الآية ٦.

توضيـــح ذلـــك

جاءت السنة بالبيان التالي :

أ ــ إذا أخذ المتوضيء في الوضوء، يغسل كفيه ثلاث مرات، ثم يستنشق، ويستنثر، ويتمضمض ثلاث مرات،

ب ــ بينت السنة بأنه يجوز للمتوضيء أن يغسل الأعضاء المغسولة مرةً مرةً، أو مرتين مرتين، أو ثلاث مرات، وهو الأكمل، كما يجوز له أن يغسل بعضها مرة وبعضها مرتين وبعضها الآخر ثلاثاً.

ج ــ بينت السنة الفعلية أن الرأس يمسح مرةً واحدة بكيفية معينة، وموضحة في السنة، بأن يبدأ من مقدم رأسه بيديه، ثم يذهب بهما إلى قفاه، ثم يردهما إلى حيث بدأ مرة واحدة، ولا يكرر مسح الرأس، وكذلك الأذنان لا يكرر مسحهما على الصحيح، وبينت السنة أيضاً أنه لا يجب أن يأخذ لأذنيه ماءً جديداً، بل يمسحهما مع الرأس، وبالماء الذي أخذه للرأس، هذه صفة الوضوء على ضوء الكتاب والسنة معاً[1].

أما التيمم : فقد بين القرآن الكريم أن التيمم إنما هو في الوجه واليدين كما تقدم فيبقى أن نعرف حد اليد هنا، هل هي في التيمم مثلها في الوضوء، فيمسحهما إلى المرفقين ؟!! وهل التيمم بضربة واحدة أو بضربتين ؟ تجيب السنة الصحيحة على هذين السؤالين، ولا جواب إلا في السنة !! إذ ثبتت فيها أن التيمم بضربة واحدة[2].

كما ثبت فيها أن حد اليدين هنا إلى المفصل الكف، هذا، وقد استطردت الآية الكريمة التي تحدثت عن الوضوء والتيمم، إلى حكم آخر بالمناسبة، وهو

---

(١) أنظر صفة الوضوء في صحيح البخاري (كتاب الوضوء (١ : ٢٣٢ وما بعده)

(٢) قصة عمر بن الخطاب وعمار رضي الله عنهما، راجع صحيح البخاري : التيمم، باب التيمم للوجه والكفين (١/٤٤٤ ــ ٤٤٥)

الطهارة من الجنابة حيث قالت : ﴿ وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾(١) هكذا أجملت الآية هذه الطهارة، فبينت السنة أنها طهارة بالماء إذا تيسر على الوجه التالي : يغسل أطرافه وما أصابه من القذر، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، فيغسل رأسه ثم يعمم بدنه بالماء مع تخليل الشعر الكثيف، ليصل الماء إلى أصول الشعر، هذا إذا كان الماء متيسراً، أما إذا تعذر الماء، أو عند العجز عن استعماله، فيكفيه الصعيد الطيب، بأن يضرب الأرض بيديه، ويمسح وجهه وكفيه مرة واحدة، وكفى ؛ هذا هو البيان الذي سجلته السنة، في هذه المسألة، رويناه بالمعنى، طبعاً، وهو مجمل في قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾.

هكذا ننتهي من حديثنا عن الطهارة، بإيجاز، وأرجو ألا يكون مخلا، لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصلاة، وما قامت به السنة من البيان والإيضاح والتفصيل، تفصيلا لم يرد مثله في الكتاب فهاك البيان :

الصــــلاة

إن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، ورد ذكرها في القرآن هكذا : ﴿ أقيموا الصلاة ﴾(٢) فكيف إقامتها يا ترى ؟!! فالسنة وحدها هي التي تجيب على هذا السؤال الهام، وقد علمنا في دراسة السنة أن الله أوجب الصلاة على رسوله وأتباعه، ليلة الإسراء والمعراج، حين عرج به عليه الصلاة والسلام، إلى حيث يسمع صريف الأقلام، أقلام الملائكة، وهم يكتبون ما أمروا بكتابته، فهناك خوطب النبي الكريم ﷺ من قبل ربه ومولاه سبحانه، فأسمعه كلامه سبحانه، إلا أنه لم يمكنه من رؤيته، بل احتجب عنه بنوره سبحانه : (نور أنّى أراه)(٣)،

---

(١) سورة المائدة (٦)

(٢) سورة المزمل (٢٠).

(٣) مسلم : الإيمان، باب في قوله عليه السلام : نور أنى أراه، وفي قوله : رأيت نورا (١/١٦١) من حديث أبي ذر وانظر أيضاً : شرح العقيدة الطحاوية (٢١٣).

(حجابه النور)[1] في تلك اللحظة العظيمة، أوجب الله عليه خمسين صلاة، فقبلها رسول الله، عليه الصلاة والسلام ـــ فانصرف لينزل، إلا أن بعض إخوانه من أولي العزم (موسى) عليه السلام أوقفه، ونصحه ليراجع ربه ويسأله التخفيف، فرجع النبي ﷺ إلى حيث كان عندما خاطبه ربه أولاً، فسأله التخفيف لأمته، فخفف الله عنهم بعض التخفيف، فتكرر السؤال والشفاعة، وتكرر التخفيف، إلى أن خفضت الصلاة من خمسين إلى خمس صلوات، فنزل رسول الله ﷺ، وعاد إلى مكة بذلك الإيجاب الإجمالي، فبعث الله إليه رسوله جبرائيل فعلمه أفعال الصلاة، وعدد الركعات، وموضع السر والجهر في القراءة، كما علمه كيف يتطهر لها، هكذا بينت السنّة صفة الصلاة بالاختصار.

الـــزكـــــاة

الزكاة : وقد ورد في الكتاب العزيز الأمر بالزكاة إجمالا دون تفصيل، شأن الصلاة، بقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[2]، ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾[3] فتولت السنة بيان الأموال التي تجب فيها الزكاة وبيان الأنصبة، والمقدار المأخوذ من كل نصاب، إلى آخر البيان الشامل بأطراف هذا الركن العظيم، كما بينت السنة نوعاً من الزكاة يسمى زكاة الفطر أو صدقة الفطر، تؤدي في نهاية رضمان للمستحقين، وهي صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من طعام، أو صاع من إقط. الخ.

الصيـــــــام

الصيام ؛ وقد تناول القرآن الكريم هذا الركن بنوع من التفصيل في

---

(١) مسلم : الإيمان، باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام، وفي قوله : حجابه النور (١٦١/١) من حديث أبي موسى الأشعري وانظر أيضا : شرح العقيدة الطحاوية (٢١٤).

(٢) سورة المزمل (٢٠)

(٣) سورة الأنعام (١٤١)

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم، لعلكم تتقون، أياماً معدودات، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر، فعدة من أيام أخر** ﴾، إلى أن قال : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفر، فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقال في البيان نفسه : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد، تلك حدود الله فلا تقربوها، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾[1]، وبعد هذا التفصيل القرآني، الذي سمعت، تبقى هناك أحكام وردت بها السنة، وانفردت بها منها حكم من واقع امرأته في نهار رمضان وهو صائم، ما الذي عليه ؟!!

ومنها من أكل وشرب ناسياً في نهار رمضان ماذا يفعل ؟!!

ومنها حكم من لا يدع قول الزور والعمل به، وهو صائم، ما حجم ذنبه وهل صيامه صحيح أم باطل.

وقد بينت السنة، كفارة الذي واقع امرأته في نهار رمضان، كما بينت أن الذي أكل أو شرب ناسياً في رمضان فعليه أن يتم صيامه فإن الله هو الذي أطعمه وسقاه، وتصدق عليه صدقة لا تضر صيامه !! والسنة تنص على الذي لا يدع قول الزور والعمل به، وتنادي عليه، بأنه ليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه، وقد قالت طائفة من أهل العلم، لا يستهان بها : أن الكذب وما في معناه، يفسد الصيام أخذاً من ظاهر الحديث المشار إليه، وهو حديث صحيح[2]؛ وإن خالفهم في ذلك جمهور أهل العلم، وتفصيل ذلك معروف في موضعه في كتب الفقه، وكل الذي نريد أن نقوله هنا، أن السنة ساهمت في بيان الأحكام حتى في هذا الموضوع الذي فصل فيه القرآن ذلك التفصيل، وهي ما يوضحه قوله عليه الصلاة

(١) سورة البقرة (١٨٣ — ١٨٧)

(٢) انظر : البخاري : الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (١١٦/٤)

والسلام : (أوتيت القرآن ومثله معه)(١)، وهي السنة المطهرة، وقوله عليه الصلاة والسلام : (إن ما حرم رسول الله، كما حرم الله(٢)، وما أحله رسول الله، كما أحله الله)(٣).

الحـــج

الحج ؛ ولو تركنا بحث الصيام لننتقل إلى الحج، لوجدنا القرآن الكريم، يعلن بوجوب الحج بقوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت، من استطاع إليه سبيلا** ﴾(٤)، وهي الآية التي نزل بها وجوب الحج، على الصحيح عند أهل العلم، ولم يكتف القرآن بإعلان وجوب الحج فقط، بل قد ذكرت عدة أحكام من أحكام الحج في سورة البقرة؛ كالإفاضة من عرفة، وذكر الله عند المشعر الحرام، وحكم من تعجل في يومين ومن تأخر إلى اليوم الثالث، والطواف بالبيت العتيق، وغير ذلك، فتولت السنة بيان بقية الأحكام التي لم يرد ذكرها في القرآن، وهي أحكام كثيرة جداً، وردت في أحاديث صحاح في مقدمتها حديث جابر بن عبد الله المعروف لدى طلاب العلم، ذلك الحديث الذي شرح بوضوح صفة حجة النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ألف كثير من أهل العلم(٥) على ضوئه رسائل وكتابات في مناسك الحج بعد أن ضموا إليه أحاديث أخرى، اشتملت على أحكام، لا يستغنى عنها، وهذا الباب من الأبواب التي استفاضت فيها السنة بالبيان والتوضيح، قولية أو فعلية، كما لا يخفى على طلاب العلم ـــ فبالسنة عرفنا كيف

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه الترمذي : العلم، باب ما نهى عنه عند حديث النبي ﷺ (٥/٣٨) وابن ماجة : المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (٦/١) من حديث المقدام بن معدي يكرب، وقال الترمذي : حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) ورد نحوه في خطبة عمر بن عبد العزيز أخرجها الدارمي : المقدمة باب ما يتقى من تفسير حديث النبي ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ (١١٥/١)

(٤) سورة آل عمران (٩٧)

(٥) انظر مثلا : حجة النبي ﷺ كما رواه عنه جابر رضي الله عنه للشيخ محمد ناصر الدين الألباني المطبوع بالمكتب الإسلامي، بيروت

نحرم ؟ وما الذي يحرم علينا بالإحرام ؟، وبها عرفنا كيف نطوف، وبها عرفنا السعي، وكيف نسعى : من أين نبدأ وإلى أين ننتهي ؟ وأين نقف يوم عرفة، وكيف ومتى ؟ إلى آخر أعمال الحج، ولست أدري كيف يحج (الهوائيون) الذي سموا أنفسهم (بالقرآنيين) ما أضلهم ! وما أبعدهم عن الصواب !! وسيأتي الحديث معهم إن شاء الله.

البيـــوع

البيوع : أن السُنن التي وردت لبيان الأحكام المجملة في القرآن، أو التي انفردت بأحكام لم ترد في القرآن، ليست تنحصر في أبواب العبادات فحسب، بل للسنة دورها المعروف في جميع المباحث الفقهية من المعاملات والجنايات والحدود؛ ففي البيوع نجد الآية الكريمة تقول : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾[(1)] فإذا راجعنا السنة الصحيحة، نجد أنواعاً من البيوع المنهى عنها بالسنة المطهرة :

١ ــ منها البيع على بيع أخيه والسوم على سوم أخيه المسلم.

٢ ــ منها النجش[(2)].

٣ ــ منها بيع الملامسة.

٤ ــ منها بيع المنابذة.

٥ ــ وبيع الحصاة.

٦ ــ وبيع المزابنة، كما في حديث أنس عند البخاري.

٧ ــ منها حكم بيع الشاة المصرّاة وما يترتب عليه.

٨ ــ منها تلقي الركبان.

٩ ــ أن منها بيع حاضر لبادي، وغيرها كثيرة، ومعروفة في مواضعها.

من كتب السنة وكتب الفقه، من البيوع المشتملة على الغرر والجهالة، وكلها

---

(١) سورة البقرة (٢٧٥)

(٢) هو أن تزيد في السلعة لتوقع غيرك، وليس لك حاجة في الشراء.

محرمة بالسنة، كما وردت في السنة في هذا الباب أحكام أخرى كثيرة، مثل خيار المجلس، وخيار الشرط وغيرهما من الأحكام.

الحـــــدود

الحدود : أما في هذه الأبواب، فحدِّث دون تحفظ أو حرج عن السنن التي وردت بأحكام على وجه الانفراد، قبل أن يكون لها ذكر في القرآن، فلنأخذ مثالاً واحداً لنكتفي به، وهو حد السرقة : يقول الله تعالى في بيان هذا الحد في كتابه العزيز : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا، نكالاً من الله، والله عزيز حكيم** ﴾[1]فلإقامة هذا الحد الذي أمرنا بإقامته، نحتاج إلى معرفة أمرين اثنين :

(أ) ما هو المقدار الذي إذا أخذه السارق تقطع يده ؟ أي ما هو نصاب السرقة ؟ فبينت السنة ذلك؛ إذ يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : (لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا)[2].

(ب) ما حد اليد هنا ؟ هل هي من المنكب ؟ هل هي من المرفق ؟ أو هي من مفصل الكف ؟ والسنة الفعلية هي التي تجيب على هذه التساؤلات، إذ كانوا يقطعون من مفصل الكف، هذا ولو أردنا أن نسرد الأحكام التي أجملت في القرآن، وبينتها السنة ـــ أو الأحكام التي انفردت بها السنة في جميع الأبواب الفقهية، لاحتاج المقام إلى سفْر، فلنكتف بهذه الإشارة، وهي كافية لمعرفة مكانة السنة، ومنزلتها في التشريع الإسلامي، وهو ما أردناه والله ولي التوفيق.

---

(١) سورة المائدة (٣٨)

(٢) البخاري : الحدود، باب قوله تعالى : والسارق والسارقة الخ (٩٦/١٢) ومسلم : الحدود، باب حد السرقة ونصابها (١٣١٢/٣ ـــ ١٣١٣)، أبو داود : الحدود، باب ما يقطع فيه السارق ((٥٤٦/٤) والنسائي : قطع السارق، باب القدر الذي إذا سرقه السارق قطعت يده (٢٥٤/٢) من حديث عائشة.

من هم أعداء السنة ؟!!

على الرغم مما ذكر، ومما لم يذكر من الأدلة القطعية من الآيات الصريحة، والأحاديث الصحيحة، وآثار الصحابة، ومن بعدهم من أهل العلم.

على الرغم من تلك الأدلة التي تصرخ بأعلى صوتها، بأن السنة صنو الكتاب، وأن السنة هي الحكمة المذكورة في القرآن في غير ما آية، وأنها من وحي الله، وأن ديننا يؤخذ من الكتاب والسنة معاً، لا من الكتاب وحده، على الرغم من كل ذلك، لم تسلم السنة من تهجم جهلة المتفقهة، وعداء غلاة الرافضة والزنادقة، حيث زعمت الرافضة، وجوب الاستغناء بالقرآن عن السنة في أصول الدين وفروعه والأحكام الشرعية، لأن الأحاديث في زعمهم رواية قوم كفار، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن النبوة إنما كانت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن جبريل عليه السلام، أخطأ فنزل بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام بدل أن ينزل بها إلى علي. وهذا الزعم يعني : أن أمر الوحي كان مضطرباً، ولا يصدر من تنظيم محكم من قبل رب حكيم سبحانه، وإنما يتخبط فيه ملك الوحي (جبرائيل)، وأن ملك الوحي نفسه ليس بمعصوم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنهم من يقر للنبي — عليه الصلاة والسلام — بالنبوة، ولكنه يقول : إن الخلافة كانت حقاً لعلي — رضي الله عنه — فلما عدل بها الصحابة إلى أبي بكر رضي الله عنه، كفروا بذلك — في زعمهم — حيث جاروا وظلموا — في زعمهم — بعدولهم بالحق عن مستحقه، وبالتالي كفّروا علياً، لعدم طلبه حقه، فبنوا على ذلك رد الأحاديث كلها، لأنها — عندهم في زعمهم — رواية قوم كفار، كما تقدم، وهذه القاعدة الكفرية الواهية في نفس الوقت، هي أساسهم في رد أحاديث رسول الله علية الصلاة والسلام، وأخيراً أطلق أتباع هؤلاء من المتأخرين على أنفسهم بأنهم (القرآنيون) أي العاملون بالقرآن، المستغنون به عن السنة، هذا تفسير كلمة (القرآنيون) حسب (رغبتهم)، ولكن التفسير المطابق لواقعهم، أنهم المخالفون للقرآن، المتبعون للهوى، وهذا أشبه بإطلاق كلمة (القدرية) على نفاة القدر، لأنهم في الواقع

مخالفون للقرآن، خارجون عليه، كما خرجوا على السنة، لأن القرآن يدعو الناس إلى الأخذ بالسنة إيجاباً وسلباً؛ إذ يقول الله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1]، ولا يتم الإيمان بالقرآن إلا بالإيمان الصادق بمن أنزل عليه القرآن، والإيمان به إنما يعني تصديقه في أخباره اتباع أمره ونهيه. وقد ذكر الإمام السيوطي في رسالته اللطيفة (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة)، قاعدتهم هذه ثم قال مستهجناً ومستقبحاً : (ما كنت أستحل حكايتها لولا ما دعت إليه الضرورة من بيان أصل هذا المذهب الفاسد، الذي كان الناس في راحة منه من أعصار) إلى أن قال : (وقد كان أهل هذا الرأي موجودين بكثرة في زمن الأئمة الأربعة، وتصدى الأئمة وأصحابهم للرد عليهم في دروسهم ومناظراتهم وتصنيفاتهم)[2]، ثم ساق من نصوص كلامهم الشيء الكثير، وقد سبق أن نقلنا من كلام أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم، ما يكفي لمعرفة موقف أهل السنة من أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو يتضمن تزييف كلام أهل البدع والهوى، ومن أراد المزيد فعليه بالرسالة المشار إليها، وقبلها رسالة الإمام الشافعي المعروفة، وغيرهما من المراجع المعتبرة في هذا الباب ولو أخذنا نستعرض الأبواب الفقهية التي تقوم بتنظيم حياة الناس في معاشهم مثل أبواب البيوع التي مررنا بها مراً سريعاً، بذكر بعض الأمثلة منها، ومثل باب التفليس والحجر، وباب الصلح والحوالة والضمان، وبحوث الشركات والوكالة والشفعة والقرض، ومبحث المساقاة والإجارة والهبة والعارية وغيرها، من أبواب الفقه، لو استعرضنا السنن التي تنبني عليها هذه الأبواب ومسائلها، لوجدنا أن السنة هي التي تنظم للناس حياتهم اليومية، لأن جميع المسائل الفقهية التي يتعامل بها الناس في معاشهم، ويرجعون إليها في محاكمهم، فمستندها إنما يكون إلى الكتاب أو السنة معاً، ولا يصح حكم أو قضاء لا مستند له منهما. أما الكتاب، فأكثر الأحكام التي وردت فيه من الأبواب المشار إليها، إنما كانت مجملة، وفصلتها السنة، وقد تكون أكثر تلك الأحكام لم يرد بها نص في الكتاب، وإنما

(١) سورة الحشر (٧)

(٢) مفتاح الجنة للسيوطي (٦)

انفردت بها السنة، كما أوضحنا فيما سبق، فكيف يزعم زاعم بعد هذا كله، الاستغناء عن السنة ؟!! ودعوى الاستغناء عن السنة هي في واقعها محاولة للاستغناء عن الإسلام، بأسلوب ملتو، غير صريح، ويؤكد هذا ما سبق أن ذكرنا من أن أصل هذه المحاولة من الزنادقة، وغلاة الرافضة، الذين صرحوا بتكفير الصحابة، الذين هم سند هذا الدين، والذين نطق بهم القرآن وأثنى عليهم، من المهاجرين والأنصار؛ وتكفير هؤلاء السادة، أنما يعني تكذيب الله سبحانه في إخباره أنه رضي عنهم ورضوا عنه، وأنهم اتبعوا رسوله، النبي الأمي في ساعة العسرة.

كما يتضمن تكذيب خبر الرسول عليه الصلاة والسلام في ثناؤه عليهم، وشهادته لمجموعة كبيرة منهم أنهم من أهل الجنة، ومن تجرأ على مثل هذا التصرف، ووصل إلى هذه الدرجة، فعليه أن يراجع الإسلام من جديد، لأنه قطع علاقته بالإسلام بهذا التصرف، الذي يعتبر ردة عن الإسلام، والله المستعان.

وقد حاول هؤلاء الزنادقة، إزالة السنة من الوجود، والقضاء عليها لو استطاعوا، أو أن يجعلوا وجودها وجوداً شكلياً، فاقداً للقيمة، إلا أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منها شيئاً، وانقلبوا خاسرين ومهزومين، مثلهم كمثل الذي يحاول قلع جبل أحد مثلا، فيحوم حوله، وفي سفحه، وينقل من أحجاره حجراً حجراً، ظناً منه أنه بصنيعه هذا يستطيع قلع الجبل وأزالته من مكانه، أو كالذي يغترف من البحر اغترافاً بيده أو بدلوه، محاولاً بذلك أن ينفد البحر أو ينقص؛ وما من شك أن هذا المسكين سوف تنتهي أوقاته ويحل أجله المحدود، والجبل جبل، والبحر بحر بل يبقى البحر ثابتاً في مكانه، يغوصه الغواصون من رجال هذا الشأن، ليخرجوا للناس اللآلىء والدرر من المسائل العلمية النافعة، كما يبقى الجبل ثابتاً وشامخاً، يصعده أصحاب الخبرة، ويترددون بين شعابه، ليعثروا على ما قد يخفى على غيرهم بين تلك الشعاب المتنوعة، التي لا يسلكها إلا الخواص، ليخرجوا بالمسائل الدقيقة، التي لا يفطن لها غيرهم — إذ لكل ميدان رجال.

هذه نهاية محاولة الرافضة ومن يشابههم ويسير في ركابهم، وقد أراد المنكرون

لأخبار الرسول عليه الصلاة والسلام، بناء على القاعدة الكفرية السابقة، أن يجدوا ما يتعلقون به أمام خصومهم من أهل السنة، وذهبوا يبحثون عن الأخبار والأحاديث التي تؤيد ما ذهبوا إليه، من قريب أو بعيد، وفي أثناء بحثهم، عثروا على كلام باطل بطلان مذهبهم ونصّه هكذا : (ما جاءكم عني فاعرضوه على الكتاب، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فأني لم أقله).

وطاروا به فرحاً، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفلتوا بحديثهم هذا من أيدي حراس السنة ولم تنم عنهم تلكم العيون الساهرة، حفظاً على السنة، بل عثروا على حديثهم ذاك، فأعلنوا أنه من أباطيلهم ودسائسهم، حتى عرفه الناس، فسجلوه في كتبهم، وأجروا له عمليتهم الخاصة، وفندوه وجرحوه، وعرّوه، حتى انكشف حاله، فلله الحمد والمنة.

قال السيوطي في رسالته اللطيفة « مفتاح الجنة »[1] : ثم قال البيهقي : باب بيان بطلان ما يحتج به بعض من رد السنة، من الأخبار التي رواها بعض الضعفاء، في عرض السنة على القرآن ــ قال الشافعي ــ رحمه الله : احتج عليّ بعض من ردّ الأخبار، بما روى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : (ما جاءكم عني فاعرضوه على الكتاب، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فأنا لم أقله) فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير، وإنما هي رواية منقطعة عن رجل مجهول، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شيء ا. هـ.[2]

---

(١) مفتاح الجنة (٢١)

(٢) قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله : قال عبد الرحمن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا حديث ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف فلم أقله وقد عارض حديث العرض قوم، فقال : وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله فخالفه، لأنا وجدنا في كتاب الله : وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، ووجدنا فيه : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ووجدنا فيه : من يطع الرسول فقد أطاع الله، وقال الأوزاعي : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب، وقال ابن عبد البر : انها تقضي عليه وتبين المراد منه، وقال يحي بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب وقال الشوكاني : والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها تشريع الأحكام ضرورية دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لاحظ له في دين الإسلام (أنظر : جامع بيان العلم وفضله، وإرشاد الفحول للشوكاني ص ٣٣ والدارمي : المقدمة، باب السنة قاضية على كتاب الله (١/١٤٥) ومفتاح السنة (٤٣)

قال البيهقي : أشار الإمام الشافعي إلى ما رواه خالد بن أبي كريمة، عن أبي جعفر عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه دعا اليهود فسألهم، فحدثوه حتى كذبوا على عيسى عليه السلام، فصعد النبي المنبر، فخطب الناس : فقال : (إنّ الحديث، سيفشوا عني، فما أتاكم يوافق القرآن فهو عني، وما أتاكم يخالف القرآن فليس عني) قال البيهقي : خالد مجهول، وأبو جعفر ليس بصحابي، فالحديث منقطع؛ وقال الشافعي : ليس يخالف الحديث القرآن، ولكن حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام بين معنى ما أراد خاصاً أو عاماً، ناسخاً ومنسوخاً، ثم يلتزم الناس ما سن بفرض الله، ممن قيل عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فعن الله قبل، ثم ذكر السيوطي بقية كلام البيهقي حول الحديث، والله أعلم.

تقديس الآراء أدى إلى الإعراض عن السنة

وإذا كان الحامل للرافضة، والمخدوعين بهم على ذلك الموقف العدائي، هو ما تكتنفه نفوسهم الخبيثة من الأحقاد على أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، والظن السيء برسول الله عليه الصلاة والسلام، وعدم الإيمان به، الإيمان الصادق، واعتقادهم في الملائكة عدم العصمة، وأخيراً عدم تقديرهم لرب العالمين حق قدره، إذ كان الحامل لهم هو هذه المعاني ــ فيا ترى ما الذي حمل بعض المتفقهة على هذا الجفاء والإعراض عن السنة، والوقوف منها موقف المستغنى عنها ؟!!

الجواب : الذي يبدو لي أن الذي حمل القوم على ذلك هو الغلو في تقديس آراء الرجال، واعتبارها ديناً يدان به لرب العالمين، وقد أدى بهم هذا الغلو إلى إساءة الظن بنصوص الكتاب والسنة، فزعموا أنها إنما تقرأ وتسمع لأجل التبرك بألفاظها فقط، لا للاهتداء بها بتطبيق الأحكام التي اشتملت عليها !!

صحيح أنها نصوص مباركة حقاً، فكتاب الله كتاب مبارك ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام (٩٢).

وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، مباركة أيضاً، وإذا ما تعلم المسلمون كتاب ربهم وسنة نبيهم، وعملوا بهما، محللين حلالهما، محرمين حرامهما، ومطبقين أحكامهما على حياتهم العامة والخاصة حصلت لهم بركة لا يتوقعونها، وقد حصلت لسلفهم يوم كانوا مؤمنين بهما حق الإيمان، أجل لو فَعَل المسلمون اليوم ذلك، لتغيرت حياتهم الجاهلية هذه، إلى حياة إسلامية مباركة، حياة الأمن والرفاهية، حياة الرحمة، يتمتعون فيها بالهيبة والمنعة والكرامة، يستردون فيها كل ما سلبوا من حقوقهم المادية والمعنوية، وتعود إليهم وحدة الصف، وينالون فيها النصر والغلبة، هذه هي البركة التي تتوقع من الإيمان بالكتاب والسنة، أما البركة التي معناها حصول الرزق الواسع للمنزل الذي يقرأ فيه القرآن الكريم، وصحيح البخاري، وأن ذلك المنزل سوف يسلم من الحريق، وتسلط العدو، ومفاجآت الثعابين وغير ذلك من حوادث الأيام، فنقول لهم : إن القرآن لم ينزل لهذا الغرض، ولا السنة أوحت إلى النبي بهذا الغرض، وعلى رسلكم ـــ أيها القوم ـــ !! وفي زعم هؤلاء (البركيِّين) : إن النصوص معزولة عن حياة المسلمين العامة والخاصة، وأن مصادر الأحكام هي آراء الرجال، وإليها المرجع، فعلى أهل كل مذهب أن يراجعوا آراء علماء مذهبهم، وإذا أرادوا معرفة حكم ما، وأن الدين كله هو ما في الكتب، التي هي عبارة عن (مجمع) آراء الرجال واجتهاداتهم واستحساناتهم وأقيستهم، وقد تقرأ بعض تلك الكتب، التي قد يعتبرها بعضهم (موسوعة علمية) من ألفها إلى يائها، ولا تكاد تمر بحديث واحد أو آية واحدة يستشهد بها المؤلف على حكم من الأحكام.

قد يتهمني البعض بالمبالغة، إذا قلت إن هذا التعصب للمذاهب، هو الذي حال بين كثير من المسلمين وبين فهم السنة، كما يجب، وهو من أسباب تفرق المسلمين وتشتتهم، وبالتالي فهو من أسباب تخلف المسلمين، وتسلط أعدائهم عليهم، لأنهم خالفوا كتاب ربهم، الذي هو عزهم، وهو يناديهم بقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾[1] حتى أصبحت الأمة الواحدة،

(١) آل عمران، آية : (١٠٣)

كأصحاب ملل مختلفة، كل حزب بما لديهم فرحون، وقد صار لهذا التفرق الديني ــ إن صح التعبير ــ أثره السيء في حياة الأمة الاجتماعية والسياسية، وإن ما تعيشه أمتنا ــ اليوم ــ من هذا التشتت الذي لم يسبق له مثيل، ومن التخاذل أمام أعدائهم، والهزائم المتلاحقة، والعجز عن إيجاد وحدة إسلامية، تجمع شتات هذه الأمة، كل ذلك من شؤم التعصب المذموم، الممزق للأمة، والله المستعان.

وقد تحدث غير واحد من أئمة المسلمين عن أضرار التعصب المذهبي، وإعراض كثير من الناس بسببه عن الكتاب والسنة، والاستغناء عنهما بالآراء، واخترت لحديثي هذا نبذة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية، ثم اتبعه إن شاء الله بكلام شيخه، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله.

قال الإمام ابن القيم في بعض كتبه(١) : لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء، والقياس، والاستحسان وأقوال المشايخ، عرض لهم من ذلك، فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم، حتى ربى فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكراً، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى؛ والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها. ثم قال رحمه الله : فإذا رأيت دولة هؤلاء قد أقبلت، ورأيتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض ــ والله ــ خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحوش أسلم من مخالطة الناس ــ ثم قال ــ وهو ينصح لمن وقع في هذا الأمر ــ : اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل

(١) الفوائد (٤٨ ــ ٤٩ و ١٠٤)

فيه إلى قليل ولا كثير، ذلك يوم التغابن : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾[1] ثم أردف قائلا : (العامل بغير إخلاص، ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه) ثم قال في وصف المتعصبين : (وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد : قلت لأيوب : العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم ؟!! فقال : الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر، ففرّق هذا الراسخ بين العلم وبين الكلام، فالكتب كثيرة جداً، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله، قال الله تعالى : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم** ﴾[2] وقال : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم** ﴾[3] وقال في القرآن : ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾[4] أي ومعه علمه؛ ثم واصل الإمام كلامه قائلا : (ولما بعد العهد بهذا العلم، آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار، وسوانح الخواطر والآراء، علماً، ووضعوا فيها الكتب، وانفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملأوا بها الصحف مداداً، والقلوب سوادا، حتى صرح كثير منهم، أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم، وأذن بها بين أظهرهم، حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرتها، والثوب من لابسه) إلى أن قال : (وقال لي بعض أئمة هؤلاء : إنما نسمع الحديث لأجل البركة، لا نستفيد منه العلم، لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤونة، فعمدتنا على ما فهموه وقرروه، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل :

نزلوا بمكـة في قبائـل هاشم ... ونـزلت بالبطحـاء أبعـد منـزل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف هؤلاء : (إنهم طافوا على

---

(١) الفرقان، آية : (٢٧).
(٢) آل عمران، آية : (٦١).
(٣) البقرة، آية : (١٤٥).
(٤) النساء، آية : (١٦٦).

أبواب المذاهب، ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك دليلا على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله ما ترى من التناقض والاختلاف، ومصادمة بعضه لبعض؛ قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾(١) وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف، وأن ما اختلف وتناقض، فليس من عنده، وكيف تكون الآراء والخيالات، وسوانح الأفكار ديناً يدان به، ويحكم به على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، سبحانك هذا بهتان عظيم، وقد كان علم الصحابة الذي يتذاكرون فيه، غير علوم هؤلاء المتخلفين الخراصين كما حكى الحاكم في ترجمة أبي عبد الله البخاري قال : (كان أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا اجتمعوا إنما يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ليس بينهم رأي ولا قياس ا.هـ.) كلام شيخ الإسلام.(٢)

وهذا لا يعني إنكار القياس كلياً، فمثل قياس العلة أمر لا مفر منه، والبحث معروف في موضعه.

وبعد؛ هذا ما استحسنت أن أسجله في هذا المقام من كلام أهل العلم، للاستدلال على أهمية المقام، وهو مقام جد خطير، كما ترى إذا انشغل جمهور المسلمين اليوم بتلكم الآراء تاركين نصوص الكتاب والسنة وراءهم مهجورة، وكأني بقائل يقول : إن المسلمين لم يهجروا كتاب ربهم ولم يهملوه، بل قد انتشرت في الآونة الأخيرة إذاعة القرآن الكريم في عواصم المسلمين، كما انتشرت مدارس تحفيظ القرآن في أكثر المدن، بل خصصت الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة كلية للقرآن وعلومه المتنوعة، فكيف يقال : إن المسلمين قد هجروا القرآن، والحالة هذه ؟!!

الجواب : إن ما ذكر واقع وهو عمل نافع جليل إن شاء الله، إلا أن هذا

---

(١) النســاء، آية : (٨٢).

(٢) الفوائد (١٠٥) وقول البخاري هذا أخرجه الجوزقاني في كتابه : الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير بسنده عن الحاكم قال أخبرني أبو الفضل محمد بن يوسف بن ريحان الأمير ببخاري حدثني أبي قال سمعت أبا عبد الله محمد بن اسماعيل يقول ؛ وذكره (رقم ١١٠، بتحقيقي المطبوع بالجامعة السلفية، بنارس، الهند).

المقدار ليس هو كل ما يجب على المسلمين نحو القرآن، بل كل ما ذكر إنما هي وسائل، ولا ينبغي الوقوف عند الوسائل، قبل الوصول إلى الغاية، لأن الغرض من إذاعة القرآن وحفظه ودراسة علومه هو المحافظة عليه كدستور للأمة يجب الحفاظ عليه، كما يجب الرجوع إليه في جميع مجالات الحياة، ولا يكفي أبداً أن يحفظ ويذاع فقط دون أن يتحاكم إليه في أي شيء، بل يجب أن يكون هو الحكم في كل شيء. واعتقاد خلاف هذا خطأ أو مغالطة، لأن عدم الاحتكام إليه مع الاحتكام إلى غير ما أنزل الله يعتبر كفراً بالقرآن، وهجراً له؛ وهجر القرآن أنواع كثيرة، مع التفاوت بينها، يقول ابن القيم : (هجر القرآن أنواع خمسة : **أحدها** : هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه إن قرأه وآمن به.

والثالث : هجر التحكيم والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد العلم اليقيني وأن أدلته لفظية لا يحصل لها العلم.

والرابع : هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس : هجر الاستشفاء به والتداوي به في جميع أمراض القلوب، وأدرانها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله تعالى : ﴿ **وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾[(١)]، (وإن كان بعض الهجر أهون من بعض) ا. هـ.[(٢)]

هذا ما عنيناه بهجر المسلمين كتاب ربهم وإهمالهم إياه، وكلام ابن القيم واضح شامل، ولا شك أن أخطر أنواع هجر القرآن، هو هجر تحكيمه والاستغناء بغيره، واعتقاد أنه غير صالح لحل مشكلات العصر، وما في هذا المعنى من العبارات الإلحادية التي يطلقها بعض الملحدين اليوم والتي تنبىء عن عدم الإيمان بالقرآن،

(١) الفرقان، آية : (٣٠).
(٢) الفوائد (٨٢)

وعدم الاعتبار به، إلا أنه آيات تتلى في بعض المناسبات وتأكيداً لما ذكرت، أنقل لكم ما قاله عن شريعة الإسلام مسئول عربي بدرجة (وزير) عندما سئل السؤال الآتي :

(ما هو موقف حزب البعث من المنطق ذي الروح الإسلامية الذي تعرضه بعض الدول العربية المحافظة في نظرها للمشكلات العربية اليوم ؟!! أما زال الحزب محافظاً على نظريته العلمانية تجاهها ؟!!).

هكذا نص السؤال.

قال المسئول جواباً على هذا السؤال : (نحن نختلف مع الذين يظنون أن في الإسلام الخلاص من المآزق التي تقع فيها الأمة العربية، أما أولئك الذين يعملون على تنشيطه للحركات الإسلامية، والشريعة القرآنية فهم يحملون نظرة لا تتوافق معنا، ونحن لا نعتقد بهذه الأشياء ونحن بالتأكيد حزب علماني) إلى أن قال : (وفي هذه المرحلة التاريخية التي نعيشها، فنحن نعتقد أنه يجب علينا إيجاد طرق علمية وعملية للتطبيق أكثر من الأديان)(١)

وبعد هذا ما آلت إليه قيادات الأمة الإسلامية في كثير من البلدان، وهو يحتم على طلاب العلم أن يكرسوا جهودهم في دراسة الكتاب والسنة، ليسلحوا أنفسهم بسلاح العلم والمعرفة، ويؤهلوا بذلك أنفسهم للقيادة، بعد إتمام دراستهم، هادفين إصلاح ما فسد من أمر هذه الأمة المسكينة، التي وقعت فريسة الإلحاد الشيوعي، الذي أخذ يحلق بها من جميع الجهات، ليفسد عليها أمر دينها ويبعدها عن إسلامها وقرآنها وسنة نبيها ﷺ، كما يجب عليهم أن يهدفوا إلى تغيير ذلك المفهوم السائد لدى كثير من الأوساط من أن دراسة شريعة القرآن، لا تؤهل الإنسان للقيادة والإصلاح، وحل مشكلات العصر وأن الذي يتولى القيادة، يشترط فيه أن يكون (واشنطونيّ) الفكر أو (لندنيه)، وأن يكون (باريسيّ)، الأخلاق أو (رومانيّها)

---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية ـــ العدد الأول ـــ العام ١١.

وأخيراً أن يكون (موسكوي) العقيدة أو (بكينيّها)، وعلى طلاب العلم الديني أن يغيروا هذا التصور الملحد، ليبينوا للناس أن الدارس للإسلام وشريعة القرآن صالح للقيادة، بل يشترط فيمن يتولى قيادة الأمة الإسلامية أن يكون بعيداً من تلك المواصفات السابقة الذكر، بل يجب أن يؤمن بالله ربّاً ومعبوداً وبالإسلام ديناً ومنهجاً، وبالقرآن دستوراً، وبمحمد ﷺ رسولا وإماماً وأسوة، وأن يكون ذا بصيرة وفقه في الدين، محمديّ الأخلاق والسلوك والعقيدة، وبالله التوفيق.

إذا درسنا الكتاب والسنة بهذه الهمة، وعلم الله منا الصدق والإخلاص في ذلك سوف يوفقنا الله، ويكلل عملنا بالنجاح بإذنه، لأن الأمر كله له، ماشاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا الضرب من الدراسة، نوع من الجهاد، فلير الله منكم الإخلاص، والصدق في جهادكم أيها الطلبة : ﴿ **والذين جاهدوا فينا، لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين** ﴾[1]؛ وكل الذي أريد أن أصل إليه أن تعلموا أن هدف الأهداف من دراسة هذا المنهج الذي تدرسونه في جامعتكم هذه، أن تخرجوا إلى العالم بعد إتمام دراستكم، لتساهموا في حركة البناء والإصلاح، لإيجاد مجتمع إسلامي، مجتمع مبني على أسس ثابتة، مأخوذة من دراسة الإسلام العظيم، وهي :

١ ــ الرضى بالله رباً ومعبوداً، وحده الذي له الحكم وحده، والحكم حكمه، والأمر أمره، والخلق خلقه.

٢ ــ الرضى بالإسلام ديناً ومنهاجاً وطريقاً إلى العزة والكرامة، وهو الذي فيه الخلاص من جميع المشكلات المعاصرة، رغم أنوف أولئك الذين زعموا أن الإسلام ليس فيه الخلاص من المشكلات، والخروج من المآزق : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً** ﴾[2].

٣ ــ والرضى بالنبي محمد ﷺ رسولاً وقدوة وأسوة وإماماً للمتقين، وهم المتبعون له.

(١) العنكبوت، آية : (٦٩).
(٢) الكهف، آية : (٥).

٤ ــ والرضى بالقرآن الكريم دستوراً ومنهجاً للحياة الكريمة،حياة العز والشرف.

٥ ــ والرضى بالسنة النبوية كمصدر ثان من مصادر التشريع الإسلامي، يتوقف المصدر الأول على بيانه، في كثير من مواده وأحكامه.

إن المجتمع الذي هذه أسس بنائه، هو المجتمع الإسلامي، وكل مجتمع يتخلف في بنائه مادة من هذه المواد وتغيب، فهو مجتمع جاهلي، رضي أو أبى؛ والله الهادي وحده.

والله ولي التوفيق.



المحاضرة الثانية

تصحيح المفاهيم

في جوانب من العقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله رب العالمين وأصلي وأسلم على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين.

« تصحيح المفاهيم في جوانب من العبادة والصفات ».

إن كل دارس لأحوال المسلمين يرى العجب إذ يرى فيهم اختلافا كثيرا، يختلفون فيما يعتقدون نحو ربهم وخالقهم، يختلفون في عبادته في أسمائه وصفاته، يختلفون في سلوكهم وسيرهم إلى الله، يختلفون في القرآن الذي نزل لهدايتهم ورحمة لهم ونوراً، بل إنهم يختلفون في تصور دينهم وإسلامهم أحياناً.

وسوف أختار لحديثي هذه المرة النقاط الآتية وأختصر بالبحث رجاء أن تقدر لي كرة أخرى إلى هذا الموضوع ذاته لأتحدث عن بقية النقاط، وأما النقاط التي اخترتها هذه المرة فهي :

١ ــ العبادة

٢ ــ التوسل

٣ ــ مبحث الصفات

٤ ــ القرآن الكريم.

وقع اختياري على هذه النقاط لكثرة اختلاف الناس فيها، ولأن تصحيح الأخطاء فيها وتخفيف حدة الإختلاف حولها مما يقرب تلك القلوب المتنافرة بعضها من بعض حتى يتم للجماعة الإسلامية التفاهم فيما بينها وتصحيح أخطائها فيما عدا ذلك وكأني على يقين في أن المسلمين لا تتقارب وجهات نظرهم الدينية طالما هم على هذه المفاهيم الخاطئة في هذه النقاط التي سوف أتناولها بالبحث.

١ ــ العبـــادة

عبادة الله تعالى هي أول نداء نادى به كل رسول في قومه. ﴿ **أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[1] وهي أول موضوع وأهم موضوع لكل كتاب أنزل.

﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2]

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[3] وهي مهمة الفرد والجماعة في هذه الحياة، ومن أجلها خلقوا ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا يعبدون** ﴾[4]، العبادة التي هذه مكانتها مخطىء في مفهومها كثير من المسلمين، وقد تستغرب هذا القول أيها المستمع الكريم ! ولك أن تستغرب ولكن سرعان ما يتبين لك صحة ما قلت بعد شيء من الإيضاح إن حالفك التوفيق والإنصاف، والإنصاف من الإيمان.

تعريف العبادة :

العبادة في اللغة هي الخضوع والتذلل يقال : طريق معبد إذا كان مذللا مسلوكا.

وأما في الشرع فقد عرفها بعض أهل العلم بقوله : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وعرفها الإمام ابن تيمية بتعريف موجز وجامع ومانع إذ يقول : العبادة غاية الذل مع غاية الحب، وبعد هذا التعريف يتضح أن للعبادة أفقاً رحباً ودائرة واسعة.

فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والإنابة، والخشية، وحفظ الأمانة، وصدق الحديث، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح لله ولرسوله ولكتابه

---

(١) سورة المؤمنون (٣٢)
(٢) سورة النحل (٣٦)
(٣) سورة الأنبياء (٢٥)
(٤) سورة الذاريات (٥٦)

ولأئمة المسلمين وعامتهم، وحب الله ورسوله، والتقرب إلى الله بأنواع القربات كالذبح والنذر والتوكل عليه والاكتفاء به وكيلا ووليا، والتحاكم إليه، والرجوع والرد إليه عند التنازع، كل أولئك عبادة. وقصد غير الله بهذه الأنواع وأمثالها، وتوجيهها إلى الله، وعدم الإكتفاء به، وبشرعه يعني عبادة غير الله وتسميتها بعد ذلك بأسماء غير العبادة كمحبة الصالحين مثلا بالنسبة لبعض الخصال لا يغير من جوهر الحقيقة شيئاً.

ومن الأخطاء الشائعة في صفوف المسلمين اليوم أن كل جماعة من المسلمين، بل كل فرد منهم أحياناً يحاول أن يأخذ من الإسلام الجانب الذي يستحسنه ويستسيغه تاركا الجوانب الأخرى من الإسلام، ويرى أن هذا الجانب الذي اختاره يكفيه ليكون مسلما ويغنيه عن الجوانب الأخرى من الإسلام والعبادة، فمثلا لو أن إنساناً ما أو جماعة ما تمسكت بالإسلام في الجانب السلوكي والخلقي، أو في إخلاص العبادة لله وحده بحيث لا تدعو غير الله، ولا تتقرب بالذبح والنذر مثلا لغير الله ولكنها لا تكتفي بالأحكام الإسلامية في الجانب الاقتصادي والسياسي، بل ترى لا بد من تطبيق القوانين الأجنبية في هذا الجانب، شرقية كانت القوانين أو غربية أو وضعية محلية، فهل يقبل الإسلام مثل هذا التصرف وهذه الحرية في الإختيار ؟ والجواب : لا !

بل قد استنكر القرآن هذا الموقف استنكاراً، واعتبره كفراً : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب، وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون** ﴾[1]، لأن ذلك يعني عدم الاكتفاء بالله رباً ومعبوداً وحاكماً وحده، وبالإسلام دينا ومنهاجا وحده، وبمحمد رسولا وإماماً وقدوة وحده، عليه الصلاة والسلام. ولا يصح إسلام المرء حتى يكون عبداً مستسلماً لمولاه في كل أمر، راضياً لحكمه وقضائه في جميع جوانب حياته، في عقيدته، في معاملته مع الناس، في

(١) سورة البقرة (٨٥)

أخلاقه، في اقتصاده، في سياسته، في حياته ومماته، ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴾[1]، ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[2] وهذه المعاني كلها هي مضمون قول المسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وهي معنى قوله أيضا (رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمّدٍ نبياً ورسولا)[3]

ومن التناقض الغريب أن يقول المسلم كلمة الإسلام بلسانه، ثم ينقضها، إما بفعله، أو بقوله، أو ببعض تصرفاته، وذلك راجع في الغالب إلى أنه يقول الكلمة تقليدا وعادة، لا عن فهم لمعناها فيقع في خطأ في معنى العبادة، وخطأ في مفهوم الشرك، وعبادة غير الله، وهو حال أغلب المسلمين في العصر الحديث، وللأسف — فجمهور المسلمين بحاجة ماسة إلى أن يفهموا معنى كلمة التوحيد من جديد لئلا تلتفت قلوبهم إلى غير خالقها وبارئها في كل شيء لأن الكلمة تعني أن تكون العبودية لله وحده، لا إله إلا الله هو، ولا رب سواه، ولا حاكم غيره، وقد فهم المشركون من أهل مكة ما تعني هذه الكلمة، وأدركوا خطورتها على آلهتهم فرفضوا التلفظ بها بل قاوموها وعادوا لأجلها رسول الهدى محمداً عليه الصلاة والسلام، بعد أن كانوا يقدرونه جيداً، ويصفونه بالأمانة، وصدق اللهجة والعقل والنبل والعبقرية، وكان كل ذلك قبل أن يدعوهم إلى دعوته الجديدة التي حجر زاويتها كلمة التوحيد، وقف القوم هذا الموقف لأنهم تأكدوا أن الكلمة تعني ثورة ضد كل من يعبد وما يعبد من دون الله، ويفزع إليه عند الحاجة، ويتقرب إليه، ويتحاكم إليه، وذلك دينهم الذي ورثوه من الآباء والأجداد.

إنهم أدركوا أن الكلمة تعني ألا تخضع القلوب ولا تعنو الوجوه إلا للحي القيوم، أما آلهتهم فالكلمة حرب عليها، وتحاول أن تصرف الناس عنها لتوجههم

---

(١) سورة الأنعام (١٦٢)

(٢) سورة النساء (٦٥)

(٣) مسلم : الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن (١/٢٩٠)

وجهة أخرى جديدة وسليمة ومأمونة العاقبة، هذا ما أدركته الجاهلية الأولى من الكلمة، وقد وقع ما كانوا يتوقعونه، ففوجئوا بانقلاب تاريخي في صفوفهم، وبهزة غريبة وعنيفة في نفوسهم وبهزيمة منكرة في داخلهم، وإن كانوا يضمرونها، ويحاولون إخفاءها ــ وتحقق ذلك يوم أن أكرم الله من شاء من عباده، واقتنعوا بكلمة التوحيد، وقالوها عن فهم واقتناع قالوها وهم صادقون وجادون حتى أصبح الذين كانوا أشد عداوة لدعوة التوحيد أصبحوا أشد تحمساً لها وأنشط في الدعوة إليها والمحبة من أجلها والعداوة في سبيلها فالكلمة لها سر عجيب إذا فهمت حقاً وهي السلاح الماضي بل هي أخطر على الجاهلية والوثنية، ورواسبها من كل سلاح وهي السلاح الذي يفقده اليوم الجندي المسلم في الغالب بعد أن سلح بأحدث الأسلحة، ولكن هذه الأسلحة الحديثة سوف لا يكون لها مفعول يذكر قبل أن يسلح الجندي المسلم بهذا السلاح الروحي : سلاح الإيمان، سلاح العقيدة، وبفهم الإسلام الذي يجاهد لأجله، ولا سبيل إلى ذلك الفهم إلا بفهم معنى كلمة الإسلام على ضوء ما شرحنا.

وقد سجل التاريخ ما فعلته هذه الكلمة في قلوب المشركين في صدر الاسلام في مكة بعد الاقتناع بها طبعا، فهذا عمر بن الخطاب بينما هو في ثورة ضد الإسلام ودعوة التوحيد إذا به تتمكن منه الكلمة فتصيبه في سويداء قلبه، وتقضي على تلك الثورة الجاهلية، وتخرج أثرها من قلبه فينقلب عمر مجاهداً إسلاميا، ويحل محل الجاهلية نور لا إله إلا الله، ويفعل في نفس الرجل فعله العجيب فيخرج عمر على الناس بوجه آخر، وبلهجة أخرى، وبثورة أخرى لا تقف عند حد.

تحول سريع وخطير ومفاجىء حزنت عليه الجاهلية، وخافت من أمره، بل بقيت مكة ذاتها حزينة وقلقة منذ تحول عمر، وانتقاله من صف الجاهلية إلى صف الإسلام، ومنذ أن قلب عمر للجاهلية ظهر المجن بقيت مكة حزينة إلى أن شرح الله صدرها للاسلام فأصبحت دار إسلام.

أيها الإخوة ! هذه كلمة التوحيد وتلكم آثارها إذا هي فهمت، وقد فهمها

قوم فسعدوا بها، وسادوا بها العالم، ودانت لهم الدنيا، ولهم أجرهم عند ربهم في الآخرة لأنه ﴿ لا يضيع أجر المحسنين ﴾[1].

وبعد : فما أحوجنا اليوم إلى عمر نعم إلى عمر لمقاومة جاهلية القرن العشرين ووثنيته، ما أحوج المسلمين إلى الصديق للقضاء على ردة هذا القرن وهي «ردة ولا أبا بكر لها.. وقضية ولا أبا حسن لها»، ردة الإلحاد والمادية، ردة الميوعة والشيوعية ومشتقاتها، حقاً نحن بحاجة إلى صراحة عمر وشجاعته وقوته، وإلى لين أبي بكر وحزمه وثباته وشجاعته وعزيمته الماضية التي سجلها التاريخ في حروب الرِدّة، ويوم تنفيذ جيش أسامة، نحن بحاجة إلى هذه الخصال لنحمل الناس من جديد على دراسة الإسلام وفهمه، حق الفهم حتى تثمر تلك الدراسة الإيمان واليقين والثقة بالله والاكتفاء به رباً معبوداً وحاكماً ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[2] ؟

وبذلك نستطيع أن نصحح للناس هذا الخطأ الخطير في مفهوم كلمة التوحيد ليرجع المسلمون إلى دينهم من جديد، وليقيموا حياة إسلامية كأطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض. حياة التوحيد الخالص، والعبادة لله وحده، حياة العدالة والحق، حياة الإخاء في الله والمحبة فيه، حياة علم ومعرفة، حياة تسودها المحبة والتعاون والتآزر بين الجماعة الإسلامية، حياة ينعم فيها الإنسان بالأنس بربه ومولاه وولي نعمه، ومثل هذه الحياة التي ننشدها يستحيل أن تتحقق وتقوم قبل تحقيق التوحيد بأوسع معناه وأصدقه، وقبل تعميق العقيدة والإيمان في النفوس. بل كل من يحاول إقامة حياة إسلامية كاملة دون القيود التي ذكرناها فإنما يضرب الحديد البارد، وينفخ في الرماد، ويستمطر سحابة الصيف، وأنى لها الماء ويحسب السراب ماء.

وصدق الإمام مالك رحمه الله إذ يقول : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح به أولها، ومعلوم ان الذي صلح أول هذه الأمة وسعدوا به في الدنيا، وسادوا به العالم هو فهمهم حقيقة هذا الدين في تحقيق التوحيد، وتطبيق الشريعة كاملة

---

(١) سورة التوبة (١٢٠) وسورة هود (١١٥) وسورة يوسف (٩٠).

(٢) سورة الزمر (٣٦)

غير مجزأة، وإشاعة العدل في الدنيا، وعدم التخبط في عبادة الله ودينه وشريعته.

وهذا البحث يجرنا إلى الخوض في الحديث عن الخطأ الشائع في صفوف جمهور المسلمين في باب التوسل وهي النقطة الثانية في حديثنا إذ نلاحظ أن كثيراً من المسلمين يخطئون في مفهوم التوسل، ويخرجون بالكلمة عن معناها الذي هو التقرب إلى الله من حيث لا يشعرون، ويطلقونها على العبادة المحضة التي لا تليق إلا بالله عز وجل وحده.

٢ ـ التوسل

ولعل سبب الخطأ في هذه النقطة بالذات راجع إلى جهل كثير من الناس لغة الصحابة وعرفهم واستعمالهم.

ولنستوضح الأمر فلنسمع ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة، وهو العام الذي أصيب فيه المسلمون بالقحط والجفاف في عهد عمر، فجمع عمر الناس للاستسقاء ثم قال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، فالآن نتوسل إليك بعم نبيك، فأسقنا ! ثم طلب من العباس أن يدعو الله، فقام العباس، فدعا الله تعالى فسقاهم الله.[1] والشاهد من القصة قول عمر : « كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا » فيا ترى ماذا يعني عمر بقوله « كنا نتوسل إليك » ؟!

هذا هو السؤال الذي يقتضيه المقام وهو السؤال الذي يدور في رأس كل مستمع تقريبا، ويكاد أن ينطق به كل لسان، وينبغي أن يكون نص السؤال هكذا : كيف كانوا يتوسلون به في حياته ؟ ولماذا عدلوا عن التوسل به بعد وفاته إلى التوسل بغيره ؟ وبالإجابة على هذين السؤالين يزول كل إشكال، ويتضح وجه

---

(١) أنظر : صحيح البخاري : الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (٢/٤٩٤) وفضائل الصحابة، باب ذكر العباس بن عبد المطلب (٧/٧٧).

الصواب إن شاء الله لطلاب الحق، فنقول مستعينين بالله : التوسل الذي عناه عمر رضي الله عنه هو الذي وضحه حديث أنس بن مالك خادم رسول الله عليه الصلاة والسلام، والحديث في الصحيحين ولفظه هكذا : إن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله قائم يخطب فاستقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام قائما ثم قال :

يا رسول الله ! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال : فرفع رسول الله يديه ثم قال : اللهم أغثنا اللهم أغثنا ثلاثاً. قال أنس : والله ما نرى في السماء من سحاب، ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت، ولا دار قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء، انتشرت، ثم أمطرت، قال أنس : والله ما رأينا الشمس سبتاً أي أسبوعاً، قال أنس : ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله قائم، فاستقبله قائما فقال : يا رسول الله ! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا. قال أنس : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر » فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس.

قال شريك راوي الحديث فسألت أنس بن مالك : « أهو الرجل الأول ؟ قال : لا أدري »[1] هذا مثال من أمثلة توسلهم برسول الرحمة في حياته عليه الصلاة والسلام. وهناك مثال آخر ما تضمنته قصة الأعمى المشهورة وملخصها هكذا :

جاء رجل أعمى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فطلب منه أن يدعو الله له ليرد الله عليه بصره، فخيره النبي بين أن يصبر على عماه وهو خير له وبين أن

---

(١) البخاري : الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة (٢/٥٠٧ — ٥٠٨)، وباب الاستسقاء في المسجد الجامع (٢/٥٠١)، ومسلم : صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢/٦١٢ — ٦١٥)

يدعو الله له فقال الأعمى بل أدع الله فأمره النبي عليه الصلاة والسلام أن يتوضأ فيصلي ركعتين ثم يدعو بالألفاظ التالية : اللهم أني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا رسول الله؛ يا محمد : إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه فيّ[1] هذه قصة الأعمى : فأجاب الله دعوة نبيه كما أجاب دعوة الصحابي المسكين وحقق أمنيته فرد عليه بصره العزيز.

ففي كلتا الواقعتين آية من آيات النبوة لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، كما لا يخفى، وإلى هذا النوع من التوسل بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته أشار عمر في عام الرمادة بقوله : اللهم إنا كنا نتوسل إليه بنبيك، وقد عرفنا كيف كانوا يتوسلون به عليه السلام، يطلبون منه الدعاء، يطلبون منه أن يدعو الله لهم ليغيثهم، يطلبون منه، فيدعو الله لهم ليرد الله بصر من فقد بصره، والله على كل شيء قدير وحده، وربما أمر النبي عليه الصلاة والسلام من طلب منه الدعاء أن يتضرع إلى الله ليجيب الله دعوة نبيه له عليه الصلاة والسلام إذا توجه به إلى ربه، وطلب منه الشفاعة كما يظهر ذلك جلياً في قصة الأعمى، وعلى كل فالمدعو هو الله، والمرجو هو الله، والذي يغيث العباد، وينزل الغيث هو الله، والذي يجيب دعوة المضطر، ويرد البصر على من فقد بصره هو الله وحده لا شريك له، ولكن النبي يدعو ويشفع، وكذلك ورثته من العلماء والصالحين.

ومن هاتين الواقعتين، ومن هذا السياق نعلم أن جمهور المسلمين جهلوا لغة الصحابة في معنى التوسل واستعمالهم، فغيروا الحقائق، فغلوا في الصالحين، فدعوهم من دون الله واستغاثوا بهم، ثم قالوا : إنما نتوسل بهم، بل هذه من محبته جهلا منهم، أو تجاهلا، ولعلنا لا نختلف في وجه خطأ هذا الاتجاه بعد أن عرفنا معنى التوسل في الحديثين السابقين.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٣٨) والترمذي : الدعوات، باب ١١٩، من حديث عثمان بن حنيف، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير (١/٤٠٤)

ومن المعلوم ضرورة أن الأسماء لا تغير الحقائق فالخمر خمر طالما تسكر، ولو سميت ماء عذباً أو لبنا خالصاً سائغاً للشاربين، أو عسلا مصفى، فالدعاء والاستغاثة والذبيحة والنذر عبادة، ولو سماها أهلها توسلا أو تبركا أو محبة للصالحين.

وهكذا يتم الجواب على السؤال الأول القائل : كيف كانوا يتوسلون بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته، لننتقل إلى الجواب على السؤال الثاني وهو لماذا عدلوا عن التوسل به بعد وفاته، فصاروا يتوسل بعضهم ببعض ؟ كما رأينا ذلك في قصة عام الرمادة.

وملخص الجواب على هذا السؤال كالآتي :

أولا : ورود السؤال بهذه الكيفية وبهذه الصيغة يدل على تصوره معنى التوسل في لغة الصحابة وعرفهم كما قلنا آنفا.

ولو كان السائل تصور معنى التوسل بالنبي في قول عمر السابق الذكر لأراح نفسه، وأراحنا معه، وهو طلب الدعاء منه عليه الصلاة والسلام، وأن ليس في إمكان أي أحد أن يذهب إلى الرسول بعد وفاته، ليشكو إليه حاله من القحط، والمرض، وذهاب البصر، ليدعو الله، كما كان يفعل ذلك في حياته في الدنيا، لأن الحياة البرزخية التي انتقل إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يعلم حقيقتها إلا الله، ولذا عدلوا عن التوسل به أي عن طلب الدعاء منه إلى طلب الدعاء بعضهم من بعض، كما فعل عمر رضي الله عنه مع عم النبي العباس بن عبد المطلب، ولأن التوسل لم يكن بجاهه وكرامته ومنزلته عند الله كما زعم بعض الناس، ولو كان الصحابة يعلمون أو يعتقدون أن التوسل إنما هو بجاهه ومنزلته وكرامته على الله، لما عدلوا عنه، لأن جاهه ومنزلته وكرامته على الله لم ينقص من ذلك شيء بوفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، بل هو أعظم جاهاً من كليم الله موسى عليه السلام الذي قال الله في حقه ﴿ **وكان عند الله وجيها** ﴾[1]، ومن عيسى روح الله وكلمته المذكور في

---

(١) سورة الأحزاب (٦٩)

قوله تعالى ﴿ وجيها في الدنيا والآخرة، ومن المقربين ﴾[1]، وغيرهما من أنبياء الله ورسله لأنه عليه الصلاة والسلام سيدهم وأفضلهم على الإطلاق وإمامهم وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (أنا سيد الناس يوم القيامة)[2]، وقال : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[3].

ولكن الله لم يجعل جاه أحد من خلقه سبباً لقضاء الحاجات، وكشف الكربات، وإجابة الدعاء، ولا يكون سبباً لهذه المعاني وغيرها إلا ما جعله الشارع ودل عليه العباد.

هذا هو السر الذي جهله كثير من الناس، وتجاهله الآخرون تحت تأثير الهوى والتقاليد، حتى وجهوا صريح العبادة لله لعباده باسم التوسل، وأحيوا بذلك حياة الجاهلية في حين لا يعلمون، والله المستعان. إذ لا معنى لقول القائل : (اللهم أجب دعوتي لأن فلانا رجل ذو جاه عندك وذو منزلة وكرامة).

لأنه لا علاقة بين جاهه، وإجابة دعاء هذا القائل، لأن جاهه ليس من عمله، وإنما يتوسل الإنسان بعمل نفسه، أو بدعاء غيره، والصواب في هذه النقطة أن يقول المتوسل : اللهم إني أدعوك وأتوسل إليك بإيماني بنبيك محمد، ومحبّتي له، واتباعي لسنته عليه الصلاة والسلام، لأن الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام، ومحبته، واتباع سنته من أعظم الأعمال، وأوجهها وأنفعها عند الله، ومن توسل إلى الله ودعا الله بهذه الأعمال، فقد توسل إليه بأحب الأعمال وأعظمها عند الله.

ومن الخطأ ــ أحسبه متعمداً ــ أن يظن بأن منكر التوسل بالجاه هو

---

(١) سورة آل عمران (٤٥)

(٢) البخاري : الأنبياء باب قول الله : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه (٦/٣٧١) ومسلم : الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/١٨٤ ــ ١٨٦) وراجع أيضا : شرح العقيدة الطحاوية (١٨٩)

(٣) مسلم : الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/١٧٨٢) وأبو داود : السنة، باب التخيير بين الأنبياء (٥/٥٤) وابن ماجة : الزهد، باب ذكر الشفاعة (٢/١٤٤٠) وراجع أيضا شرح العقيدة الطحاوية (١٦٩).

منكر للجاه نفسه ــ ما أسوأه من ظن ــ إذ بين الإنكارين فرق كبير، وبون شاسع، فإنكار التوسل بالجاه، إنكار للبدعة، وإنكار البدع شعبة من شعب الإيمان، لأنه من باب إنكار المنكر، وأما إنكار جاهه عليه الصلاة والسلام فشعبة من شعب الكفر، لأن إنكار جاهه عليه الصلاة والسلام ومنزلته وكرامته على الله يعني انتقاصه عليه الصلاة والسلام، وذلك ردة عن الإسلام ــ عياذاً بالله ــ لأنه يتنافى والإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام ذلك الإيمان الذي يعبر عنه حبه، وتوقيره، واتباع سنته، إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[1].

وقد سلك هذا المسلك كثير من المغرضين وأعلنوا للعامة الأغمار أن الذين ينكرون التوسل بجاه النبي، أنما يفعلون ذلك لأنهم يكرهون النبي عليه الصلاة والسلام، ما أعظمها من فرية !! وهي مغالطة ساخرة، ورخيصة، يترفع عنها كل مسلم منصف، يخاف الله، ويراقبه، ويحاسب كلامه وأعماله. وإنما يتورط في هذه الفرية، ويهبط إلى هذا المستوى بعض المغرضين الذين يضحكون على عقول العوام، غاشين غير ناصحين، ويفسرون لهم محبة الرسول بالاستغاثة به ودعائه من دون الله أو مع الله، والتوسل بجاهه وإقامة المولد له عليه الصلاة والسلام تلبيسا منهم على العوام، وكتماناً للحق؛ وهذا الصنف من الناس هم حجر عثرة في سبيل الدعوة والدعاة، هداهم الله وألهمهم رشدهم. ومما يزيد المقام وضوحا، ويقطع دابر تلك الأوهام التي لا تزال عالقة بأذهان بعض العوام، وأشباه العوام، من أن الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو للناس بعد موته، ويتوسل به بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، مما يقطع دابر هذه الأوهام، حديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب المرضى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ذات مرة وهي مريضة : « وارأساه ! فقال رسول الله : ذاك لو كان وأنا حي، فأستغفر لك وأدعو لك » أي إن مت وأنا حي

---

(١) البخاري : الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (٥٨/١) ومسلم : الإيمان، باب وجوب محبة الرسول عليه الصلاة والسلام (٦٧/١)

سأستغفر لك »[1]. ذلكم هو لفظ الحديث وهذا معناه واضحاً جلياً، وبه فسر الحافظ أبن حجر ثم ساق رواية أخرى توضح معنى الحديث أكثر فإكثر، وملخصها هكذا (أما يرضيك لومت قبلي حتى أكفنك وأصلي عليك وأدفنك وأدعو لك)[2] ومفهوم الحديث : أما لومت أنا قبلك، فليس في إمكاني أن أفعل كل ذلك، وهذا معنى لا يختلف فيه اثنان من طلاب الحق، اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

ثم إن عدول الصحابة عن التوسل به بعد وفاته، يدل أيضا أن التوسل به لم يكن بالذات، إذ لو كان كذلك لما عدلوا عنه لأن جسده الشريف لم يزل ولن يزال محفوظا في قبره إلى يوم البعث (لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) كما ثبت ذلك عن أوس بن أوس مرفوعاً [3].

الوسيلة في القرآن الكريم

إذا تبينا خطأ مفهوم التوسل عند جمهور المسلمين اليوم، وتبينا قبل ذلك المعنى الصحيح له، تسوقنا المناسبة لنعرف معنى الوسيلة في القرآن الكريم.

الوسيلة في القرآن الكريم بمعنى التقرب إلى الله بالإيمان، والعمل والصالح، يقول الله تعالى آمراً للمؤمنين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه**

---

(١) باب ما رخص للمريض أن يقول : إلى وجع وارأساه (١٠/١٢٣)

(٢) راجع فتح الباري (١٠/١٢٥)

(٣) أخرجه أحمد (٤/٨) والدارمي : الصلاة، باب في فضل الجمعة (١/٣٦٩) وأبو داود : الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١/٦٣٥) والوتر، باب في الاستغفار (٢/١٨٤) والنسائي :الجمعة، باب ذكر فضل يوم الجمعة (١/١٦٢) وابن ماجة : إقامة الصلاة باب في فضل الجمعة (١/٣٤٥) والجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١/٥٢٤) وابن خزيمة في صحيحه (١٧٣٣) وابن حبان (موارد الظمآن ٥٥٠) والحاكم (٢/٢٨٧) وصححه هو والذهبي وحسنه المنذري وابن حجر، وصححه النووي في الأذكار، والخلاصة أن الحديث صحيح، كما مر، وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند ابن ماجة (١٦٣٧) ومن حديث أبي أمامه عند البيهقي وانظر تفصيله في تعليق على هذا الحديث في سير أعلام النبلاء (٩/١٦٢) وفي الباب عن أنس، صححه الألباني (سلسلة الاحاديث الصحيحة رقم ٦٢١)

الوسيلة ﴾[1] أي اطلبوا القرب منه،و إنما يكون ذلك بالإيمان بالله، وعدم الإلتجاء إلى غيره، فيما لا يقدر عليه غير المليك المقتدر، كرد البصر وإعطاء الولد وإنزال المطر.

ويقول الحق جل وعلا في وصف عباده الصالحين الذي قد يعبدهم بعض الناس من دون الله ــ وهم براء منهم ــ كالملائكة والمسيح يقول الله في وصفهم : **﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾**[2] فالآية الكريمة تقول لأولئك الغلاة في الصالحين الذين يصرفون خالص حق الله لعباد الله، تقول لهم الآية : إن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله، عباد أمثالكم لا يملكون لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً، فضلا عن أن يفعلوا ذلك لغيرهم، بل هم يتقربون إلى الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، لأن عذابه لا يأمنه إلا الخاسرون، وكان المفروض والصواب أن تتقربوا إلى الله الذي يتقرب إليه هؤلاء الصالحون، لأنكم عبيد مثلهم لله الواحد القهار، أما دعوتكم للصالحين، والفزع إليهم عند الحاجة دون الله أو مع الله فخطأ وضلال وظلم.

إطلاقـــات التوســـل

وقد ثبت بالاستقراء أن التوسل يطلق ويستعمل في المعاني التالية :

أولا : طلب الدعاء من الحي الصالح.
ثانيا : التقرب إلى الله بالإيمان والعمل الصالح والتقوى.
ثالثا : دعاء العبد ربه بالأعمال الصالحة الخالصة لله ودعائه بأسمائه الحسنى
أما النوع الأول والثاني فقد سبق الحديث عنهما.

---

(١) سورة المائدة (٣٥)
(٢) سورة الإسراء، آية (٥٧).

وأما الثالث فأستحسن أن أذكر لبيانه قصة أصحاب الغار، وهي معروفة وعظيمة ومضمونها كالآتي :

إن ثلاثة ممن كان قبلنا انطلقوا في سفر، حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا الغار، فانحدرت صخرة عظيمة، فسدت عليهم الغار، فوقعوا في حيرة لا توصف، فتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون ؟ فاتفقوا على أنه لا ينجيهم مما هم فيه إلا أن يدعوا الله بأعمالهم الصالحة الخالصة لوجه الله سبحانه، هكذا هدوا إلى الطيب من القول، وإلى الصواب من العمل، فقال أحدهم : إنه كان له أبوان شيخان كبيران، وكان يقوم بالإحسان إليهما، وبرهما، كأحسن ولد، ومن بره لهما كان لا يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده، وكان عشاءهم حليب الإبل، وكان يأتي إليهما بطعامهما في وقت مناسب، وفي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لأبله، وجاء بعشائهما في وقت متأخر من الليل، فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما خشية أن يكدر عليهما نومهما، كما كره أن يتناول هو وأولاده من الحليب المهيأ لهما شيئاً فبات واقفاً على رأسهما إلى أن أصبح الصبح.

فقال الرجل متوسلا إلى الله بهذا العمل الصالح : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فنزلت الصخرة قليلا غير أنهم لا يستطيعون الخروج — ولكن قوى أملهم في الخروج نوعاً ما.

وأما الثاني فتوسل إلى الله بالعفة والخوف من الله، وبصلة الرحم وملخص قصته :

أنه كانت له ابنة عم، كان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة، فراودها، فامتنعت، ورفضت طلبه لأنها عفيفة إلى أن ألجأتها الحاجة إليه، فقدم لها مبلغاً من المال يقدر بمائة وعشرين ديناراً مساعدة لها، وسداً لحاجتها، فطلب منها طلبه بعد هذا الإحسان، وألح في الطلب طبعاً فوافقت على تنفيذ رغبته تحت الحاجة والاضطرار، ونفسها غير مطمئنة بالمعصية فمكنته من نفسها، فقعد منها مقعد الرجل من المرأة، فقالت مذكرة : يا عبد الله : اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه !

فذكرته، فتذكر، وخوفته من الله، فخاف، ﴿وذكر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1]. فقام من مقعده ذلكم من فوره، مالكا نفسه، قاهراً شهوته وهواه، فجعل الهوى يجره إلى أسفل ليهوي ويهلك.

إن الهوى لهو الهوان بعينه — وصريع كل هوى صريع هوان

بينما الخوف من الله يجذبه إلى أعلى ليرتفع، ويعلو، ويقرب من الله فغلب ثانيهما أولهما، ولله الحمد، فسلم الرجل، والحمد لله على سلامته، فقام، وهو مرتاح النفس، قرير العين، فلم يرجع في المبلغ الذي قدمه لابنة عمه، بل تركه لها، صلة للرحم،

فقال الرجل وهو في الغار : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فنزلت قليلا إلا أنهم لا يستطيعون الخروج أيضاً لكن أملهم صار أقوى من ذي قبل.

وأما الثالث فقد عمل عنده أجراء، فأخذ كل أجير أجرته، فذهبوا، إلا واحداً منهم، فترك أجرته، فذهب، وبعد مدة طويلة جاء، فقال له : أعطني أجرتي ! فقال له بكل هدوء : إن ما تراه من الإبل، والبقر، والغنم من أجرتك لأني نميت لك أجرتك لما طال غيابك، فلك كل ما تراه !، ولم يصدقه، بل قال له : لا تستهزىء بي يا عبد الله ! فقال له : لست مستهزئاً، وإنما الواقع ما قلته لك، فَسْتَق مالك، فأخذ ماله كله، ولم يترك منه شيئاً.

فقال الرجل وهو يتوسل إلى الله بحفظ الأمانة اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون[2].

أيها الأخوة المستمعون ! هذا ملخص قصة أصحاب الغار، فالقصة تحمل معنين عظيمين :

---

(١) سورة الذاريات (٥٥)

(٢) أنظر نص القصة في صحيح البخاري الأنبياء، باب حديث الغار، (٦/٥٠٥ ــ ٥٠٦)

أولهما : مشروعية التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، وهو المعنى الذي من أجله سقت القصة هنا.

وثانيهما : فضل إخلاص العمل لله وحده، لأن الأعمال الثلاثة أو الأربعة التي شملتها القصة، لو لم تكن خالصة لله، لما تقبلها الله، ولما أجاب دعوة أصحابها عند الشدة، فالإخلاص هو السبب في نجاة العبد، ونجاحه في الأولى والأخرى.

هكذا يثبت بالاستقرار أن التوسل في الإسلام لا يخرج عن هذه الأنواع الثلاثة، وأما دعاء الله بأسمائه الحسنى فيدخل في النوع الثالث أو يعتبر نوعاً رابعاً والعلم عند الله.

فعلى جمهور المسلمين أن يعيدوا النظر في ذلكم المفهوم الخاطىء الشائع بينهم في معنى التوسل، وليس هو من التوسل في شيء، بل إن ذلك عبادة محضة، وعليهم أن يدرسوا ما كان عليه سلفهم من الصحابة والتابعين في هذا الباب ونحوه، ليفهموا فهمهم، ويتأسوا بهم في عملهم، لأنهم خير هذه الأمة بشهادة النبي عليه الصلاة والسلام لهم إذ يقول عليه الصلاة والسلام : (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام وقد صدق من قال :

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

هكذا ننتهي من النقطة الثانية[2] لننتقل إلى النقطة الثالثة التي كثرت فيها المفاهيم الخاطئة وهي مبحث الصفات.

٣ ـ مبحث الصفات

الإيضاح :

إن كثيراً من المسلمين الذين لم يدرسوا الإسلام، وهم ينتسبون إليه، يؤمنون

(١) انظر صحيح البخاري : فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣/٧)

(٢) انظر المبحث التوسل والوسيلة : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية ورسالة التوسل : قواعده وأحكامه للألباني، والتوصل إلى حقيقة التوسل لمحمد نسيب الرفاعي.

بالله، لكنه إيمان إجمالي، وضحل جداً لا يثبت أمام أدنى شبهة، ولا يتحمل السؤال عن الله، ولا عن رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا الموقف لا يثير العجب كثيراً، لأن صاحبه جاهل لم يدرس الإسلام، ولم يتفقه في الدين، وإن كان مثل خطئه هذا خطئه لا يغتفر فعله في حق أي مسلم، إذ لا يجوز لمسلم أن يجهل هذا الجهل، ولكن المؤسف جدا أو المدهش كثيراً أن يدرس الإنسان الإسلام، ويصرف جل عمره في دراسة الإسلام، ثم يخرج إلى المجتمع من تلك الدراسة الطويلة بنتيجة هي الجهل بربه جهلا مركباً، إذ يجهل أنه جاهل، وربما تربع على كرسي التدريس والتعليم، لينشر الجهل والمفاهيم الخاطئة بين الناس فيما يعتقدون نحو ربهم ودينهم، بدلا من أن ينشر العلم والمعرفة والهدى، فيبعدهم عن الله بدل أن يقربهم من الله، فيقول مثلا ــ وهو يريد أن يعرف الناس بالله وبصفاته ــ : فالله لا يوصف بالرحمة، ولا بالمحبة، وليس هو فوق العرش، ولا تحته، ولا يمينه، ولا يساره، ولا يوصف بالرضا، ولا بالغضب، إلى آخر السلوب الكثيرة التي يقشعر جلد المؤمن عند سماعها، والتي لا تتضمن إثبات كمال، بل مضمونها تكذيب الكتاب والسنة من حيث لا يعلم هذا المتخبط، وهي جرأة لا تقفْ عند حد، ولا تعرف معنى لتقدير الله حق قدره.

فالواجب الذي هو مقتضى الإيمان بالله وبكتابه ورسوله، ألا يخوض في صفات الله بغير علم، ولا يتحدث عن الله إلا بإذن الله، وعلى ضوء بيان رسول الله، لأنه لا يصف الله أعلم من الله، ولا يصف الله من خلقه أعلم من رسوله، الذي اختاره واصطفاه وأذن له ليتحدث عنه، وعن صفاته، بل كلفه ببيان كتابه الذي هو مصدر صفاته بقوله : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم، ولعلهم يتفكرون** ﴾[1] والصفات التي سردتها، قد جاء ذكرها في الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[2] الآية : ﴿ **إليه يصعد الكلم**

---

(١) سورة النحل (٤٤)

(٢) سورة طه (٥)

الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1] الآية **﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾**[2] الآية وقوله عليه الصلاة والسلام (إن الله كتب كتاباً عنده غلبت أو قال : سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش)[3] إلى غير ذلك من النصوص التي لا تخضع في الغالب الكثير للتأويل بوجه ما قد تلاها رسول الله على أصحابه، وتلاها أصحابه على التابعين، وهكذا ولم يستشكلوا شيئاً منها، ولم يتعرضوا لها بالتأويل، بل آمنوا بها، وقالوا بالإجماع الذي لم يشذ عنه فرد منهم : إن نصوص الصفات تمر كما جاءت دون تأويل أو اعتقاد تشبيه مع إثبات ما دلت عليه على الحقيقة التي تليق بالله سبحانه، وهذا هو موقف كل إمام من أئمة المسلمين المشهود لهم بالأمانة كالأئمة الأربعة وغيرهم كما سنسمع نصوصهم قريباً إن شاء الله.

أما المخالفون لطريقة السلف، ومنهجهم، والذين تخرجوا على منهج أهل الكلام، والواقعون في مخالفة إجماع الصحابة والتابعين فقد انشقوا على أنفسهم : منهم من ينفي جميع صفات الله تعالى دون أن يثبت له صفة واحدة على كثرة ورودها في نصوص الكتاب والسنة، ومنهم من يتصرف في صفات الله كما يشاء وكما يملي عليه عقله، فيفرق بين الصفات فيرى وجوب تأويل بعضها وجوباً عقلياً على حد زعمه، مع إيمانه ببعضها على الوجه الذي يليق بالله، ولا يرى وجوب تأويلها؛ فيرى مثلا وجوب تأويل الصفات الخبرية كلها كالمجيء، والنزول، والاستواء على العرش، وصفة المحبة، والرحمة في الوقت الذي يرى إثبات صفة السمع، والبصر، والعلم مثلا على ظاهرها كما يليق بالله مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه.

والذي يؤخذ على هذا الفريق هو التناقض البين، وعدم الوضوح في عقيدتهم، عدم الوضوح الذي يوحي أن لعقيدتهم ظاهراً وباطناً، ويظهر ذلك جلياً

---

(١) سورة فاطر (١٠)

(٢) سورة الفجر (٢٢)

(٣) البخاري : باب قول الله : بل هو قرآن مجيد (٥٢٢/١٣) ومسلم : التوبة باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢١٠٧/٤ ـــ ٢١٠٨).

في مسألة القول بخلق القرآن حيث لا يرون بأساً في القول بخلق القرآن في مقام التعليم للبيان الواقع على حد زعمهم، لأن القرآن ليس بكلام الله حقيقة في زعمهم، وإنما يقال إنه كلام الله مجازاً، لأنه دال على كلام الله الحقيقي كما يزعمون وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله قريباً في مبحث القرآن الكريم.

ومن مظاهر ذلك إعلانهم أيضاً عن عقيدتهم أنها عقيدة أهل السنة والجماعة ثم مخالفتهم للجماعة في كثير من المواقف ومن ذلك تفريقهم بين الصفات المماثلة دون مبرر عقلي أو شرعي كما تقدمت الإشارة آنفا. وهذا التخبط والتناقض والتفريق بين الصفات التي جمع الله ذكرها والاتصاف بها في كتابه، أو على لسان رسوله، هذا التخبط يدل على أن هذا الصنف من الناس ليسوا على يقين في إيمانهم بكتاب ربهم، وما جاء فيه من الصفات والأسماء وغيرهما عما يتعلق بالمطالب الإلهية، إذ لا يتم الإيمان الحق إلا بالتصديق الجازم الذي لا يخالطه شك، مدعما بالطاعة، والانقياد، والتسليم لله ولرسوله.

وقد صدق الإمام الطحاوي إذ يقول : لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام،[1] ويقول الحسن البصري : ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.[2]

أما القول على الله بغير علم، أما التدخل في اختيار الصفات لله، أما الحديث عن الله وعن أسمائه وصفاته بغير إذن من الله والتخبط في المطالب الإلهية على غير هدى من الله، بل على ما تقتضيه قواعد أهل الكلام وفلسفتهم وأذواقهم، كل أولئك ينافي الإيمان إما أصله، أو كماله على حسب ما يقوم بالقلوب وعلى اختلاف ظروف النفاة وأحوالهم من وجود شبهة أو عدمها.

وأحب أن أنبه هنا على قاعدة متبعة عند هذا الصنف، ولا يكادون يختلفون

---

(١) العقيدة الطحاوية مع شرحه (٢١٩)

(٢) اقتضاء العلم العمل (رقم ٥٦)

فيها، وتعتبر مادة قانون عندهم يجب تطبيقها أو آية قرآنية عند غيرهم لا يجوز مخالفتها.

وهي مضمون البيت الآتي :

وكل نَصٍ أوهــــم الـــــتشبيها أوِّلْـــه أو فوض ورُمْ تنــــزيها

ومضمون هذا البيت أنه يوجد في الكتاب والسنة نصوص توهم تشبيه الخالق تعالى بخلقه، ولم يبين الرسول تلك النصوص علماً بأنه مكلف بالبيان، ولم يفهمها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين على وجهها وصوابها، بل ولم يفطنوا لها، ولما فيها من الإيهام، حتى جاء أصحاب هذه القاعدة وأرباب هذا القانون بعد انقراض القرون المفضلة ليبينوا للناس لما هو الحق في صفات الله تعالى وأسمائه وفي كلامه بالذات.

هذا هو مضمون القاعدة السالفة الذكر.

وهل يقول هذا عاقل يعرف ما يقول ؟! ما لم يكن مريض القلب مضطرب العقيدة !!

وهل يتهم أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بهذه التهمة مَنْ في قلبه حب الإسلام وأهله، ثم إن القاعدة تعطي مطلق الحرية لمن يتلو تلك النصوص بين أن يحرفها ويسمى ذلك تأويلا يجعل النصوص تتفق مع العقل ــ على حد زعمه ــ أو يعرض عنها ويتجاهلها ويسمى ذلك تفويضاً يفعل ذلك كله تطبيقاً للقاعدة، واتباعاً للقانون، ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن التفويض نوعان :

النوع الأول : تفويض الكيفية والحقيقة، وهو علم استأثر الله بعلمه، فلا يجوز للعباد أن يخوضوا فيه كما قلنا سابقاً أو أن يبحثوا عن كنهها وكيفيتها، لأنهم آمنوا بالله قبل أن يبحثوا عن حقيقة ذاته وكيفيته ذاته إيمان تسليم، فيجب أن يكون إيمانهم بصفاته كذلك إيمان تسليم، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحذو حذوه، وهذا المعنى هو الذي عناه الإمام مالك بقوله : (الاستواء

معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عند بدعة)[1] وقد رأيت أيها المستمع الكريم ! أن الإمام مالكا أثبت معنى الاستواء الذي يدل عليه اللفظ بوضعه، ثم فوض كيفية الاستواء إلى علمه سبحانه، وهو مجهول بالنسبة للعباد.

ومما قاله الإمام مالك في صفة الاستواء يقال مثله في سائر صفات الله تعالى لأن الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر إذا ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر كما هو معلوم.

وأما النوع الثاني : فهو تفويض المعنى، ومعناه الحقيقي هو الإعراض عن النصوص وعدم تدبرها بل تجاهلها قصداً وهذا ــ كما ترى ــ يصادم قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾[3].

ومما يعاب على أصحاب هذا النوع من التفويض التناقض والتصرف الشخصي في نصوص الكتاب والسنة، والجرأة الجريئة ــ إن صح التعبير ــ على الله فكيف جاز أن نفهم، أو كيف قدرنا أن نفهم معنى العلم والقدرة والسمع والبصر مثلا، بينما لا يجوز لنا أو لا نقدر أن نفهم معنى ﴿ **وجاء ربك** ﴾ و ﴿ **ينزل ربنا** ﴾ ومعنى المحبة والرحمة والاستواء على العرش ؟

وهو تصرف لا مبرر له، اللهم إلا التقليد ــ قالوا؛ قلنا، أوّلوا، فأوّلنا وفوضوا، ففوضنا، لماذا ؟ لست أدري، وهو موقف لا يحل لمسلم أن يقفه في دينه في أصوله أو فروعه، هذا هو المفروض، والله المستعان.

ثم إن المدهش أن يسمى هذا التصرف عقيدة أهل السنة والجماعة، فيا ترى من هم الجماعة ؟ وما هي السنة ؟ إذا أطلقت الجماعة : إنما يراد بها الجماعة الأولى، جماعة الصحابة. أما السنة فهي طريقة رسول الله التي جاء بها من عند الله

(١) انظر الفتوى الحموية الكبرى (١١٠)

(٢) سورة محمد (٢٤)

(٣) سورة النساء آية (٨٢).

فهل الجماعة كانت تتصرف مثل هذا التصرف في صفات الله ؟ وهل في السنة ما يشير إشارة إلى مثل هذا ؟ فطبعا لا، وإنما هي مغالطة سافرة أو جهل مبين.

وقد علمنا علم اليقين أن هذه الطريقة الجهنمية تخالف ما كان عليه أصحاب رسول الله، والحق طبعاً ينحصر فيما كانوا عليه ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟** ﴾[1]

وبمثل هذا التخبط، وهذه الدعوى العارية عن الحقيقة، دعوى التنزيه التي هي في الحقيقة إما تعطيل أو إعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، بمثل هذه الدعوى حال علماء الكلام بين المسلمين، وبين عقيدتهم النظيفة البعيدة عن التعقيد، والبريئة عن التشبيه والتعطيل، وبمثل هذا التلبيس أبعدوا شبابنا عن حقيقة دينهم الحق، فأخذ جمهور المسلمين يلتمسون الهدى في غير كتاب الله في بطون كتب أطلق عليها أصول الدين الإسلامي !!

وهي في الواقع لا من أصول الدين الإسلامي ولا من فروعه.

ويحاولون بذلك أن يعرفوا ربهم عن غير طريق رسول الله، وطبيعي أن من التمس الهدى في غير كتاب الله أضله الله كما في الأثر المروى عن علي رضي الله عنه[2].

بيان مذهب السلف في هذه النقطة وذكر بعض أقوالهم[3]

وأما مذهب السلف في هذا الباب، فواضح جداً كشأنه في كل باب، وهو وسط بين التشبيه والتعطيل، وهو تسليم كامل لله، ولرسوله، وإيمان بنصوص الصفات من الكتاب والسنة، وعدم التعرض لها بالتأويل، بل إمرارها كما جاءت، بحيث تكون تلاوتها تفسرها، ولا يحاولون إدراك حقيقتها وكيفيتها لأن ذلك علم استأثر

---

(١) سورة يونس (٣٢).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر للتفصيل الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

الله به، ولا توهم عندهم تشبيها ولا تجسيما، بل هي تدل على الحقائق التي تليق بالله وحده إذ ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1]. ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾[2]، ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾[3]، ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[4] كانوا ينزهون الله على ضوء هذه النصوص، ولا يكادون يفهمون من الإثبات التشبيه، ولا من التنزيه التعطيل، هذه هي القاعدة عندهم للتنزيه؛ إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، فلنسمع الآن طائفة من أقوال بعضهم :

١ ـــ قال الإمام الأوزاعي : كنا ـــ والتابعون متوافرون ـــ نقول :إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات. فقل هذا التصريح عن الأوزاعي البيهقي في الأسماء والصفات،[5] وهذا التصريح من الأوزاعي يعني الإجماع إجماع التابعين المبنى على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب وصحيح السنة.

والإمام الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة الذين كانوا في عصر تابع التابعين وهم مالك بن أنس بالحجاز والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد بمصر، والثورى بالعراق، وذكر الإمام الأوزاعي هذا الإجماع عندما ظهر جهم بن صفوان منكراً كون الله تعالى فوق عرشه، ونافياً لجميع صفات الرب تعالى، ذكر الأمام هذا الإجماع ليعرف الناس أن ما نادى به جهم بن صفوان مخالف لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ولئلا ينطلى على العامة من المسلمين دعواه أن ما ذهب اليه مؤيد بالبراهين العقلية القاطعة، وهي في الواقع وهميات خيالية، لا حقيقة لها، إذا العقل السليم لا يخالف ما جاء به النص الصريح الصحيح بوجه كما هو معروف عند أرباب العقل.

(١) سورة الشورى (١١)
(٢) سورة طه (١١٠)
(٣) سورة الإخلاص
(٤) سورة مريم (٦٥)
(٥) الأسماء والصفات (٤٠٨) وعينه رواه الجوزقاني في كتاب الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (رقم ٧٣) وصحح شيخ الإسلام ابن تيمية إسناده (الفتوى الحموية الكبرى ص ١١٠)

٢ ـــ سئل الإمام الزهري ومكحول عن تفسير أحاديث الصفات ؟ فقالوا : (أمروها كما جاءت)، وروى مثل هذا الجواب عن الإمام مالك والثوري والليث فقالوا جميعاً في أحاديث الصفات : (أمروها كما جاءت بلا كيف) والزهري ومكحول من أعلم التابعين، وأما الأوزاعي ومالك والليث والثوري فمن أئمة الدنيا في عصر تابع التابعين، فكيف يسع مسلماً أن يترك طريقة أئمة المسلمين، ويتبع غير سبيل المؤمنين الذين أعرضوا عن كتاب الله وذكره، واتبعو أهواءهم ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[1].

وهم أهل الكلام الذين يقول في حقهم الإمام الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ويضربوا بالجريد ويقال هذا جزاء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام[2]. وما أروع قول الإمام مالك إذ يقول : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام لجدل هؤلاء. ؟

وبعد، فلو أن مسألة من المسائل الفقهية الفرعية نالت مثل هذا الاتفاق العظيم من الأئمة الأعلام دون أن يشذ عنهم أحد اعتبرت مسألة إجماعية وعيب على من يخالف هذا الإجماع أشد عيب، بل قامت الدنيا في وجهه وقعدت صارخة أن فلانا خالف الإجماع أن فلاناً شذ عن جماعة المسلمين، وخرق إجماعهم إلى آخر العبارات التقليدية المعروفة وآخر الشريط المحفوظ.

فكيف يسوغ لمسلم إذن أن يخالف جماعة المسلمين وأئمتهم الذين سبق ذكرهم في هذا الباب الخطير باب صفات الرب وأسمائه، وهو باب توقيفي، كيف يقدم على ذلك لمجرد اتباع فلسفة أهل الكلام، وهي مخالفة لما نطق به الكتاب وصحت به السنة وأجمعت عليه الأمة.

ولم يقف هذا المتحذلق عند حد المخالفة بل اتهم سلف هذه الأمة من

---

(١) سورة القصص (٥٠)

(٢) سيأتي تخريج كلام في موضع آخر.

الصحابة والتابعين وهم سند هذا الدين واتهمهم بعدم الفهم التام، بل أتهم كتاب الله بأنه ربما اشتمل على ما لا يليق بالله حتى يقوم بتحقيقه علماء أهل الكلام والفلسفة الذين يميزون بين ما يليق به بأذواقهم الخاصة وعقولهم النيرة، حتى يعرف الناس بواسطتهم مراد الله من كلامه ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾[1].

وفي واقع الأمر أن النص الصحيح لا يفهم منه ما لا يليق بالله ولا يدل بظاهره على الباطل كالتشبيه والتجسيم، ولا يجوز اعتقاد ذلك بل اعتقاد ذلك يعني كفراً وفسوقاً وعصياناً وظلماً، ولو كان القرآن كما زعموا لما كان نوراً وهدى ورحمة وروحاً وشفاء لما في الصدور، ولما كان الرسول الذي جاء به هادياً إلى الله وسراجاً منيراً ورحمة للعالمين، ولكن الفهم السقيم قد يظن ما زعموا وأكثر مما زعموا، ﴿ **وإن الظن لا يغني من الحق شيئا** ﴾[2].

وكم من عائب قولا صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

وما كدت أنتهي من كتابة هذه النقطة إلا وأنا بهمسات متلاحقة فهي تقول : يا هذا لماذا تتعب نفسك وتضيع أوقاتك بنبش قبور علماء أهل الكلام، وقد أفضوا إلى ما قدموا، وليس لهم وجود اليوم، وكأنك تتحدث عن العظام وهي رميم، هكذا تقول وتعاتب ؟! وللإجابة على هذه الهمسات نحتاج إلى شيء من البسط والإيضاح، وقد أجريت استقراء سريعاً فتأكدت أن هذا العتاب يصدر من فريقين :

أما الأول ففريق ساذج مقلد يكرر ما يقوله الفريق الثاني الذي سيأتي بيانه، وهذا الفريق ينقصه عدم تصوره الحقيقة على ما هي عليه فهو معذور عندي بجهله، فعليه أن يدرس الموضوع لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وأما الفريق الثاني فهو فريق يتجاهل الواقع لحاجة في نفسه، فهو يعلم من

---

(١) سورة النور (٧٦)

(٢) سورة النجم (٢٨).

نعني بأهل الكلام، يعلم أننا إذا تحدثنا عن أهل الكلام وتناقضاتهم إنما نعني المعتزلة والأشعرية، ويعلم أن كتب هؤلاء منتشرة في مكتبات المسلمين وفي أيدي طلاب العلم في كثير من الجهات، وفي مقدمتها كتاب الكشاف للزمخشري المعتزلي، وحاشية الدسوقي على متن السنوسية، وحاشية الباجوري عليه أيضاً وأشباههما من كتب الأشعرية.

وإذا كان مؤلفوا هذه الكتب قد صاروا تحت الأرض، فكتبهم لا تزال موجودة على وجه الأرض في أيد الناس، وهي مقررة في كثير من المعاهد والجامعات في أكثر الجهات الإسلامية مع ما فيها من الأخطاء المخالفة لصريح القرآن وصريح السنة، وهذا المعنى هو الذي حملنا على القول بأن الفريق الثاني متجاهل ومغالط، هداه الله، وكان الواجب أن ينصف هذا الفريق ـ والإنصاف من الإيمان ـ[1] بعد أن اتضح له الصواب.

نعم كان من الواجب أن يعلن عن الحق ليتبع فالحق أحق أن يتبع ويعلن عن الباطل ليعرف ويتجنب فالواجب أن يفعل ذلك بدل المغالطة خشية أن يدخل تحت وعيد كاتمي العلم الذين يلبسون الحق بالباطل يقول الله جل ذكره : ﴿ لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾[2] الآية، مخاطباً لأهل الكتاب ومعاتباً لهم؛ أقول هذا، لأنتقل إلى النقطة الرابعة والأخيرة وهي حول المفهوم الخاطىء نحو القرآن الكريم.

٤ ـ القــرآن الكريــم

القرآن الكريم عبارة عن رسالة بعثها الله إلى أهل الأرض من الجن والإنس بعد أن ضمنها كل ما فيه سعادتهم في الآخرة وسيادتهم وعزّتهم في الدنيا إن

---

(١) كما قال عمار بن ياسر (البخاري في الإيمان)، وقد فصلت القول في تخريج هذا الأثر في تحقيق كتاب الزهد لوكيع بن الجراح (انظر رقم ٢٤١)

(٢) سورة آل عمران (٧١)

طبقوها وهي مشتملة أيضاً على بيان ما يسبب سخط الرب عليهم ـــ إن تعرضوا له ـــ واختار الله لهذه الرسالة رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.. اختار لها محمداً ليقوم بتلاوتها عليهم وبيانها وشرحها بعد أن أعده إعداداً خاصاً، وأدبه فأحسن تأديبه، ورباه بعناية خاصة، وطبعة على النزاهة وحب الخير منذ طفولته، وجنبه كل أمر يشين الإنسان ويشار إليه بسببه ببنان الانتقاص والأزدراء، بل جبله منذ خلقه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، كان يرى منذ كان صغيرا في سنه كبيرا، وعظيما في سلوكه وعقله ونبله وعبقريته، هكذا تربى رسول الهدى وصاحب الرسالة إلى أن بلغ مبلغ الرجال، وبلغ أربعين سنة أو قارب بلوغ هذا المبلغ، وقومه ينظرون إليه بعين التقدير والإجلال، وفي هذا النبي المعظم أنزل الله رسالته، وعلى يد هذا النبي المعد ذلكم الإعداد بعث الله رسالته إلى عباده، ليتلو الذي أنزل إليهم، وكان ﷺ غاية في الذكاء والفطنة ودقة الفهم كما كان غاية في البلاغة والفصاحة، وأما في حب الخير للعباد والنصح لهم والرحمة بعباد الله فحدث ولا حرج، فقرأ عليهم الرسالة، وبلغهم مضمونها، وقد يكون في الرسالة أحياناً نوع من الإجمال، فيقوم بشرحها وتفصيل الإجمال، ويفسره وذلك كمبحث الصلاة والزكاة مثلا، وقد حضر قراءة الرسالة حين نزولها وشرحها وتفسير مجملها نخبة ممتازة من هذه الأمة، اختارها الله لصحبة نبيه، وليخلفون من بعده ليواصلوا المسيرة، فحضروا قراءة الرسالة، ودرسوها، وفهموها حق الفهم، وكانوا يقفون عند عشر آيات ليقرؤوها ويفهموها، ويعملوا بها هكذا كانوا يدرسون الرسالة بهذه العناية.

ولفهم الدرس أسباب عديدة وقد توفرت كلها لدى هؤلاء النخبة.

أولا : المعلم الصالح القدير على التفهيم وهو صاحب الرسالة نفسه.

ثانيا : المادة، وهي الرسالة التي جاءت من عند العليم الحكيم، الذي يعلم منهم كل شيء، يعلم ما يصلح لمعاشهم ومعادهم، وما يطرأ على حياتهم، ويتجدد من أمرهم، ولذا جاءت الرسالة واضحة ومرنة وميسرة. ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر**

فهل من مدّكر ﴾[١] الآية، جاءت رسالته سلسة الأسلوب، بريئة من التعقيد اللفظي والمعنوي، والمعلم من عرفناه، فهذان السببان من أهم الأسباب لفهم الدرس، وتوفر السببين المذكورين ساعد أيضاً على تطبيقهم الرسالة في حياتهم اليومية، بل على التفاني في تطبيقها، فتعلموا من الرسالة التوحيد، وتجريد العبادة لله، فوحدوه على رغم الجو الجاهلي، وجردوا له العبادة والحاكمية **﴿ إن الحكم إلا لله ﴾**[٢] الآية. فتعلموا معنى الأخوة فتآخوا فصدقوا فيها **﴿ إنما المؤمنين إخوة ﴾**[٣] وبالجملة إنهم فهموا أن القرآن كتاب توحيد وعقيدة، ومبحث إيمان وكتاب الدنيا والآخرة.

هكذا فهموا القرآن، وتلوه حق تلاوته، قاموا به، فقام بهم، نطقوا به، وبهم نطق. وسجل لهم ذكراً جميلا هذا هو القرآن الذي يقول الله تعالى لنبيه في حقه : **﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾**[٤].

ويقول الحق أيضاً في شأن القرآن وأهله **﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾**[٥] هكذا نزل القرآن، وهكذا فهم أول ما نزل، وهكذا كان موقف سلف هذه الأمة من القرآن، ثم ماذا ؟! ثم خلف من بعدهم خلف، اختلفوا في الكتاب اختلافاً كثيراً، نتج منه أن فقد القرآن مكانته التي كان يتمتع بها عند خير الناس بعد الأنبياء أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأتباعهم، فرأينا طائفة من أهل الكلام، وهم معدودون من أمة القرآن، قد وصل بهم الاستخفاف بالقرآن إلى حد أن زعموا أن دلالة القرآن ظنية لا تفيد اليقين، وأن الدلالة العقلية هي القطعية المفيدة لليقين، ولو تعارضا قدمت الأدلة العقلية لأنها يقينية ودلالة القرآن

---

(١) سورة القمر (١٧، ٢٢، ٣٢ ، ٤٠ .
(٢) سورة الأنعام (٥٧) وسورة يوسف (٤٠، ٦٧)
(٣) سورة الحجرات (١٠)
(٤) سورة المائدة (٤٨)
(٥) سورة الزخرف (٤٤)

ظنية وهذا هو موقف جد خطير على إيمان المرء كما ترون، وهل بعد هذا من إيمان ؟ بل هذا رجوع بالناس إلى ما كان عليه الأمر قبل نزول القرآن إلى الوقت الذي كانوا يتحاكمون فيه إلى الطاغوت من العادات والعقل والتقاليد الموروثة، وبناء على القاعدة التي ذكرناها قرر علماء الكلام أنه لا يستدل بنصوص الكتاب والسنة على صفات الله تعالى، إلا حين توافق البراهين العقلية القطعية ـــ على حد زعمهم ـــ وأخيرا قرروا أن القرآن ليس بكلام الله حقيقة وإنما هو دال على كلام الله، أو عبارة عنه أو ترجمة له، وهذه هي المسألة التي امتحن فيها كثير من علماء المسلمين في عهد المأمون العباسي كما هو معروف لدى الجميع، وعذب من أجلها إمام، ثقيل الوزن من أئمة المسلمين الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله؛ وهي بعينها مدونة اليوم في كتب القوم، وتدرس للشباب السذج الذين لم يتفهموا في دينهم بعد.

بينما نرى هذا الجفاء عند أهل الكلام، نرى طائفة أخرى تعزل القرآن عزلا عن حياة الناس، وإنما هو كتاب يتلى في بعض المناسبات، مناسبات حزن أو فرح، ولاحظ فيه للأحياء أكثر من تلاوته، وترى بجانب ذلك طائفة من الساسة تقف من القرآن موقف المجامل ـــ المجاملة غير المحبة وغير الإيمان طبعاً ـــ فلا بأس عندهم أن يتلى في بعض المناسبات الرسمية، ويستشهد به في بعض المقام إن دعت الحاجة إليه.

ويسجل في الإذاعة إذا كان المقرىء حسن الصوت، بحيث يحمل المستمع على الطرب، ثم انتهى كل شيء، وكأنه نزل لهذا الغرض نفسه. وأما أن يقرأ للتدبر واستنباط الأحكام منه، وأما أن تساس الأمة على ضوئه، وتحت ظلاله، ويتخذ دستوراً صالحا للعصر الحديث، كما كان صالحا للعصور الخالية، فهذا أمر لم يدر بخلدهم قط، وبعد هذا كله، هل يصح، أو نصدق إذا قلنا : نحن أمة القرآن ؟! أين القرآن منا، وأين نحن من القرآن ؟! بل أين حياتنا من القرآن ؟ وأين القرآن من حياتنا ؟؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله !! وبعد، فضروري أن ينتج من هذه المفاهيم الخاطئة التي تحدثنا عنها خطأ أكبر، وأخطر ألا وهو الخطأ في مفهوم الإسلام نفسه، فمن الناس من يفهم الإسلام فهما محدودا جدا، يفهم أنه صلاة وصيام وحج

وزكاة وغيرها مما في معنى هذه العبادات، بقطع النظر عن كيفية أدائها، هل تؤدي على الوجه المطلوب أو المألوف عادة وتقليداً ؟ كل ذلك ليس بمهم، بل المهم أن تؤدي تحت هذه الأسماء شكليا، ثم لا شيء.

هذا هو مفهوم الإسلام عند جمهور المسلمين، ويفهم البعض الآخر أنه يكفيه لنيل لقب (مسلم) أن يحمل شهادة ميلاد تنص أن دينه الإسلام، وكفى، ولو لم يكن وراء ذلك شيء من أعمال الإسلام وواجباته، بل لو لم يكن وراء ذلك حبة خردل من إيمان — ويفهم بعض الساسة أنه يكفي لكونه مسلماً أن ينص القانون المتبع في بلده أن دين الدولة (الإسلام) هكذا بين قوسين، وكفى، أما كونه يحكم بما أنزل الله أو بغير ما أنزل الله، وهل يحرم ما حرم الله ويحل ما أحل الله أو يعكس ؟ وهل يتبع شريعة الله ويطبقها على حياته، وحياة رعيته، أو يشرع لنفسه ولرعيته تشريعا جديدا كما يريد ويهوى، كل ذلك ليس في الحسبان، بل كل ذلك لا يضر إسلامه، فهو مسلم لا محالة، هذا جانب من الفلسفة الجديدة في مفهوم الإسلام اليوم، وتعني هذه الفلسفة الحرية المطلقة وعدم التقليد بمفهوم معين في مفهوم الإسلام بل لكل فرد أو لكل جماعة أن تتصور الإسلام وتفهم وتعرف وتحدد كما تشاء وتريد، وليس لأحد حق الاعتراض تقديراً لحرية الفهم، ولأن كل مفهوم أو تصور صحيح، ومن نتائج هذه الفلسفة ما نراه في مجتمعنا الإسلامي من هذه التجزئة للإسلام، — إن صح التعبير — بحيث يرى في كل مكان، أو عند كل جامعة جزء من الإسلام أو شعبة منه — وقد تصغر هذه الأجزاء أو تكبر على حسب التفاوت في الاختيار ودقته، ولا تكاد أن ترى الإسلام كاملا غير مجزء في مكان واحد أو عند جماعة معينة، وهذه الأجزاء نفسها متصرف فيها عند الأداء والتنفيذ تحت تأثير البيئة والهوى، هذا ما آل إليه أمر الإسلام، يا أيها المسلمون ! وهذا ما انتهى إليه مفهوم الإسلام يا أيها المفكرون والمصلحون ! وهذا مفهوم الإسلام في الفلسفة الجديدة يا شباب المسلمين ! بعد أن كان مفهومه الاستسلام الكامل والانقياد التام لشريعة الله، الشريعة التي تضمنت كل أسباب السيادة والعزة في الدنيا وأسباب السعادة في الآخرة، إن عملوا بها والله المستعان.

وأخيرا ما رأي المصلحين في هذا الموقف الخطير ؟! وهل فكر المفكرون الإسلاميون في الحلول التي تنقذ الموقف ــ والحالة ما وصفنا ؟؟

فنرجو لهم التوفيق ليصلوا إلى النتائج النافعة في تفكيرهم وسعيهم، وإذا كان لا بد لي من رأي أو اقتراح لأنقاذ الموقف وتصحيح المفاهيم، فليس أمامنا إلا سبيل واحد في نظري وهو التربية، التربية وحدها ــ تربية الشباب تربية إسلامية بعيدة عن الجاهلية بجميع صورها، التربية التي يسبقها التخطيط بكل دقة، حتى نتمكن من إنشاء جيل جديد واع، ينشأ على فهم الإسلام فهماً صحيحا، وتصور الحياة، وفهم جيد لمعنى الحياة الجاهلية.

نريد لعلاج مشكلتنا، وانقاذ الموقف المتدهور جيلا جديداً، يؤمن بالكتاب كله ويتصور الإسلام برمته قبل أن يجزء، ثم يعمل له جاداً وصادقاً ومخلصاً، لا يخاف في الله لومة لائم، أو مخالفة مخالف طالما هو على الدرب.

ولكن ليس مثل هذا العمل عملا يتم بين عشية وضحاها؛ بل لا بد لنا من زمن طويل كاف للتخطيط، ولا بد من صبر طويل وجميل، لأن مدة الانحراف كانت طويلة جداً فلا بد من زمن مماثل لمدة الانحراف أو أطول منها تحت عمل دائب العمل الذي يتم تحت إشراف خبراء ومفكرين إسلاميين.

ومن أهم الوسائل في هذا الصدد ما يلي :

أولا : إصلاح المناهج التعليمية في كل بلد إسلامي إصلاحاً جذريا شاملا يجعل تلك المناهج متقاربة، إن لم تكن موحدة ــ ومن أهم أنواع إصلاحها اعتبار المواد الدينية أساسية، ويتوسع في دراستها في جميع المراحل. وأن يعتبر الرسوب فيها رسوبا في جميع المواد المقررة وخصوصا مادة التفسير والحديث وأصولهما، ومادة التوحيد والفقه بالأدلة، والسيرة النبوية مع دراسة الأفكار الهدامة المعاصرة بتوسع.

ثانياً : إصلاح أجهزة الإعلام، حتى تصبح نافعة وصالحة لاستخدامها في الإصلاح والتبليغ والتوعية العامة.

فإصلاح المناهج وأجهزة الإعلام يضمنان لنا صلاح شبابنا بإذن الله، ويقربان المصلحين من درب الإصلاح والتحول من الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية المنشودة.

ثالثا : أن يأخذ علماؤنا الأمر بالجدية، ويهتموا بأمر الشباب اهتماما جدياً، بدل هذا الإهمال الملاحظ، وبدل هذه السلبية الملموسة، ويكون ذلك الاهتمام على ضوء (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)[1].

فاليوم الذي تتوفر لنا فيه هذه الوسائل الثلاثة، إصلاح المناهج، وإصلاح أجهزة الإعلام، واستعداد علمائنا للإصلاح، والدور القيادي، وتقديرهم عظم المسئولية وثقل الأمانة يوم أن يتم ذلك كله، يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وهدايته وتوفيقه، وما التوفيق إلا بالله.

وذلك يعني تحولا جديداً في حياة الأمة الإسلامية، وذلك يعني الانتقال من حياة الجاهلية بصورها وألوانها وألقابها إلى حياة الإيمان حياة العمل والجد، حياة العلم والمعرفة، حياة الطاعة لله والأنس به، والرضا بشرعه، حياة علم ودين معا، حياة العزة والكرامة ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[2].

وصلى الله وسلم، وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه.

---

(١) البخاري : العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم (١٦٣/١) من حديث أنس بن مالك.

(٢) سورة المنافقون (٨)

ملحق

لإكمال المحاضرة الثانية

مقدمـــة(*) :

سبق لي أن تحدثت تحت هذا العنوان في موسم المحاضرات لعام ٩٤ ــ ٩٥ هـ وتناولت بالحديث النقاط التالية :

١ ــ العبـــادة.

٢ ــ التوســـل.

٣ ــ مبحث الصفـات.

٤ ــ القرآن الكريـم.

ووعدت بأني سوف أعود، فأتحدث مرة أخرى تحت العنوان ذاته إن شاء الله، فها أنا ذا أعود إلى العنوان بمشيئة الله تنفيذا للوعد المذكور وأختار هذه المرة النقاط الآتية :

١ ــ الأولياء والكرامات.

٢ ــ الشفاعـــة

٣ ــ السنة النبوية.

---

* محاضرة الموسم الثقافي لعام ٩٧ ــ ٩٨ هـ ــ تصحيح المفاهيم في جوانب من العقيدة.

والذي دفعني إلى الحديث في تصحيح المفاهيم هذه المرة، والمرة التي قبلها، هو إدراكي التام ما عليه عامة المسلمين ــ كما يدرك غيري ــ من تصورات بعيدة عن حقيقة الإسلام في الموضوعات المذكورة وغيرها، في جوانب من الإسلام حتى صار البون شاسعاً بينهم، وبين المنهج المحمدي، الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : (قد تركتكم على بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)[1] وعلى الرغم من هذا التوجيه النبوي المتضمن للإنذار، فقد زاغ جمهور المسلمين عن المنهج، فصاروا يعملون خارج المنهج في جوانب كثيرة، مغيرين بذلك مفاهيم، وتصورات كثيرة، فحياة المسلمين اليوم أقرب إلى الجاهلية التي قبل مبعث النبي ﷺ منها إلى الحياة الإسلامية، مما جعل حياتهم مغايرة لحياة الرعيل الأول من الصحابة والتابعين، الذين أخذوا تلكم المعاني من صاحب الشريعة مباشرة، أو بسند عال، ولعل سر ذلك انصراف الناس عن دراسة مصادر الإسلام الأصلية، وتسرب كثير من عادات وتقاليد غير إسلامية إلى صفوف المسلمين. كالهندوكية والبوذية والثقافة اليونانية. وهذا التركيب المزجي خلف في صفوف المسلمين ربيبة مدللة ومضللة في الوقت ذاته أطلق عليها (الصوفية)، وكنتيجة حتمية لوجودها كثر المحترفون باسم الدين، بعد أن لقبوا أنفسهم برجال السلوك فسلكوا بأتباعهم غير سبيل المؤمنين وصنفوا أنفسهم كالآتي :

العارفون بالله، والأقطاب، والأوتاد.

أيها الأخوة ! لا نعلم أن المسلمين ابتلوا ببلية، أو أصيبوا بمصيبة أعظم وأخطر من مصيبة الصوفية، إذ من بابهم دخلت على المسلمين تصورات أجنبية، ومفاهيم غريبة، لا عهد للمسلمين بها في ماضيهم، بل هي باب لكل بدعة دخلت على عبادة المسلمين وعقائدهم التي منها هذه التصورات الطارئة على المعاني، أو النقاط التي سوف أتناولها بالبحث في هذه العجالة، محاولاً بيان التصور الصحيح

---

(١) أحمد (١٢٦/٤) وابن ماجة : المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١٦/١) من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١٣٢/٤) (وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩٣٤)

لها، والتصور غير الصحيح، لعلي أكون أديت بذلك بعض ما يجب أداؤه من واجب النصح لعامة المسلمين، لأني لا أريد بمحاضرتي هذه أداء واجب الموسم الثقافي للجامعة فحسب، بل أرجو أن تصل هذه المحاضرة يوماً ما إلى أيدي من تعنيهم، وتتحدث عنهم، وعن سوء فهمهم، فتصحح لهم تصوراتهم تلك بإذن الله في هذه الجوانب.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم إنه خير مسؤول وأكرم مجيب.

وبعد هذه المقدمة التي أرجو ألا تكون مملة، نأخذ في الحديث عن النقاط الثلاث التي اخترتها لحديثي، هذه المرة على النحو التالي :

١ ــ الأوليـــــاء

الأولياء جمع ولي، والولي من تولى الله أمره، وخصه بعنايته لصلاحه لأن الله يتولى الصالحين، ويحب المؤمنين، ويدافع عنهم ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾[١] وفي الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)[٢].

ويعتبر الصلاح، والتقوى من العناصر الأساسية في الولاية، ومن مستلزماتها : العلم، ونعني بالعلم معرفة الله بأسمائه وصفاته وآلائه جملة وتفصيلاً، ومعرفة شرعه الذي جاء به رسوله المصطفى ونبيه المرتضى عليه الصلاة والسلام، وقد تولى القرآن الكريم تعريف الأولياء بما لا يترك مجالا للتردد، أو التساؤل أو التوقف : ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾ [٣] إذ يقول الله عز من قائل :

﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا**

---

(١) سورة الحج (٣٨)

(٢) البخاري : الرقاق، باب التواضع (١١/٣٤٠ ــ ٣٤١) من حديث أبي هريرة

(٣) سورة النساء (٨٧)

يتقون ﴾(1) ويقول أيضا : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾(2) وقد حصر القرآن — كما ترى — الأولياء فيمن يتصفون بصفة التقوى، والتقوى تستلزم العلم والمعرفة — كما قلنا — لأن حقيقة التقوى امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات خوفا من عذاب الله وسخطه، وتطلعا إلى رضائه وجنته وكرامته، ولا يتم ذلك إلا بالفقه في الدين، فالخير كله في الفقه في الدين كما أن الشر كله في الجهل بالدين والإعراض عنه، يقول الرسول الكريم في هذا المعنى : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)(3) ولا يخفي على طالب علم المفهوم المخالف للحديث. وهو أن من لم يرزق الفقه في الدين قد فاته الخير، وماذا بعد الخير إلا الشر ؟.

هكذا بين الكتاب والسنة صفات أولياء الرحمن التي منها : العلم والمعرفة والإصلاح والتقوى، وذلك يعني أن الأولياء هم العلماء العاملون والفقهاء المبرزون، حملة كتاب الله المتبعون لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، لنخلص إلى القول بأن الله لم يتخذ ولياً جاهلا يجهل دينه، وما جاء به نبيه عليه الصلاة والسلام، لنقضى بذلك على الزعم الشائع بين كثير من الناس أن الأولياء هم أولئك الجهال المخادعون من الكهنة، والمشعوذين من السحرة أحيانا الذين يسحرون أعين الناس، ثم يتظاهرون بفعل أشياء مثيرة، وهم في الواقع لم يفعلوا شيئا، وكثير من أولئكم الكهنة يستخدمون الشياطين، أو على الأصح تستخدمهم الشياطين لتوحي إليهم، وقد تأتي لهم بأموال مسروقة فتظن العامة أنهم من أولياء الرحمن وما يخبرون به، أو ما يأتي إليهم من الأموال من قبيل الكرامات، وأنى لهم الكرامة ؟ بل الإهانة أولى بهم، حقاً إنهم مهانون إذ حرموا ولاية الله والأنس به، ووقعوا في أسر عدو الله الشيطان،

---

(1) سورة يونس (62)
(2) سورة الأنفال (34)
(3) مسلم : الزكاة، باب النهي عن المسألة (2/718، 719) والإمارة، باب قوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي الخ (3/1524) من حديث معاوية، وقد رواه غير واحد من الصحابة مختصرا ومطولا، وقد أطلت نفسي في جمع طرقه وتخريجه في تحقيق كتب الزهد لوكيع بن الجراح تحت رقم 230.

فأصبحوا أولياءه ﴿ ومن يهن الله فماله من مكرم ﴾[1].

والذي أريد أن أصل إليه أنه لا تلازم بين الولاية، وبين ظهور الأمور الخارقة للعادة، وفي هذا المعنى يحكي عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله : « لو رأيتم رجلا يطير في الهواء، أو يمشي على الماء لا تقبلوا منه دعوى الولاية حتى تعرضوا أعماله على الكتاب والسنة »[2] أو كلام هذا معناه، يعني الإمام الشافعي رحمه الله أن ظهور الأمور الخارقة للعادة ليس من مستلزمات الولاية، بل قد لا تظهر تلك الأمور على أيدي كثير من أولياء الرحمن، لأنها ليست من صنع الأولياء، وإنما هي من فعل الرب تعالى الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقد تظهر تلك الأمور على أيدي أناس غير صالحين، كما سبقت الإشارة إلى هذا المعنى، وكما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله مفصلا.

وبالجملة فإن من رزق الفقه في الدين، يدرك تماما أن باب الولاية أوسع مما يظنه كثير من العوام، وأشباه العوام، الذي ضيقوا مفهوم الولاية، بل غيروه، فحصروا الولاية في بيوت معينة أو أشخاص معينين، يتظاهرون بالدروشة، وخفة العقل، ومبادىء الجنون أحيانا، ويهذون هذياناً، وربما أخبروا الناس في مكان الضالة، وعن بعض الحوادث التي تقع في أماكن بعيدة عن أماكن وجودهم بواسطة شياطينهم التي تنقل إليهم الأخبار من أماكن بعيدة، صادقة أو كاذبة، هذا هو مفهوم الولاية عندهم، ولا يخفى وجه خطأ هذا المفهوم، وقد استغل القوم جهل العوام، فأثبتوا لأنفسهم منصباً وراثيا يرثه الأبناء عن الآباء، فينتقل إلى الأبناء بطريقة أوتوماتيكية (تلقائياً) لأن القاعدة تقول : كل من كان أبوه ولياً، لا بد أن يكون ولياً ولا محالة، لأن الولاية عندهم غير مقيدة بقيود مكتسبة كالعلم والصلاح والتقوى، بل إن واقعهم على العكس من ذلك، إذ يتصفون بالجهل، والجرأة على الله، والخروج على

---

(١) سورة الحج (١٨)

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (٥٧٣)

شرعه، والابتداع في دينه، وكراهة أوليائه، وأهل طاعته من العلماء العاملين والدعاة الغيورين،

(أقســـام الأوليـــاء)

يتضح لنا مما تقدم أن الأولياء ينقسمون إلى قسمين :

١ ـــ أولياء الرحمن الذين تقدم الحديث عنهم وتولى القرآن تعريفهم. وهم الذين تولى الله أمرهم، ووفقهم، وتفضل عليهم بالكرامات التي من أعظم أنواعها : معرفة الحق واتباعه، والاستقامة عليه الاستقامة التي تنتهي بالعبد إلى دار الكرامة (الجنة) نسأل الله من فضله.

٢ ـــ أولياء الشيطان الذين وثقوا صلتهم بالشيطان، ونظموا معه حياتهم بعد أن قطعوا صلتهم بالله، أو ضعفت على الأقل، إذا لا يقع العبد في ولاية الشيطان وحزبه، مع قوة صلته بربه أبدا. والله المستعان.

وكما أن أولياء الرحمن تتفاوت درجاتهم عند الله، كذلك يتفاوت أولياء الشيطان في بعدهم عن الله، وذلك أمر معروف بحيث لا يحتاج إلى دليل.

الأمور الخارقة للعادة على أيدي أولياء الشيطان

وقد أوضحنا فيما تقدم ألا ملازمة بين الولاية، وبين الأمور الخارقة للعادة، وأنها قد تظهر على أيدي غير الصالحين، وبقي أن نعرف حقيقة تلك الأمور، فهي تنقسم إلى قسمين من حيث الحقيقة والكنه :

١ ـــ قسم يجريه الرب سبحانه على أيديهم استدراجا، يستدرجهم بها ليزدادوا إثماً على إثمهم عقوبة لهم على جريمتهم، جريمة عبادة الشيطان وطاعته، واتخاذه وليا من دون الله، يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، ومن يراها أنها من الكرمات فهو إما جاهل أو متجاهل مغالط لحاجة في نفسه.

٢ ـــ القسم الثاني : ما يجري على أيدي بعضهم من قبيل السحر، وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من الدجالين مهرة في السحر، فكثيراً ما يسحرون أعين

الناس، فيقوم أحدهم بأعمال غريبة ومثيرة وخارجة على المعتاد، والقانون المتبع في حياة الناس، مثل أن يلقى بنفسه في النار، ثم يخرج منها قبل أن تحرقه، أو تصيبه بأي أذى في جسمه، ومثل أن يتناول جمرة، فيأكلها، كما يأكل تمرة حلوة، والناس ينظرون إليه، فيندهشون، أو يمشي على خيط دقيق ممدود بين عمودين مثلاً، وغير ذلك من الأعمال التي يعرفها كل من يعرف القوم، وهو في واقع الأمر لم يعمل شيئا من تلك الأعمال، بل كان على حالته العادية، إلا أنه سحر أعين الحاضرين، فيخيل إليهم من سحره أنه يفعل شيئاً، وأنه يطير، أو يذبح نفسه، أو يذبح ولده، وكل ذلك لم يقع ولا بعضه.

فالطائفة الأولى المستدرجة، والأخرى السحرة هم المعرفون عند السذج من عامة المسلمين إنهم أصحاب الكرامات، ولما أدرك القوم أنه قد انطلى على العوام باطلهم هذا لفرط جهل العوام، وبعدهم عن الثقافة الإسلامية. استغلوا فيهم هذا الجهل، وتلك السذاجة، فاتخذوا الولاية المزعومة باباً من أبواب الدجل، فكما يطور أهل العلم معلوماتهم، وأرباب المهن والصناعات مهنهم وصناعتهم، حتى ينتجوا أحدث المصنوعات، كذلك يطور هؤلاء الأولياء أساليب دجلهم وخداعهم ليطير صيتهم وتزداد شهرتهم، فيرتفع بذلك دخلهم، وهذا الدخل هو الغاية عند القوم من دعوى الولاية والكرامة، ومن الخداع المتطور.

ومن أحدث أساليبهم المتطورة في هذا العصر أن زعم بعضهم أن هذه التكاليف الشرعية من امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات أمور مؤقتة، ولها حد تنتهي إليه، ثم تسقط، وزعم هذا الزاعم أنه قد وصل تلك المنزلة فسقطت عنه جميع الواجبات، وأبيحت له جميع المحرمات، بحيث لا يقال في حقه : هذا حرام أو حلال، أو هذا واجب وهذا مستحب. وهو يحاول بذلك أن يقتفي أثر رئيس الملاحدة، وقطب وحدة الوجود ابن عربي الطائي، وشاعر تلك الملة ابن الفارض، ويحذو حذوهما. وتبدو الفكرة جديدة ومتطورة لدى كثير من الناس لغرابتها ولما أدخل عليها من بعض الزخرفة والزركشة حتى ظهرت الفكرة كأنها فكرة حديثة،

وهي في أصلها فكرة قديمة، قدم كفر وحدة الوجود التي منشؤها تعطيل الصفات على طريقة الجهمية المعروفة، وهي فكرة يؤمن بها كل صوفي ـــ وللأسف ـــ ويسعى لها بأنواع من المجاهدة في زعمهم، وهو سر انتقادنا للصوفية وشطحاتهم، وما يؤخذ عليهم كثيرا جداً، لو وسعنا التعداد، ولا يشك كل من له أدنى فقه في الدين أن فكرة وحدة الوجود ملة مغايرة للإسلام، وآخر التطورات التي علمناها في هذا الخصوص دعوى محمود محمد طه السوداني حيث زعم أن تلكم الفكرة الإلحادية التي يدعو إليها هي مضمون الرسالة الثانية من الرسالتين المحمديتين على حد زعمه حيث زعم أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث برسالتين اثنتين. أما الرسالة الأولى فقد بلغها، وأما الثانية فلم يبلغها، ويعلل ذلك بقوله : إن القوم الذين بعث فيهم رسول الله أول ما بعث ليسوا على استعداد لفهمها، والعمل بها، لأن مستواهم العقلي لا يؤهلهم لفهمها. أما الآن وقد نضجت العقول وتقدم الفكر البشري قد آن الآوان للدعوة إليها، والعمل بها إلى آخر تلك الجعجعة المثيرة للضحك والبكاء في وقت واحد، نعم ! إنها تثير الضحك إذا نظرت إليها ككلام ساقط، ليس له أي قيمة علمية، وإنما هو هذيان لا ينطلي على العقلاء، ومثيرة للبكاء حيث وصلنا نحن المسلمين إلى هذا المستوى من البرودة وضعف الغيرة على شريعة الله التي يتلاعب بها أمثال محمود ولا يجد رادعاً يوقفه عند حده بل لا توجد غضبة إسلامية يحسب لها حساب في المجالات الرسمية والله المستعان.

ولعل بعض الحضور يحسب أنني أتحدث عن أساطير الأولين، وليس الأمر كذلك بل أن صاحب هذه الدعوة حي يرزق بمقربة منا في السودان ـــ كما قلت آنفا ولا يزال ـــ يعمل جادا لهدم الرسالة الأولى وليقيم على أنقاضها الرسالة الثانية المزعومة ـــ لو استطاع إلى ذلك سبيلا ـــ وفي الواقع إن الرجل مدع للنبوة ولكنه لم يستطع التصريح بها خشية أن يغضب الشعب السوداني غضبة إسلامية، فتكون نهاية له، لكنه لدهائه ولباقته، استطاع أن يتظاهر بمظهر المصلح المجدد؛ علماً بأنه ليس لديه أي جديد بل تنحصر فكرته في عقيدة وحدة الوجود التي يرأسها ابن عربي الطائي الملقب بمحي الدين مع عاشقهم المعروف بابن الفارض، ومن يدور في

فلكها ـــ كما سبق أن أشرت ـــ مع محاولة السير مع الوادي حيث ما توجه. شرق أم غرب. كعادة المحترفين باسم الدين أو التجديد[1].

والمسألة في الأصل ـــ كما قلت ـــ نتيجة حتمية لعقيدة غلاة الجهمية، الذين يعطلون جميع صفات الرب تعالى وأسمائه حتى لا يبقى هناك إلا ذات مجردة عن جميع الصفات، والأسماء التي لا يتصور لها وجود في الخارج، أي خارج الذهن وإنما يتصوره الذهن كما يتصور المحال والأمور الخيالية، وهذه العقيدة هي التي أفضت بالقوم إلى القول، بالحلول والاتحاد ليتحقق وجود الله خارج الأذهان حالا في مخلوقاته، ومتحداً معهم، هذا هو منشأ الحلول والاتحاد الذي هو آخر منزلة تنتهي إليها الصوفية، ولها يسعون، وفيها يتنافس المتنافسون، منهم، وهذه الفكرة كفر باتفاق المسلمين، لأنها تجعل الرب سبحانه حالا في مخلوقاته، بل يرى شارح الطحاوية[2] أن فكرة الحلول والاتحاد أقبح من كفر النصارى لأن النصارى خصوا الحلول بالمسيح وهؤلاء عمموا جميع المخلوقات وقديما قال زعيمهم ابن عربي.

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا   وما الله إلا راهب في كنيسة

هذا ما ينتهي إليه أولياء الشيطان، وما قبل هذه المنزلة وسائل مفضية إلى هذه الغاية وما أرخصها من غاية وما أقبحها من كفر وهو داء لا علاج له إلا آخر العلاج، وآخر العلاج الكي، فلا يردع هذا الإلحاد إلا قوة السلطان (لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[3] ورد في الأثر، ولكن أين قوة السلطان اليوم ؟؟!! إلا ما شاء الله.

الكرامـــات :

إذا كنا تحدثنا عن الأولياء، وصفاتهم، وأقسامهم، واستطردنا إلى بعض

(١) اقرأ « المحاضرة الدفاعية » لكشف عوار محمود السوداني.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد من قول عمر بن الخطاب (انظر الدر المنثور ٤/١٩٩) وقد ورد عن عثمان بن عفان أيضاً، وقال ابن كثير : وفي الحديث ثم ذكره في تفسير آية (٨١) من سورة الإسراء (٥/١٠٩) وليس هو بحديث مرفوع.

تصرفات أولياء الشيطان التي يظنها بعض الناس أنها من الكرامات، وبينا أنها لا علاقة لها بالكرامة؛ إذا كنا قد تحدثنا هذا الحديث، فنتحدث الآن عن الكرامات، وعن موقف الناس منها، بل قد استطردنا لمفهوم الكرامة لدى أتباع أولياء الشيطان، وبينا تصورهم الخاطىء، فلنحصر بحثنا هنا في كرامات أولياء الرحمن، وتحقيق القول في ذلك بتوفيق الله.

موقف المعتزلة من كرامات الأولياء

انقسم الناس في مسألة كرامات أولياء الرحمن إلى قسمين : ناف، ومثبت، وعرفت المعتزلة من بين الطوائف المنتسبة إلى الإسلام بنفي كرامات الأولياء، بدعوى أن إثباتها يوقع في لبس، إذ تلتبس الكرامة بمعجزة الأنبياء، وليس لديهم أي دليل، أو شبه دليل سوى هذه الدعوى، وهي دعوى كما ترى لا تنهض لمقاومة النصوص الصريحة التي سيأتي ذكرها إن شاء الله. وقد ناقشهم كثير من أئمة الهدى الذين عرفوا بمناضلة أهل البدع والهوى، وفي مقدمتهم شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وكتاب (النبوات). كما ناقشهم الإمام الشوكاني في بعض رسائله مثل رسالته التي سماها (بحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء)، ومن أراد الاطلاع على شبههم ودحضها فليراجع تلك المراجع.

موقف أهل السنة من كرامات الأولياء

أما أهل السنة فقد أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، اعتماداً على النصوص التي سنذكرها الآن إن شاء الله، وفي الإمكان سرد كلامهم والوقائع التي ذكروها، ولكني أرى الاكتفاء بما جاء في كتاب ربنا ﴿ **الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[1] وقد نضيف إلى آيات الكتاب ما صح عنه عليه الصلاة والسلام في السنة المطهرة، فنكتفي بذلك لأن فيهما الغنية لمستغن، وقد قص الله

---

(١) سورة فصلت (٤٢)

علينا في كتابه العزيز عن صالحي المؤمنين الذين لم يكونوا أنبياء، وكراماتهم المتنوعة، فلنستمع إلى هذا النموذج من كراماتهم :

(أ) قصة أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم، وثبتوا على إيمانهم وسط تلك البيئة الكافرة، بعيدين عن المداهنة، وقد قص القرآن علينا قصتهم البطولية إذ يقول الله عز من قائل : ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ إلى أن قال وهو يصفهم بالإيمان والهدى والثبات : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية آمنوا بربهم، وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم، إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض، لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا** ﴾[(١)].

فطبيعي أن هذا ليس موقف أناس عاديين، ولكن الله أكرمهم بالإيمان والثبات على الهدى، فصارحوا جبابرة قومهم : بأنهم لا يدعون مع الله أحداً وهو إعلان بالكفر بآلهة قومهم مع الثبات على الإيمان بالله وحده، وهذه كرامة وأي كرامة.

(ب) قصة مريم التي حكاها القرآن إذ يقول الرب تعالى ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب، وجد عنها رزقا** ﴾[(٢)] إلى آخر الآية، يقول في موضع آخر ﴿ **وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا** ﴾[(٣)].

(جـ) قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم في الغار، وقصتهم معروفة لدى جمهور الحاضرين، وهم أولئك الذين خرجوا في سفر ما، ولما أدركهم الليل دخلوا غاراً في الجبل ليبيتوا فيه، وفي أثناء الليل سقطت صخرة عظيمة من عل، فَسَدَّتْ عليهم باب الغار، فوقعوا في حيرة من أمرهم، فتشاوروا، فقرروا أنه لا ينجيهم مما هم فيه إلا الإلتجاء إلى الله، فيدعونه بالأعمال الصالحة التي عملوها، مخلصين له، فتوسل أحدهم إلى الله ببر الوالدين، إذ كان له أبوان شيخان كبيران،

---

(١) سورة الكهف (٩ ـــ ١٤)
(٢) سورة آل عمران (٣٧)
(٣) سورة مريم (٢٥)

وكان يحسن إليهما ويبرهما، كأحسن ولد. ومن بره بهما كان لا يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده، وكان عشاؤهم حليب الإبل، ومن عاداته أنه يقدم لهما عشاءهما في وقت مناسب، وفي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لإبله، وجاء بعشائهما في وقت متأخر من الليل، فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما، خشية أن يقطع عليهما نومهما، فيعكر راحتهما، كما لم يستحسن أن يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده، فظل واقفاً على رأسهما رجاء أن يستيقظا في أثناء الليل، ولم يستيقظا إلى أن أصبح الصبح، وهو واقف والحليب في يده، فتذكر هذا العمل الجليل فدعى الله به فأكرمه الله، وأجاب دعوته، فنزلت الصخرة قليلا حتى دخل لهم الهواء فطمعوا في الخروج.

وأما الآخر، فتوسل إلى الله بعفته، والخوف من الله، وملخص قصته : أنه كانت له ابنة عم، وكان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة، فراودها، فامتنعت، ورفضت طلبه، إلى أن ألجأتها الحاجة إليه، فقدم لها مبلغاً من المال يقدر بمائة وعشرين ديناراً تقريباً، مساعدة لها وسداً لحاجتها، فأعاد المراودة بعد هذا الإحسان ــ فطالما استعبد الإحسان إنساناً ــ وألح في طلبه طبعاً، وأخيراً وافقت على تحقيق رغبته تحت إلحاحه، وتأثير الإحسان ونفسها غير مطمئنة بالمعصية فمكنته من نفسها، فقعد منها مقعد الرجل من المرأة، فصرخت في وجهه، قائلة : اتق الله يا عبد الله لا تفض الخاتم إلا بحقه ــ تعني ــ إلا بنكاح وبطريقة شرعية. هكذا ذركته بالله، فتذكر، لأنه مؤمن. ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1] فقام من مقعده ذلكم فوراً، مالكا نفسه قاهراً شهوته وهواه، وهو موقف صعب كما ترون.

هذا ملخص قصة صاحب العفة، فقال ــ وهو في الغار ــ اللهم أن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فأجاب الله دعوته وأكرمه بكرامته فنزلت الصخرة مرة أخرى بيد أنهم لا يقدون على الخروج؛ ولكن أملهم صار أقوى في الخروج من ذي قبل ولا شك.

---

(١) سورة الذاريات (٥٥)

وأما الثالث : فتوسل إلى الله بحفظ الأمانة، إذ عمل عنده أجراء كثيرون، فأخذ كل أجير أجرته، فذهب، إلا واحداً منهم، فترك أجرته، وبعد مدة طويلة، جاء فطلب أجرته، فقال له : إن كل ما تراه من الإبل والبقر والغنم من أجرتك، لأني نميتها لك، لما طال غيابك خشية أن تضيع، ولم يصدقه بل قال : لا تستهزىء بي يا عبد الله : فقال له : لست مستهزئاً بك، وإنما الواقع ما قلته فسق مالك، فأخيراً أخذ أمانته بنمائها وزيادتها.

فقال الذي حفظ الأمانة ـــ وهو يتوسل إلى الله بعمله هذا ـــ اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فأجاب الله دعوته، وأكرمه بإخلاصه وصدقه، فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون. وهذا ملخص قصة الثلاثة.[1]

ومما يدل على ثبوت الكرامات من السنة ـــ قوله عليه الصلاة والسلام : (رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره).[2] وقصة أسيد ابن حضير وعباد بن بشر الأنصاريين وملخصها (أنهما كانا عند النبي عليه الصلاة والسلام : في ليلة ظلماء، فلما خرجا أضاءت عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها، فلما افترق بهما الطريق، أضاءت عصا الآخر، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله، والقصة في صحيح البخاري في كتاب مناقب الأنصار[3]. وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة عند البخاري في فضائل الصحابة : (لقد كان فيمن قبلكم من الأمم أناس محدثون، فإن يكن في أمتي أحد

---

(١) انظر نص القصة في صحيح البخاري : الأنبياء، باب حديث الغار (٦/٥٠٥ ـــ ٥٠٦)

(٢) مسند أحمد (٣/١٤٥) ومسلم : البر والصلة، باب فضل الضعفاء والخاطئين (٤/٢٠٢٤) والجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/٢١٩١) من حديث أبي هريرة، وورد نحوه في البراء بن مالك (صححه الترمذي، المناقب باب مناقب البراء، (٥/٦٩٣) وفي الباب أحاديث أخرى خرجتها في تحقيق كتاب الزهد لوكيع بن الجراح (رقم ١٤٦)

(٣) انظر : باب منقبة أسيد وعباد (٧/١٢٥)

منهم فإنه عمر)[1] وفي لفظ (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر)[2].

واكتفى بهذا المقدار من نصوص الكتاب والسنة التي تثبت دون شك كرامات الأولياء، وهناك نصوص أخرى كثيرة مرفوعة أو موقوفة، وكلها تثبت لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم من كرامات أكرمهم الله بها. ومَن راجع كتب الحديث، وكتب السير يرى الشيء الكثير من الوقائع في هذا المعنى، وإذا كان كذلك فلا حاجة بنا إلى سرد قصص أو روايات لإثبات كرامات الأولياء من أقوال التابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم الناس هذا، ليقيني الذي لا يخالطه شك بأنكم أكثر تطلعا إلى سماع النصوص منكم إلى سماع القصص والحكايات والروايات، وهو موقف محمود تغبطون فيه، ولله الحمد والمنة.

وبعد لعلي وصلت بهذه المحاولة إلى بيان التصور الصحيح في مسألة الأولياء وكراماتهم على ضوء الكتاب والسنة، كي يتبين الحق من الباطل والحق أبلج، والباطل لجلج، وهو وسط بين التفريط والافراط.

الموقف السليم من الأولياء

إذا كنا قد تحدثنا عن الأولياء، والكرامات، وأثبتنا الولاية بشكل واضح، ودعمنا حديثنا بنصوص من الكتاب والسنة، ثم أثبتنا الكرامات كذلك إثباتاً يعتمد على الكتاب والسنة، بقي أن نفهم ما هو الموقف السليم في معاملة الأولياء في نظر الإسلام ؟! وقبل أن أجيب على هذا التساؤل أستحسن أن أوضح السبب المثير لهذا التساؤل، وذلك هو موقف جمهور المسلمين المحزن من الأولياء، وهو الغلو في الصالحين، الذي يصل أحياناً إلى حد العبادة، بدعوى المحبة والتقدير، ومن يذهب إلى تلك الأضرحة المنتشرة في أكثر عواصم المسلمين ومدنهم يرى عدداً كبيراً من

---

(١) انظر : مناقب عمر (٤٢/٧)

(٢) المرجع السابق

المسلمين معتكفين عند تلك الأضرحة، ليتبركوا بها، أو بأصحابها، وربما وصل هذا التبرك إلى حد الطواف بالضريح، بل إلى حد السجود على عتبة باب الضريح، والأدهى والأمر أن يجد هذا السادن الذي يسجد لغير الله، ولا يلهج لسانه إلا بذكر صاحب الضريح من يفتي له بجواز ذلك، وأنه ليس من باب الشرك ، وإنما هو من باب محبة الصالحين أو التوسل بهم، وهذا المفتي، أو الفتان على الأصح معدود من علماء المسلمين المشار إليهم، والله المستعان، وإليه المشتكي.

إنه لموقف خطير !! العامي يقع في عبادة غير الله جهلا، والعالم يفتي بجواز ذلك، ويجدله تفسيراً وتأويلا وتخريجاً، وخطورته تأتي من حيث أصبح الولي نداً لله في هذا التصور، وشريكا له في استحقاق العبادة، باسم المحبة، أو التبرك بفتوى ممن ينتسبون إلى العلم، ويجهلون حق الله على عباد الله، أعود فأقول : هذا الموقف، وهذا التصور الذي يسود صفوف العوام وأشباه العوام هو الذي أثار تساؤلي.

ما هو الموقف السليم من الأولياء ؟؟!!

فأما الجواب عليه : أن الموقف السليم هو عدم الغلو فيهم، مع عدم الجفاء والاستخفاف بهم وإيذائهم، بل الواجب محبتهم في الله، وموالاتهم، ولك أن تطلب منهم الدعاء في حياتهم، ويسمى الاستشفاع بهم، أو التوسل بهم، ويجب أن نفرق بين محبتهم في الله، ومحبتهم مع الله، فمحبتهم في الله عمل صالح، وأما محبتهم مع الله فعمل غير صالح، بل هو بريد الشرك أو الشرك ذاته، ويختلف ذلك باختلاف ما يقوم بقلب العبد، وسر التخبط لدى كثير من المسلمين والخلط في عباداتهم هو عدم التفريق بين الحقوق، مما جعلهم يصرفون كثيراً من حقوق الله على العباد للعباد أنفسهم.

الحقـــوق الثلاثـــة

أن الدارس لكتاب الله، وسنة رسول الله، والفاهم لمعنى كلمة التوحيد حق فهمها، يستطيع أن يستنتج الحقوق الثلاثة التي يأتى شرحها، ومعرفة تلكم الحقوق تحدد للعبد طريق السير إلى الله والدعوة إليه على بصيرة قبل أن يخلط عملا صالحاً

وآخر سيئاً، ويخرج عن الصراط المستقيم، ويتخبط في ثنيات الطريق.

١ ـــ حق الله على عباده، وهو أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً في عبادته، وذلك بعد تصور مفهوم العبادة بأوسع نطاقها، وقد وجه النبي عليه الصلاة والسلام سؤالا إلى معاذ ذات مرة هكذا : (يا معاذ ! أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟) ولم يسع معاذاً إلا أن يقول : الله ورسوله أعلم فقال النبي عليه الصلاة والسلام ـــ بعد أن أثار انتباهه، ولعلها المقصود من السؤال ـــ قال : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)[1] الحديث، وهو معنى قولنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.

٢ ـــ حق الرسول على أتباعه الذي يؤخذ من قولهم : أشهد أن محمداً رسول الله وحقيقة ذلك محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام المحبة الصادقة التي تثمر الطاعة والاتباع وعبادة الله بما جاء به فقط، وهو المعنى الذي يشير إليه الحديث الشريف : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده والناس أجمعين)[2].

٣ ـــ حقوق عباد الله الصالحين تلك الحقوق التي نستطيع أن نستنتجها من قوله عليه الصلاة والسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[3] وقوله عليه الصلاة والسلام (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا)[4] الحديث وقوله عليه الصلاة والسلام : (ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)[5]. وغير ذلك من النصوص الكثيرة.

---

(١) البخاري : التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله (٣٤٧/١٣)

(٢) البخاري : الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (٥٨/١) ومسلم : الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والأولاد (٦٧/١).

(٣) مسلم : الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٦٧/١ ـــ ٦٨)

(٤) مسلم : الإيمان، باب بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (٧٤/١)

(٥) البخاري : الرقاق، باب التواضع (٣٤٠/١١ ـــ ٣٤١)

فمعرفة هذه الحقوق، ثم إعطاء كل ذي حق حقه، أمر له أهميته، ولا سيما حق الله على عباده، تجب العناية به علماً وعملاً، لأنه الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، والتقصير في هذه الغاية ذنب لا يغتفر، إلا لمن تاب، وآمن وعمل عملاً صالحاً.

وهذا التقصير واقع من كثير من المسلمين ـــ مع الأسف الشديد ـــ وهو سر اختيارنا لهذه النقطة ضمن النقاط الثلاث، رجاء أن ننبه إلى هذا الخلط الشائع بين جمهور المسلمين من إدخال بعض الحقوق في بعض. بل وصرف كثير من حقوق رب العالمين لعباد الله الصالحين بدعوى محبتهم نتيجة لهذا التقصير. والله المستعان.

٢ ـــ الشفـــاعـــة

ولفظ الشفاعة من الألفاظ التي تغير مفهومها عما كان عليه في عرف الصحابة ولغتهم؛ يقال : استشفع أو توسل بفلان أي طلب منه الدعاء لتقضى حاجته عند الله من إنزال المطر، أو دفع الضر، أو جلب المنفعة، فالاستشفاع بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته، أو التوسل به هو طلب الدعاء منه، وهذا أمر لا نزاع فيه لدى الصحابة وأتباعهم، وقد كان الصحابة يستشفعون به في عدة مناسبات، مثل مناسبة القحط ليغيثهم الله بدعائه عليه الصلاة والسلام وقد يأتي إليه من فقد بصره، فيطلب منه الدعاء، ليرد الله له بصره، فيدعو له النبي عليه الصلاة والسلام، ويأمر الأعمى أن يدعو الله ليجيب الله دعاء نبيه له، فيفعل الأعمى ما أمر به، فيرد الله له بصره بدعائه عليه الصلاة والسلام وشفاعته، وشفاعة الأعمى معا. وقصة الأعمى معروفة لدى طلاب العلم.

وقد كان الأعرابي يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطب خطبة الجمعة فيقول : يا رسول الله ! انقطعت السبل، وهلكت الأموال، ادع الله يغيثنا فيرفع رسول الرحمة يديه إلى السماء فيدعوا الله تعالى فيغيثهم الله، هذا وغيره

يسمى شفاعة ويسمى توسلا.[1].

وقد تغير هذا المفهوم لدى كثير من الناس فترى أحدهم يدعو رسول الله عليه الصلاة والسلام، أو يدعو عبداً صالحاً يطلب منه مالا يطلب إلا من الحي القيوم يطلب منه شفاء مريضه، يطلب منه نزول المطر، يطلب الولد إلى غير ذلك من المطالب.

وإذا قيل له في ذلك قال : هذا استشفاع، أو توسل أو هذه محبة الصالحين فلنقارن بين المفهومين : الأعرابي يذهب إلى رسول الله في مسجده، فيطلب منه الدعاء، فيقول في طلبه ادع الله يغيثنا، والأعمى يتكلف الذهاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيطلب منه الدعاء ليرد الله له بصره.

أما اليوم : قد نرى من يجلس في منزله أينما كان منزله، فيطلب نزول المطر، أو رد الضالة أو غلبة العدو، وما إلى ذلك من المطالب، فيقول في طلبه : أغثني يا رسول الله ! أغثنا يا جيلاني ! المدد يا حسين ! إلى غير ذلك من العبارات الوثنية التي صارت مألوفة لدى جماهير المسلمين، وللأسف الشديد.

أولا : لا يكلف نفسه بالذهاب إلى من يستشفع به أو يتوسل به.

ثانيا : يوجه الطلب للمخلوق دون الخالق، ثم يسمى هذا الطلب توسلا أو استشفاعاً، ولو حاولت توجيهه، اتهمت بأنك لا تحب الصالحين، وتنكر التوسل بهم، بل ولا تحب رسول الله، إلى آخر تلك العبارات التقليدية التي يرددها علماء السوء، ومقلدوهم الذين حالوا بينهم وبين المفهوم الصحيح في كثير من المعاني الإسلامية، عاملهم الله بما يستحقون !.

كم استغلوا جهل الناس، وسذاجتهم، وطيبة نفوسهم، فصاروا لهم حجر عثرة في سبيل فهم الإسلام.

---

(١) انظر مبحث التوسل من هذه المحاضرة.

المفهوم الصحيح للشفاعـــة

نعود فنقول : لا نزاع بين جمهور الأئمة من أهل السنة أنه يجوز أن يستشفع بالنبي عليه الصلاة والسلام في الدنيا في حياته كما سبق أن أشرنا إلى قصة الأعرابي، وهي في صحيح[(١)] مسلم. وقصة الأعمى المعروفة عند أهل[(٢)] السنن كما يشفع عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الكبائر من أمته الذين استوجبوا النار ليدخلوا الجنة بشفاعته عليه الصلاة والسلام، ولم ينكر هذه الشفاعة إلا الخوارج والمعتزلة بناء على أصلهم المعروف من أن صاحب الكبيرة مخلد في النار مع الكفار، وهو أصل باطل مصادم للنصوص كما لا يخفي، ومن أعظم الشفاعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام شفاعته لأهل المحشر حين يعتذر أبو البشر، وجميع أولى العزم من الرسل، ويقول كل واحد منهم : نفسي نفسي، إن الله قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله؛ نفسي نفسي، في ذلك الموقف الرهيب، يتقدم أهل المحشر إلى سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، فيطلبون منه الشفاعة عند الله، فيقول عليه الصلاة والسلام : أنا لها، فيسجد تحت عرش الرحمن سجدة طويلة يثني فيها على الله ثناء، ويحمده حمداً كثيرا، ويفتح الله عليه من الثناء ما لا يعلمه قبل ذلك كما صح عنه عليه الصلاة والسلام في أحاديث الشفاعة ثم يقال له : يا محمد ارفع رأسك، سل تعط، وأشفع، تشفع[(٣)]، وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام عند مسلم[(٤)] وأبي داود[(٥)] قوله : (أنا أول شافع، وأول مشفع، وأول من ينشق عنه القبر).

وله ﷺ أنواع من الشفاعات في الآخرة كما ذكرنا أن له أنواعاً من

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) انظر : النص الكامل في صحيح البخاري : التوحيد، باب قول الله : لما خلقت بيدي (١٣/٣٩٢) ومسلم : الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة (١/١٨٤ ـــ ١٨٥).

(٤) مسلم : الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ .(٤/١٧٨٢)

(٥) أبو داود : السنة، باب التخيير بين الأنبياء (٥/٥٤)

الشفاعات في الدنيا، ومعنى الشفاعة في كلتا الدارين لا يخرج عما ذكرنا من أنه طلب الدعاء ويلتقي معنى التوسل والشفاعة عند هذا المعنى بالذات كما اتضح مما يؤخذ ما ذكرنا أن أصحاب رسول الله الذين رأيناهم يستشفعون برسول الله في حياته؛ رأيناهم مرة أخرى قد عدلوا عن التوسل أو الاستشفاع به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته فجعلوا يتوسل بعضهم ببعض ويستشفع بعضهم ببعض : ففي عام الرمادة أصيب أهل المدينة بجفاف، فجمع عمر بن الخطاب المسلمين في صعيد واحد في المدينة فقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، والآن نتوسل إليك بعم نبيك، فاسقنا فطلب من العباس عم النبي الدعاء فدعا الله فأغاثهم الله(١).

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان مع الأسود بن اليزيد عندما أصيب المسلمون في الشام بالقحط، جمع الناس، فطلب من الأسود بن اليزيد أن يدعو الله تعالى، فدعا الله تعالى، فأجاب دعاءه، فأغاثهم الله تعالى، ولو كان معنى التوسل عندهم كما يظن هؤلاء العوام وأشباهم من الذهاب إلى قبور الصالحين، أو المراد بالتوسل بالصالحين هو التوسل بذواتهم، لما عدلوا عنه عليه الصلاة والسلام، بل لذهبوا إلى قبره، فدعوا الله عند قبره أو توسلوا بذاته لأن جسده الطاهر لا يزال في قبره لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما صح ذلك عنه عليه الصلاة والسلام.(٢)

فعدولهم رضوان الله عليهم عنه، واستشفاع بعضهم ببعض، يؤيد ما قررنا من أن معنى الاستشفاع أو التوسل هو طلب الدعاء من الحي الصالح، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في صدد حديثه في هذا المعنى : (يقول العلماء يستحب أن يستسقي بأهل الدين والصلاح، وإذا كان بأهل بيت الرسول، فهو أحسن)(٣).

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث التوسل.
(٢) تقدم تخريجه في مبحث التوسل.
(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

كأن شيخ الإسلام يشير إلى صنيع عمر مع العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام حيث استسقى به لأنه عم النبي عليه الصلاة والسلام، وكان سر اختياره كونه من أهل بيت الرسول.

وبعـــــد

فلو درس المسلمون حياة الصحابة، وعرفهم، واصطلاحاتهم، بل ولغتهم، ثم حاولوا أن يطبقوا حياتهم على حياة أولئك السادة، لساعدهم ذلك على تصور هذه المعاني التي ساءت فيها مفاهيمهم، وأخذوا يخلطون عملا صالحا، وآخر سيئا، ويتخبطون في عباداتهم، وجميع أعمالهم لأن القوم قد باشروا الوحي، وأخذوا الإسلام غضا طريا عن صاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

ولا يخالطنا أدنى شك في أن الصحابة فهموا هذا الدين فهما لا مزيد عليه، وانحصر الحق فيما فهموه، ثم لا يخالطنا أدنى شك بأنهم بلغوه لمن بعدهم كما فهموا، وهكذا الذين يلونهم ثم الذين يلونهم بالجملة إلى آخر القرون المفضلة الذين شهد لهم بالخيرية الصادق المصدوق محمد عليه الصلاة والسلام حيث يقول : (**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)[1] الحديث. وأخيراً طرأ على المفاهيم والتصورات ما طرأ، فساءت المفاهيم، وتغيرت التصورات، وحدثت تصورات لا وجود لها عند المسلمين الأولين في عهد الوحي، وفي الذين يلونهم ليصدق قوله عليه الصلاة والسلام : (**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه**)[2] والله المستعان.

ولعل المستمع الكريم استطاع أن يسايرني فيما أردت من بيان المفهوم الصحيح والمفهوم الخاطىء في باب الشفاعة والتوسل، وأنهما بمعنى واحد ــ ولا يعدوا معناهما طلب الدعاء من الحي الذي يدعو، وأن الخروج بها عن هذا الإطار

---

(١) تقدم تخريجه في بحث التوسل.

(٢) البخاري : الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (٢٠/١٣)

إلى دعوة غير الله وما في معناها من أنواع العبادة مفهوم غير سليم، هذا ملخص ما أردنا أن نقوله في هذه النقطة، وإلى النقطة الثالثة والأخيرة بعون الله تعالى.

٣ ــ السنــة النبويــة

أيها الأخوة ! هكذا نصل إلى النقطة الثالثة من النقاط الثلاث المختارة لحديثنا هذه المرة، وهي السنة النبوية، مما لا يختلف فيه اثنان أن ديننا الإسلامي مبني على أصلين اثنين :

الأصل الأول : أن يعبد الله وحده دون أن يشرك به غيره، وهو معنى قولنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.

والأصل الثاني : أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله وخليله محمد عليه الصلاة والسلام وهو معنى قولنا : أشهد أن محمداً رسول الله.

وصحة الأصل الأول تتوقف على تحقيق الأصل الثاني، ويمكن أن نوجز معنى تحقيقه في صدق متابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام لأن اتباعه دليل محبة الله عز وجل الذي محبته، والأنس به، ومراقبته غاية سعي العبد وكده وهي أيضاً جالبة لمحبة الرب عبده ومغفرته له، إذ يقول الرب تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم** ﴾[1] ذلك لأنه رسوله المختار ليبلغ عنه دينه الذي شرعه لعباده، وهو المبلغ عنه أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه. والرسول واسطة بين الله وبين عباده في بيان التشريع، وما يترتب عليه من وعده ووعيده، وتبليغ وحيه الذي اشتمل على ذلك كله، قرآنا وسنة. وقد كلف بذلك بقوله تعالى ﴿ **بلغ** ﴾ وبقوله ﴿ **لتبين** ﴾ وبقوله ﴿ **ادع** ﴾ إذ يقول الرب عز وجل ﴿ **يا أيها الرسول بلغ**

(١) سورة آل عمران (٣١)

ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾[1]**﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾**[2]**﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾**[3]، **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة الموعظة الحسنة ﴾**[4] الآية.

إن هذه الآي من الذكر الحكيم تبين بوضوح وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي التبليغ، والبيان، والدعوة إلى الله، إلى دينه وشريعته، وهذه الأوامر الربانية الثلاثة تحقق فرضاً واحداً وهو دلالة الخلق على الطريق الموصل إلى الخالق، وهو راض عنهم، حتى يكرمهم في دار كرامته لقاء ما قاموا به من أداء التكاليف في هذه الدار، حتى يصدق في حقه عليه الصلاة والسلام **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**[5].

إنه والله رحمة مهداة، ونعمة مسداة، ولكن الشأن كل الشأن هل رفع أتباعه رؤوسهم لدراسة سنته كما يجب — مكتفين بها ومتجردين لها — تلك السنة التي هي ذلكم البيان وذلك البلاغ وتلكم الدعوة ؟

هذا هو موضوع بحثنا من هذه النقطة ! ولا يشك مسلم مهما انحطت منزلته العلمية، وضعفت ثقافته، وضحلت معرفته، أن الرسول الكريم بلغ ما نزل إليه وهو القرآن. وذلك لأن الإيمان بأن الله نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام. وأنه بلغه كما نزل وأنه بيّن للناس ما يحتاج إلى البيان وأنه دعا الناس إلى سبيل الله ولم يفتر عن الدعوة إلى الله حتى التحق بالرفيق الأعلى.

إن هذا المقدار من الإيمان من أصول هذا الدين، وأساسه الذي ينبني عليه كل ما بعده، إذا كنا نؤمن هذا الإيمان — ويجب أن نؤمن — فأين نجد بيانه الذي

---

(١) سورة المائدة (٦٧)
(٢) سورة النور (٥٤) وسورة العنكبوت (١٧)
(٣) سورة النحل (٤٤)
(٤) سورة النحل (١٢٥)
(٥) سورة الأنبياء (١٠٧)

به يتحقق امتثاله عليه الصلاة والسلام لتلك الأوامر ﴿ **بلغ** ﴾، ﴿ **لتبين** ﴾، ﴿ **ادع** ﴾؟. الجواب نجد ذلك في سنته المطهرة التي قيض الله لها من شاء من عباده فصانوها وحفظوها من كل قول مختلق، وكل معنى مزيف، ليصدق قوله تعالى :

﴿ **أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] والذكر المنزل المحفوظ هو القرآن في الدرجة الأولى، وتدخل السنة في الدرجة الثانية عند التحقيق وإمعان النظر !!

وهذه السنة التي يتم بها البيان المطلوب هي أقواله وأفعاله وتقريراته.

الآحاد والمتواتر

في أثناء الفتوحات الإسلامية الواسعة دخلت على المسلمين اصطلاحات أجنبية بواسطة الكتب اليونانية التي ترجمعت إلى العربية في عدة علوم، ومن أخطرها علم المنطق والفلسفة، فدخلت تلكم البحوث والاصلاحات في الإلهيات، فأفسدت على الناس جوانب خطيرة من عقيدتهم، لأنها وجدت تشجيعاً رسمياً ودعماً قوياً من الخلفاء المعاصرين، وفي مقدمتهم المأمون العباسي الذي تعرفون موقفه من كبار علماء المسلمين والأئمة البارزين كالإمام أحمد بن حنبل، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في صدد حديثه عن موقف المأمون : (**ما أظن الله غافلا عما فعل المأمون بعقيدة المسلمين**).

ومن تلكم الاصطلاحات الغريبة والدخلية تقسيم الأحاديث النبوية إلى ظنية وقطعية كخطوة أولى في سحب ثقة المسلمين من أحاديث نبيهم.

فزعموا أن الآحاد من الأحاديث لا تفيد العلم، ولا يجوز الاستدلال بها في باب العقيدة، وإنما يستدل في هذا الباب بالأدلة القطعية، وهي الأحاديث المتواترة أو الآيات القرآنية، وقد انطلى ـــ وللأسف الشديد ـــ على علماء الكلام هذا القول المزخرف لضعف بضاعتهم في علوم السنة، وانشغالهم

---

(١) سورة الحجر (٩)

بالاصطلاحات الكلامية عن الكتاب والسنة، ثم جعل المتأخرون من علماء الأصول يتناقلون فيما بينهم هذا الاصطلاح، وهذه الدعوى مما جعل جمهور الخلف يعتقد هذا الاعتقاد، وظن الناس أن هذا هو معتقد المسلمين سلفاً وخلفاً، وخشية أن يفطن بعض الحذاق لهذا الخداع المقنع خطوا خطوة أخرى كذر للرماد في العيون، فقالوا قولة حق، أرادوا بها الباطل، وهي قولتهم المشهورة (إن طريقة السلف أسلم)[1] وأوهموا الناس، أن طريقة السلف مجرد سرد النصوص دون فهم لمعانيها، حتى أطلق عليها بعضهم (إنها طريقة العوام) وأما الطريقة المثلى التي فيها التحقيق والتدقيق هي طريقة الخلف، ولما هدأوا الجمهور بعبارتهم تلك، مضوا في طريقهم في إفساد عقيدة المسلمين، وإبعادهم عن سنة نبيهم، ولم يقف القوم عند هذا الحد، بل خطوا خطوة أخرى أخطر من التي قبلها إذ قالوا : إن باب العقيدة باب خطير ومبحث هذا الباب أساس في الإسلام، فلا ينبغي أن يستدل فيه إلا بدليل قطعي لا يتطرق إليه النسخ ولا يخضع للتخصيص أو التقييد، ألا وهو الدليل العقلي ! هذه هي الغاية في تدرجهم، وأنت ترى أن مفهوم الدليل القطعي قد تغير، فبينما كان المراد به في الخطوة الأولى الأحاديث المتواترة أو الآيات القرآنية فإذا يرد به هنا الدليل العقلي فقط. وأما الأدلة اللفظية أو النقلية قرآنا وسنة فلا تنهض للاستدلال بها استقلالا في هذا الباب، وإنما يستأنس بها إن وافقت الأدلة العقلية القطعية. هكذا تدرج القوم في أسلوبهم إلى أن عزلوا نصوص الكتاب والسنة عن وظيفتها وهي هداية الناس : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[2] والسنة مثل القرآن في الهداية (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يرد الحوض)[3]، (لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول :

---

(١) انظر حقيقة هذا الكلام في الفتوى الحموية الكبرى

(٢) سورة الإسراء (٩)

(٣) رواه مالك في الموطأ، القدر، باب النهي عن القدر بلاغا (٢٠٨/٢) وأخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني (انظر صحيح الجامع الصغير ٣٩/٣٠، ومشكاة المصابيح ١٨٦)

لا أدري !! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)[١] رواه الترمذي، وفي لفظ (ألا وأني أوتيت القرآن ومثله معه)،[٢] (ألا وأن ما حرمه الرسول مثل ما حرمه الله)[٣] أو كما قال.

وعلى الرغم من هذه النصوص وغيرها من النصوص التي تصرخ بأعلى صوتها بأن الهداية كل الهداية والخير كل الخير في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي سنة رسوله المبينة للقرآن المفصلة ما أجمل فيه المقيدة لإطلاقه، على الرغم من ذلك كله قد التمس القوم الهدى في غير وحي الله، فأضلهم الله عقوبة لإعراضهم عنه، واستخفافهم بشرعه، وفي حديث علي ابن أبي طالب عند الترمذي في وصف القرآن (من تركه من جبار قصمه الله، من ابتغى الهدى في غيره أضله)[٤].

وإذا ما عزلت النصوص كما رأينا، ولم تعد تصلح للاستدلال بها على سبيل الاستقلال، فلم يبق إلا أن يرجع الناس إلى ما كانوا عليه قبل الوحي، وهو التحاكم إلى العقول، فنتيجة لذلك خاضوا بعقولهم في المطالب الإلهية، فتكلموا في صفات الله. فاختلفت العقول، وتنازعت ــ ولا بد أن تتنازع ــ فافترقوا فرقا مختلفة، يضلل بعضهم بعضا، بل ربما كفر بعضهم بعضاً، وكلهم على غير هدى طبعاً على تفاوت في ضلالهم :

١ ــ فريق يثبت بعض الصفات، وينفي البعض الآخر بدعوى أن ذلك مقتضى العقل، وبعبارة صريحة : إن عقول الأشاعرة، والماتريدية تثبت صفات الذات

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث منزلة السنة في التشريع الإسلامي.

(٢) ابو داود : السنة، باب في لزوم السنة (٥/١٠) من حديث المقدام بن معدي يكرب وقد تقدم بعضه في مبحث منزلة السنة في التشريع الإسلامي.

(٣) تقدم تخريجه في مبحث منزلة السنة في التشريع الإسلامي

(٤) شرح الطحاوية، وأخرجه الدارمي : فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن والترمذي : فضائل القرآن، باب فضل القرآن (١٧٢ ــ ١٧٣) وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه الا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث (الراوي عن علي) مقال.

كالقدرة والإرادة والعلم مثلا، ثم ترى وجوب تأويل صفات الأفعال كالرحمة والمحبة والغضب والاستواء على العرش وغيرها من صفات الأفعال، هذا مقتضى عقول الأشاعرة وأتباعهم.

٢ ــ أما المعتزلة فقد انقسموا على أنفسهم فافترقوا عدة فرق، فأقربهم من يثبت الأسماء مع نفي الصفات، مع ملاحظة أن أسماء الله عندهم كالأسماء الجامدة التي لا تدل على المعاني، ومن غلاتهم من ينفي الصفات والأسماء معا، ولا يثبتون إلا ذاتاً مجردة من الأسماء والصفات، حتى أصبح وجود الله عندهم وجوداً ذهنياً فقط، ولا يتصور وجوده في الخارج.

هذا ما نتج من ذلك التصرف والتلاعب بالنصوص، بل عزلها عن وظائفها، كما قلنا سابقا. وفي النهاية استولت عليهم الحيرة، واستوحشوا مع أنفسهم بعد أن فقدوا ــ الأنس بالله، ومهما تستر القوم بما أبدوا من تعظيم مبحث العقيدة بتلكم العبارات ــ المعمولة التي سبق ذكرها، والتي لا تنطلي إلا على من يجهل القوم على صورتهم الحقيقية، فقد انجلى لكل دارس فاهم ما انتهى إليه أمرهم، فاسمعوا معي ما قال بعض فطاحلتهم متندمين في آخر جولاتهم في علم الكلام والفلسفة، ولعل الله ختم لهم بالتوبة النصوح، وحسن الخاتمة. يقول الرازي متندما، وواصفا لحياة علماء الكلام :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه : قيل وقالوا

إلى أن قال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمفاهيم الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[1] ، ﴿ **إليه يصعد الكلم**

(١) سورة طه (٥)

الطيب ﴾[1] وأقرأ في النفي : **﴿ ليس كمثله شيء ﴾**[2]، **﴿ ولا يحيطون به علما ﴾**[3] ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي :

٢ ــ ويقول الشهرستاني هو الآخر : « لم يجن منه الفلاسفة والمتكلمون إلا الحيرة والندم حيث يقول :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها　　　وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر　　　على ذقن أو قارعاً سن نادم

* * *

٣ ــ وثالثهم أبو المعالي الجويني يقول : يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور ــ يعني الفطرة ــ[4].

٤ ــ ويحكى عن بعض تلامذة فخر الدين الرازي : واسمه شمس الدين الخسر وشاهي، يحكى عنه أنه قال لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً، ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون، فقال الخسر وشاهي : وأنت منشرح الصدر لذلك ومستيقن به ؟ فقال : نعم ! فقال : أشكر الله على هذه النعمة، ولكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد ثلاث مرات، وبكى حتى اخضلت لحيته.

٥ ــ ثم لنسمع الأبيات الآتية لابن أبي الحديد الفاضل المعروف بالعراقي، وهو

---

(١) سورة فاطر (١٠)
(٢) سورة الشورى (١١)
(٣) سورة طه (١١٠)
(٤) راجع : الفتوى الحموية الكبرى لأقوال هؤلاء الثلاثة المذكورين وايضا شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٧ ــ ٢٢٨)

يذم علم الفلسفة ويرى أن تسميتهم إياها بالنظر غير صحيحة فلنسمع نص كلامه :

فيك يا أغلوطـــة الفكـــر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقـول فمـا ربحت إلا أذى السفــــر
فلا حيا الله الأولى زعموا إنك المعـــروف بالنظـــــر
كذبـوا إن الـذي ذكـــروا خارج عن قوة الــــبشر

* * *

ونختم هذه النقول بحكايتين قصيرتين ولكنهما خطيرتان :

٦ ـــ إحداهما يروى عن بعضهم : وهو (الخوفجي) أنه قال عند موته : (ما عرفت مما حصلت شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجع، ثم قال : الإفتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً) هكذا نتركها دون تعليق لننقل لكم الحكاية الثانية والأخيرة، وقد تحاشى الرواة ذكر اسم هذا الأخير لأمر ما وهو يقول :

٧ ـــ (أضطجع على فراشي واضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء)[١]، ويقول شارح الطحاوية، وهو يعلق على أصحاب هذه النقول بصفة عامة والأخيرتين بصفة خاصة : يقول : (ومن وصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق).[٢]

ومسك الختام لهذه النقول : كلام لإمام من أئمة الهدى الإمام الشافعي عرف القوم وعرف فيهم ما لا يظن وجوده عندهم، فلنسمع ماذا يقول الإمام : (لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلي العبد بكل ما نهى الله عنه ماخلا الشرك بالله ـــ خير له من أن يبتلي بالكلام[٣].

---

(١) انظر شرح الطحاوية (ص ٢٢٧ ـــ ٢٢٩) لأقوال هؤلاء الأربعة.

(٢) قول أبي يوسف أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (٥) واللالكائي في شرح أصول السنة (١/١٤٥) وابن بطة في الإبانة (١/٧٥) وسياقه : من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب غريب الحديث كذب، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٩)، وسيأتي تخريج هذا القول مفصلا في مكان آخر.

وبعد : لعلي لست بحاجة إلى التعليق على هذه النقول المختلفة، بعد أن أعلن علماء الكلام أنفسهم ممثلين في أئمتهم الذي يحتجون بكلامهم بأنهم ليسوا على شيء، وأنهم قضوا أعمارهم فيما لا طائل تحته، بل في كلام بعيد عن علوم المسلمين، ثم توج إعلانهم ذلك كلام الإمام الشافعي الذي سمعناه، ولكن الذي يهمنا في هذا المقام، أن ندرك أن تلك المحاولة الجهمية التي قام بها علماء الكلام والتي سبق أن تحدثنا عنها والتي تقدمت للمسلمين السذج بأسلوب خداع أظهر تعظيم شأن العقيدة أن تلك المحاولة هي التي نجحت وللأسف وأنتجت هذا الموقف الخطير على عقيدة المسلمين.

ما هو الموقف السليم

إذا أثبتنا أن ما ذهب إليه علماء الكلام وتبعهم فيه قوم آخرون أنه غير سليم، لا بد أن يطرح هنا هذا السؤال : ما هو الموقف السليم إذن ؟!

الجواب : بديهي أن الموقف السليم، هو ذلك الذي كان عليه الرعيل الأول قبل أن يوجد علم الكلام بفروعه المتعددة.

وتوضيح ذلك أن السنة مثل القرآن في الاستدلال بها، فيستدل بالسنة في كل مقام يستدل فيه بالقرآن، ولا يشترط لذلك إلا صحة الثبوت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا فرق بين متواترها وآحادها من حيث الاستدلال بالجملة وكل ما في الأمر أنه يقدم المتواتر على الآحاد في حالة التعارض كما يقدم الصحيح على الحسن عند التعارض، وهذا معروف لدى طلاب العلم.

أما القول بأنه لا يستدل بالآحاد في باب العقيدة، أو لا يستدل بالأدلة النقلية على وجه الاستقلال في هذا الباب فقول مبتدع في الإسلام.

ولنبرهن على صحة ما قررنا، نذكر ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه من عدم اعتبار هذه الاعتبارات المحدثة التي أحدثها من أحدثها ليلبسوا بها على المسلمين السذج الذين لا يفرقون بين الشحم والورم، وبين التمرة والجمرة.

١ ــ بعث رسول الله معاذ بن جبل إلى اليمن ليدعوهم إلى الله، ويبلغهم عن رسول الله، وكان باليمن جماعة من أهل الكتاب : اليهود، فأرشده النبي عليه الصلاة والسلام كيف يعاملهم؛ وأمره إن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله، فإن هم أطاعوه في ذلك، يخبرهم بأن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، الحديث(١).

ومما يلاحظ أن معاذاً كلف ليدعوهم إلى أصول الدين وفروعه معا وهذا يعني أن الإسلام لا يفرق بين باب العقيدة والأحكام فكما يجوز أن يبلغ فرد واحد الأحكام الشرعية، كذلك يجوز أن يبلغ فرد واحد العقيدة الإسلامية فحيث تقبل أخبار الجماعة يقبل خبر الواحد العدل، هذا ما درج عليه سلف هذه الأمة، فرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن كأبي موسى الأشعري وعلي بن أبي طالب، ورسله إلى غير اليمن، وجميع دعاة الإسلام من بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، كانوا يدعون إلى الله أفراداً وجماعات ويبلغ بعضهم عن بعض، ولا يعلم لهذا الاصطلاح ذكر في الأوساط الإسلامية فيما نعلم، وإذا كان كذلك، فلا يكون اليوم دينا مالم يكن دينا في عهد الوحي، وما لم يعرفه أولئك السادة من الصحابة والتابعين الذين نقلوا الدين إلى من بعدهم ممثلا في القرآن والسنة المطهرة، ليتضح أن هذا التصرف باطل من القول، وما ترتب عليه من الأحكام التي منها التفريق بين الصفات الثابتة بالآحاد والثابتة بالمتواتر أو القرآن، والقول أن المعول عليه هو الدليل العقلي، وأما النقلي فتابع له إن وافق قبل وإلا رد، كل ذلك تصرف محدث في الدين، وقول في شريعة الله بلا هدى ولا دليل منير، وكل ما كان كذلك يجب رده صونا للشريعة وحفظاً للعقيدة.

وبعد : فليس بعجب أن يصاب هؤلاء العلماء الذين تحدثنا عنهم بذلك المرض ــ مرض علم الكلام ــ في تلك العصور الخالية، ثم يتوب الله عليهم، فيتوبوا

---

(١) انظر النص الكامل للحديث في صحيح مسلم : الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/٥٠ ــ ٥١)

لأن المرض الغريب المعدى الطارى قد ينتشر بين الناس قبل أن تعرف أعراضه لجهل الناس بحقيقته حتى يقابل بالوقاية أولا ثم بالعلاج إذا نزل. ولكن العجيب المثير أن يعرف المرض، ويصاب به من شاء الله من عباده. ثم ينزل الله الشفاء على من يشاء منهم، فيزول البأس، فيصف أولئك المرضى بعد أن عافاهم الله خطورة ذلك المرض وسوء حالهم ووحشتهم عندما كانوا مصابين به، ثم ينشطون في تحذير الناس من التعرض لأسبابه، وينصحون بالابتعاد عنه واستعمال الوقاية ضده، وبعد هذا كله يتعرض بعض الناس لهذا المرض فيصاب به عدد كبير من شباب المسلمين، ويعيش هؤلاء المرضى بين الأصحاء مختلطين بهم، وهم لا يشعرون أنهم مرضى، ومن عرف منهم أنه مريض يتجاهل مرضه ويخفيه.

هذا هو حال علم الكلام وعلماء الكلام ومثلهم أصيب الفخر الرازي، والإمام الجويني، والشهرستاني، والغزالي، وغيرهم من كبار علماء المسلمين بداء علم الكلام، وفي نهاية المطاف أدركوا أنهم قضوا أعمارهم فيما لا طائل تحته، وأن علم الكلام حال بينهم وبين النظر في كتاب الله وسنة نبيه والانتفاع بهما، ثم تاب الله عليهم، فتابوا وألفوا كتباً تدل على توبتهم، أو نشروا مقالات، أو أبياتاً تدل على أنهم تابوا، ومما كتبه الرازي في توبته كتابه المعروف « أقسام اللذات ».

كما كتب الإمام الجويني بعد توبته رسالته المشهورة (الرسالة النظامية).

وقد كتب الشهرستاني وهو ثالثهم كتاباً أبدى فيه ندمه البالغ (نهاية إقدام العقول).

وأما الإمام الغزالي فقد كتب كتابا ينصح فيه العوام، وأشباههم عن الخوض في علم الكلام وسماه (إلجام العوام عن علم الكلام).

وبعد هذه التوبة المعلنة من هؤلاء الأئمة المجربين، ونصحهم للناس ألا يقربوا علم الكلام بعد هذا كله أتى أناس أدخلوا هذا العلم في معاهد وجامعات إسلامية بعد تغيير العنوان، أو الاسم فقط مع بقاء الحقائق كما كانت، فسموه (مادة التوحيد) أو (مادة العقيدة) لا توحيد ولا عقيدة، اللهم إلا ما كان من توحيد

الربوبية الذي لم يجهله أحد من بني آدم عبر التاريخ الطويل، اللهم إلا ما كان من الشيوعيين الجدد في الآونة الأخيرة، من إنكارهم لوجود الله متجاهلين ومعاندين ذلك التجاهل الذي قد تمليه أحياناً أوضاع سياسية واقتصادية، حيث أنكرت وجود الله بعض الجهات فترة من الزمن ليكون ذلك الإنسكار ثمناً لأسلحة سوفيتية متطورة.

وإذا ولت السياسة وجهها شطر الغرب اختفى الإلحاد، وارتفع الإنكار ولو مؤقتا كنتيجة لضعف الإيمان واليقين ــ والله المستعان.

أما توحيد العبادة، فلا ذكر له إلا ما كان بالاستطراد، وأما توحيد الأسماء والصفات فقد صار مفهوم التوحيد في هذا القسم في الصفات كلها أو بعضها.

ولا أستثني من هذه المعاهد والجامعات إلا المعاهد والجامعات السعودية التي يرجع الفضل في سلامتها من هذا الوباء ــ بعد الله ــ لدعوة شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما جازى به المصلحين. وقد وقفت هذه الدعوة المباركة سداً منيعاً أمام تيار الإلحاد والفساد وما انحرف من الاعتقاد، ولا تزال كذلك، وقد صان الله بها عقيدة شباب هذا البلد الطيب، ومن هاجر إليه، أو طلب العلم في معاهده وجامعاته من الانزلاق في تلك المزالق كما هو معروف لدى الحضور ومما يبشر بالخير أن بعض المعاهد والجامعات في بعض الدول الإسلامية أخذت تنتهج منهجاً سلفياً في دراسة العقيدة على قلتها من الجامعات الأهلية. ويحق لنا أن نقول (أول الغيث القطر ثم ينهمر) ولله الحمد والمنة.

فنسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحفظ علينا ديننا وعقيدتنا ويختم لنا بحسن الخاتمة من هذه الحياة إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلاة الله وسلامه إلى نبيه ومصطفاه محمد وآله وصحبه.

المحاضرة الثالثة

المحاضرة الدفاعية

عن السنة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعـــد؛

ففي العطلة الصيفية من عام ١٣٨٣هـ، زرت الجمهورية السودانية مع بعض الشبيبة من طلاب الجامعة الإسلامية التي زارت السودان، وقامت في أثناء زيارتها بالدعوة إلى الله تحت إشراف الأخ الداعية الشيخ محمد عبد الوهاب البنا المدرس بمعهد الجامعة الإسلامية، وكنت بصحبتهم من المدينة المنورة إلى بور سودان، وبعد أن أقمت معهم يوماً واحداً، عزمت على السفر إلى الخرطوم لإجراء اللازم في شأن السفر إلى الحبشة بواسطة السفارة الأثيوبية بالخرطوم حيث كنت على عزم لدخول الحبشة لو أراد الله. وجعلت أسأل عن أمهات المدن فيما بين بور سودان والخرطوم، فوصف لي بعض من سألته مدينة عطبرة، ورغبني في النزول بها، إذ وصفها بطيب المناخ، وجمال المنظر، وكثرة الورشات حتى أنهم يسمونها عاصمة الحديد، فقطعت تذكرة السفر إليها في طريقي إلى الخرطوم، ونزلت بها فعلا صباح يوم الجمعة، وفور نزولي توجهت إلى أحد الفنادق.

وفي طريقي إلى الفندق أوقفني إعلان جذاب، وقد كتب بخط عريض ملون ونصه كالآتي : (دار النشاط الإسلامي) تقدم مساء يوم الجمعة محاضرة للأستاذ محمود محمد طه تحت عنوان : « المستقبل للاسلام » وراعني الإعلان، ومررت به كثيراً، أولا بوجود الدار المذكورة في مدينة عطبرة. وثانياً بعنوان المحاضرة، وقلت في نفسي : لعل صاحب المحاضرة قرأ لسيد قطب كتابه الفريد في بابه المستقبل للاسلام وتأثر به، وأراد أن يقدم للناس مضمونه. هذا ما وقع في نفسي حين قرأت الإعلان، ولم أحط رحلي إلا وقد حانت صلاة الجمعة. وقصدت الجامع الكبير لأداء فريضة الجمعة وتذكير المصلين بعد الصلاة بما تيسر إلا أن إمام المسجد اعتذر متأسفاً، ولم يأذن لي في التذكير، وخرجت متأسفاً أنا بدوري مع قبولي عذر الإمام،

ولكنني علمت أن بعض الشباب لم يقتنع بعذر الإمام، وجعل يتكلم بالاستنكار، بل جعل أفراد من الشباب يتعرف إلي، ويظهر لي التأسف على ما حصل، وذهبوا بي إلى دار النشاط الإسلامي سابقة الذكر إذ هم من أهلها، وأخذوا يحدثونني عن المحاضرة التي قرأت عنوانها، وطلبوا إليّ حضورها، وأجبت دعوتهم، فحضرتها، فإذا بمحاضرة إلحادية، أكثر ما فيها تمويه، وتلبيس، ولم أملك نفسي في المشاركة في مناقشتها على الرغم من أني غريب في الدار، بل رأيت أن الذمة لا تبرأ إلا بالمناقشة، ومحاولة الدفاع حسب الإمكان، وقمت بذلك فعلا بعد أن أذن لي رئيس النادي، ولما طالت المناقشة بيني وبين المحاضر، اقترح رئيس النادي بالمناظرة إلا أن صاحبنا اعتذر ولم يقبل، وفي آخر المحاضرة أعلنت لي محاضرة دفاعية للرد والتعقيب على بعض النقاط الحساسة التي جاءت في محاضرته، وجعلت أسجل في مذكرتي بعض النصوص التي حرفها للمناقشة حولها، وقبل موعد محاضرتي، حضرت له محاضرة أخرى، وناقشته كما ناقشه غيري. ولكن بدون جدوى لأنه لا يحاول الرجوع عن فكرته مهما كلفته الحال لأنه ليس من طلاب الحق. ولما أعلنت محاضرتي في الشوارع كالعادة المتبعة، بادر بالسفر إلى أم درمان، وعلى الرغم من غيابه، قمت بإلقاء المحاضرة، وحضرها عدد ضخم ونوقشت كالعادة، وبعد ذلك طلب مني بعض أخواننا المخلصين من شباب السودان وغيرهم طبع هذه العجالة التي لم أقصد إلا الدفاع العاجل عن عقيدة الإسلام وتصحيح بعض النصوص التي حرفها المدعو (محمود) ولما أعلمه فيهم من حب الخير، والحرص على الدفاع، أجبتهم إلى طبعها، وتوزيعها في السودان.

والله أسأل أن ينفع بها، ويجعلها فاتحة خير، كما أسأله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، بعيدا عن الرياء والسمعة، إنه سميع قريب. وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه.

محمد امان بن علي الجامي
الجامعة الإسلامية : كلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيرا.

وبعد، فيقول الله في محكم تنزيله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾[1].

تتمثل تلكم الرحمة، والرأفة اللتان وصف الله بهما نبيه في تعليماته الرحيمة وتوجيهاته الحكيمة، ومن تلك التعليمات إخباره ببعض المغيبات التي أطلعه الله عليها، لأنه لا ينطق عن الهوى، ﴿ **إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى** ﴾[2].

فيقول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يخبر عن مثل هذه الأوقات المظلمة التي تمر على المسلمين اليوم : (بدأ الإسلام غريباً كما بدء، فطوبى للغرباء)[3]. وقال في تفسير الغرباء : (هم الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي)[4] وفي رواية أخرى : (هم الذين يصلحون حين يفسد الناس)[5].

---

(١) سورة التوبة (١٢٨)

(٢) سورة النجم (٤ — ٥)

(٣) مسلم : الإيمان : باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١/١٣٠)

(٤) الترمذي : الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا (١٨/٥) وقال : حسن صحيح

(٥) مسند أحمد (٧٣/٤) والبدع لمحمد بن وضاح القرطبي (٦٥) وقد ورد في شرح معنى الغرباء غير هذا منها :

١ — قيل من الغرباء ؟ قال : (النزاع من القبائل)

أخرجه الدارمي : الرقاق، باب أن الإسلام بدأ غريبا (٣١٢/٢) وأحمد (٣٩٨/١) وابن ماجة : الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا (١٣٢٠/٢) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٢٣) والقرطبي في البدع (٦٥) وقال =

وقال في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم : (يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم)(١) ووجه كون هذه الأخبار رحمة، ان الإنسان عندما يفاجأ اليوم ببعض آراء الملحدين الجريئة التي تهاجم دين الله المنزل من السماء، ومنهجه الذي ارتضاه للبشرية، تهاجمه بكل وقاحة، وبمنتهى الجرأة، والقادرون على قمع هذه الآراء وإيقافها عند حدها ساكتون، ولا يثورون، غيرةً على هذا الدين الذي يدينون به، في مثل هذا الموقف يتذكر الإنسان هذه الأخبار الصادقة. فلا يندهش كثيراً، بل يزداد إيماناً على إيمان، ويقيناً فوق يقين بهذا الدين، وبمن أنزله وبمن أنزل عليه. وقد فوجئنا في مدينتكم هذه (عطبرة) مع الأسف بهجوم عنيف ضد تعاليم الإسلام من المدعو (محمود) تناول فيه العناصر الأولية لهذا الدين في محاضرته التي استطاع فيها أن يخرج كل ما في جعبته بكل صراحة ووقاحة ولكثرة النقاط الإلحادية التي جاءت في محاضرته سجلت في هذه الوريقات ما استحضرته خشية النسيان ولنناقشها نقطة نقطة ونرد شبهاته شبهة شبهة، مستعينين بالله تعالى.

ومن أخطر ما جاء في كلامه ــ هداه الله ــ قوله بأن العبد يترقى حتى يسمى بالاسم الفرد (الله) بدعوى أنه يسمو ويعلو روحياً بالرياضيات الروحية وبالخلوة فيترقى إلى درجة الألوهية والربوبية فيسوغ له آنذاك أن يقول هو (الله) ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾.(٢) وهذه النقطة هي حجر الأساس في دعوته،

= عبدان القاضي في تفسير النزاع من القبائل : هم أصحاب الحديث الأوائل (شرف أصحاب الحديث ٢٤).

٢ ــ قيل : من الغرباء يا رسول الله ؟ قال : أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٢، ٢٢٢) والقرطبي في البدع (٦٤).

٣ ــ قيل يا رسول الله ! ومن الغرباء ؟ قال : الذين يحيون سنتي من بعدي، ويعلمونها عباد الله (شرف أصحاب الحديث ٢٣) وراجع أيضا لتفسير الغرباء : مجمع الزوائد للهيثمي (٢٧٨/٧) وشرح أصول السنة لأبي القاسم اللالكائي (١٠٠ ــ ١١١) والقرطبي في البدع (٦٥)، وفي بعض أسانيدها مقال.

(١) وراجع أيضا مسند أحمد (٣٤٩/٢).

(٢) سورة النور (١٦)

وهي هدفه الأول والآخر، لأنه يستطيع بمقتضاه أن يسقط عن الناس جميع التكاليف، ويصبح الإنسان حراً مطلقا لا يخضع للأوامر والنواهي، وهذا ما يريده ويدعو إليه، وما عدا ذلك من النقاط الكثيرة التي سوف تسمعونها، فكلها وسائل غير مقصودة، إلا أنه سلك في دعوته إلى هذه النقطة مسلك اللف والدوران والتعمية على الناس، وكان يحلق في أجواء بعيدة لا يدركها عوام الناس، وفات المسكين (محموداً) إن الإنسان إذا بلغ تلك المرحلة وسمي (الله) لا يقف عند الحرية المطلقة التي يشهدها (محمود) بسقوط تكاليف الدين فقط، بل يكون معبوداً لأن الله هو المألوه المعبود، وبذلك يورط نفسه في أوحال الشرك من حيث لا يشعر.

النقطة الثانية : هي سقوط الصلاة عن خواص العارفين على حد عبارة الملحدين، من يسميهم (محمود) بالعارفين — وهم في الواقع هم الجاهلون — كانوا يتدرجون في هذه المسألة على النحو التالي : يزعم الواحد منهم، أولا : أنه بلغ مرحلة، استطاع أن يستأذن فيها ربه أن يصلي الصلوات بمكة أو بالمدينة، فأذن له، فجلس في أوقات الصلاة بدعوى أنه يصلي في أحد الحرمين، وإذا ما تأكد أن الناس آمنوا بهذه المرحلة الأولية أعلن بسقوط الصلاة عنه كلياً، إلا أن محموداً لجرأته، ولظنه أن الجو صاف قابل لكل ما يلقى فيه، صرح بالمرحلة النهائية من أول وهلة بدون تدرج فلا يشك طبعاً من في قلبه مسكة من الإيمان، ولديه أدنى معرفة أن هذه الطريقة لا صلة لها بهدى محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وكان ﷺ كما يعلم الجميع يصلي بأصحابه في سفره وحضره، صلى بهم بمنى، ومزدلفة، وعرفة، وفيما بين مكة والمدينة، ولا يعلم أنه قال ذات يوم لأصحابه : (صلوا أنتم هاهنا وأنا أصلي بمكة أو المدينة إذا كان خارجهما) وهو سيد ولد آدم، وكان ﷺ كثير العناية بالصلاة، وكانت قرة عينه في الصلاة، وكان حكمه صلى الله عليه وآله وسلم على تارك الصلاة بأنه كافر. حيث يقول ﷺ : (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[1]. ويقول أيضا : (إن بين

(١) مسند أحمد (٥/٣٤٦) والترمذي : الإيمان باب ما جاء في ترك الصلاة (٥/١٤) والنسائي : الصلاة باب =

الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة)[1] وما ذلك إلا لأنه قطع صلته بالسماء لأن الصلاة هي الصلة بين العبد وربه، ولذا سميت بالصلاة. ولو ذهبنا نسوق الآيات القرآنية التي تدل بمنطوقها : أن الصلاة والخشوع فيها من صفات المؤمنين، وتدل بمفهومها أن تاركها غير مؤمن. لو فعلنا ذلك لطال بنا المقام، ومن تلكم الآيات الكثيرة الآية : من سورة البقرة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[2] ومن سورة الأنفال ﴿ **والذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[3] ومن سورة المؤمنون ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد اتفق الأئمة الثلاثة مالك، والشافعي، وأحمد : على قتل تارك الصلاة بعد الاستتابة وإنما اختلفوا : هل يقتل حداً أو كفراً، ولا يعلم خلاف بين المسلمين خلفهم وسلفهم في أن جاحد وجوبها، المدعى سقوطها كافر، وخارج من الملة، ومن المؤسف، بل المبكي أن يتظاهر الإنسان اليوم بسقوط الصلاة عنه وعدم وجوبها عليه، ثم يتمكن من جمع الناس له في عدة مدن وعدة أندية ليبث أفكاره الإلحادية بدون مقاومة فعالة ممن بأيديهم السلطة والقوة ـــ هداهم الله وأخذ بأيديهم إلى الحق ـــ فإنا لله وإنا إليه راجعون. ويحسن بي أن أذكر لكم بهذه المناسبة قصة الجعد بن درهم الذي قتل في عصر التابعين بعد أن أفتى علماء التابعين بكفره، وهو لم يقل : أنا الله، ولم يفت بجواز ذلك، ولم يترك الصلاة، ولم

= الحكم في تارك الصلاة (١/٥٤) وابن ماجة : إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (١/٣٤٢) من حديث بريدة الأسلمي، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب، وقال : وفي الباب عن أنس وابن عباس.

(١) النسائي (١/٥٤) والترمذي (٥/١٣) وابن ماجة (١/٣٤٢) من حديث جابر، وقال الترمذي : حسن صحيح وقال عبد الله بن شقيق العقيلي : كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر، غير الصلاة (انظر : الترمذي ٥/١٤).

(٢) آية (٣)

(٣) آية (٣)

(٤) آية (٢)

يطعن في الزكاة إذاً ماذا فعل ؟!

الذي حصل بالضبط أن الرجل ادعى أن الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا، ومع ذلك حضر مصلى العيد ليصلي مع المسلمين، وخطب أمير البلدة خالد بن عبد الله القسري خطبة العيد، وقال في آخر خطبته : (أيها الناس ! ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم لأنه ادعى أن الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا) فنزل من على المنبر فذبحه[1]، ذكرت لكم هذه القصة لتدركوا الفرق بين إيماننا وإيمانهم وغيرتنا وغيرتهم، بين دفاعهم الصحيح ودعوى دفاعنا الذي لا بينة عليه.

النقطة الثالثة ـ بحث الزكاة : يرى (محمود) أن الزكاة ذات المقادير تشريع مؤقت ملائم للعصور الأولى القاصرة، ولذا لا تصلح لهذا العصر الراقي المتطور، بل يجب أن ترق في هذا العصر إلى روح الإسلام وهي العدالة الاشتراكية، وتمنع بذلك ملكية الفرد، ويشترك الناس جميعاً في خيرات الأرض، هذا خلاصة كلامه. والواقع أن (محموداً) لا فرق عنده بين الأوضاع البشرية، وبين المنهج السماوي الذي نزل ليسير العباد عليه دائماً وأبداً، والذي لا يخضع لأي تغيير أو تبديل مهما تطور الزمن وتقدمت الأفكار، وليس بغريب من مثله أن يتفوه بمثل هذا بعد أن استطاع أن يقول : يجوز للعبد أن يدعى ذات يوم : أنه هو (الله)، وتسقط عنه الصلاة، ونحن نؤمن إن الإسلام هو دين العدالة، ولا عدالة إلا في الإسلام، وهو دين الانفاق والإيثار ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[2] ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[3] ولا يمنع الإسلام ملكية الفرد أبدا، بل يحترمها ويوجهها توجيهاً حسناً، ويوجب على الملاك الإنفاق من أموالهم على المحتاجين على ما هو معلوم لدى الجميع، وهؤلاء الذين يعترضون دائماً على هذا الوضع الذي هو عليه

---

(١) انظر خلق أفعال العباد للإمام البخاري

(٢) سورة البقرة (٣)

(٣) سورة الحشر (٩)

الناس من أن بعضهم فقراء، وبعضهم أثرياء، طبقات مختلفة، إنما يعترضون على الله عزّ وجلّ في أفعاله، ولما اختار الله نبيه محمد ﷺ للرسالة الأخيرة اعترضه كفار قريش على هذا الاختيار، فرد الله عليهم رداً مسكتاً لهم ولن يأتي من بعدهم من كل من يعترض على أحكام الله وأفعاله، يحكي الله ذلك في سورة الزخرف : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ ثم قال في تتمة الآية : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾[1] أي ليسخر بعضهم بعضا ويستخدم بعضهم بعضا على اختلاف طبقاتهم وعلى ذلك يقوم نظام الحياة.

الناس للناس من بدو وحاضرة ‏ ‏ ‏ ‏ بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فالأغنياء يستخدمون الفقراء، وهم خدم لهم، والفقراء يستخدمون الأغنياء، وهم في حاجة دائما إلى الفقراء في إصلاح أموالهم، وحفظها وتنميتها، ولا يستغنون عنهم وهذه سنة الله في خلقه ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾[2]. وذكر صاحبنا الحائر عدة شبه تقضي بسقوط الزكاة في نظره :

أولا : القول بوجوب الزكاة يسوغ ملكية الفرد. والجواب : على هذه الشبهة أن ملكية الفرد أمر ضروري وطبيعي فلا مفر منه. وتوضيح المسألة : أن الله حرم أموال بعضنا على بعض إلا برضاه، وطيب من نفسه : (لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفسه)، (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)[3] وهكذا قال المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع، يوم النحر محرماً للأموال بعد إضافتها لأصحابها وما ذلك إلا لأنهم ملكوها ملكاً صحيحاً، ومن جهة أخرى أن الله شرع قطع اليد في السرقة

---

(١) سورة الزخرف (٣١)

(٢) سورة فاطر (٤٣)

(٣) مسلم : الحج، باب حجة النبي ﷺ (٨٨٩/٢)

ولو كانت الأموال مشتركة بين الناس لما قطعت يده لأن له شبهة في كل جزء من أجزاء الأموال والشبهة تمنع تنفيذ الحدود (ادرؤوا الحدود بالشبهات).

ثانيا : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يزك، وهذه شبهة واهية لا تنطلي إلا على قليل المعرفة لأنه ﷺ لم يملك قط مالا يبلغ النصاب، وحال عليه الحول، ولو حصل ذلك لزكي، وكان مورد رزقه صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم (جعل رزقي تحت ظل رمحي)[1] يأخذ حصته من الغنائم، وينفق منها على بيوته، وفي قضاء ديونه لأن حياته كلها كانت وقفا على تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ؛ ونصح الأمة، والجهاد في سبيل الله، ولم يشتغل بجمع الأموال ولا ببناء القصور.

ثالثا : أنه ﷺ ما كان يأخذ منها هو وآل بيته لكونها أوساخ الناس، وهذه الشبهة أوهى من التي قبلها، بل هي كلمة حق أريد بها الباطل، وأي صلة بين تحريم الزكاة على الرسول وآل بيته لكونها أوساخ الناس، وبين سقوطها عن الأمة اليوم بعد أن أوجبها الله على العباد، وأمرهم بها في عدة مواضع من كتابه مقرونة بالصلاة ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[2] وفصلها الرسول ﷺ ببيان مقاديرها، والأموال التي تجب فيها، وبيان مصروفها. أما الرسول ﷺ فقد خصه الله ببعض الأحكام من الإباحة، والتحريم لحكم، ومن تلكم الأحكام تحريم الزكاة عليه، وقد يقال ــ والله أعلم ــ في حكمة تحريم الزكاة عليه ما يأتي :

أولا : تقتضي الحكمة عدم الأخذ منها هو وآل بيته إذ لو أخذوا منها لربما احتمل أن يقال : إنه إنما أمرهم بها لمصلحة اقتصادية تعود عليه، وعلى أهل بيته فاقتضت الحكمة عدم الأخذ منها سداً للباب على هذا الاحتمال والله أعلم.

ثانياً : بأن الله جعل له ولآل بيته حقا في خمس الغنائم بدل الزكاة وبهذا تدفع الشبهة ويتضح وجه الحق ولله الحمد والمنة.

---

(١) مسند أحمد (٢/٥٠) والبخاري : الجهاد، باب ما قيل في الرماح قال : ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكره (٩٨/٦) وانظر شواهده في الفتح (٦/ ٩٨)

(٢) سورة البقرة (٤٣)

ولننتقل الآن إلى عرض النصوص التي ساقها وحرفها ليؤيد بها فكرته، وليلبس على الناس، حيث يريهم أنه يستدل بالنصوص على آرائه لتروج عند السذج فلنبدأ بالآيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾[1].

زعم المسكين أن هذه الآية بقيت معطلة، لا يعمل بها من حين نزولها إلى هذا القرن، ويعلل ذلك أن الآية تدعو إلى العدالة الإشتراكية، والوسط الذي نزلت فيه قاصر عن تطبيق هذه العدالة، وظل يعمل بالزكاة ذات المقادير. أما الآن وقد تقدمت الأفكار البشرية مع تطور الزمن، فيجب العمل بها بدلاً من الزكاة ذات المقادير، هكذا يطعن المسكين بكل جرأة ووقاحة تلكم القرون المفضلة التي شهد لها الرسول المعصوم ﷺ أنها (خير القرون) حيث يقول : (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[2] ولا خير فيه قطعاً مع القصور في فهم الدين، والعجز عن تطبيق الإسلام، وهؤلاء السلف الذين يستخف بهم المذكور بما فيهم أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، هم سند هذا الدين، فإذا طعنوا واتهموا بالقصور، فقد طعن الدين نفسه، ومن طعن هذا الدين فما عليه إلا أن يلتمس له ديناً آخر وملة أخرى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ : (من رغب عن سنتي فليس مني)[4] فلندع هذا الخبط ولنفهم المعنى الصحيح للآية وهو أنك إذا أردت أن تنفق مما زاد عن حاجتك بمعنى أنك تبدأ بنفسك ثم بمن تعول ثم تنفق في المشاريع الأخرى. هذا هو الأصل في الإنفاق على أساس : اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بنفسك، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى.

---

(١) سورة البقرة (٢١٩)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) سورة آل عمران (٨٥)

(٤) البخاري : النكاح، باب الترغيب في النكاح (١٠٤/٩) ومسلم : النكاح، باب استحباب النكاح (١٠٢٠/٢)

ولا يمنع هذا أن تؤثر أخاك المسلم على نفسك، إن قدرت على الصبر على ذلك، وليس بواجب أن تتصدق بكل ما زاد على حاجتك الضرورية، حيث وصف الله بالإيمان حقا من ينفق بعضاً مما رزقهم الله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾[١]. وإذا أردت أن تكون من المؤمنين فما عليك إلا أن تطبق هذه الصفات الواردة في هذه الآيات وغيرها من آيات الكتاب المبين.

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[٢]

حاول (محمود) أن يستدل بهذه الآية على ما يسميه بعلم الحقيقة ـــ أو علم الباطن ـــ بدعوى أن الإنسان يبلغ بالمجاهدة والطاعة ـــ إلى مرحلة تؤهله أن يأخذ عن الله بدون واسطة ـــ وهذه من شطحات الصوفية القديمة ـــ وليست شيئا جديداً جاء به (محمود) ولا يدعى هذه الدعوة ـــ إلا الزنديق الذي يحاول أن يخرج على رسالة المصطفى ﷺ ولو كان ذلك جائزا ـــ لكان أبو بكر رضي الله عنه أولى بذلك لأنه أفضل هذه الأمة، بعد نبيها ﷺ.

بهذه المناسبة نحيطكم علما بأن هذه الآراء الشاذة التي يدعو إليها هذا المسكين المتخبط ليست من بنات أفكاره ـــ كما يظن بعض الناس ـــ وإنما هي آراء بالية أخذها من بطون كتب الملاحدة إلا أنه يزركشها أحيانا زركشة، ويلونها تلوينا ليظن الناس أنها من بنات أفكاره.

وبعد فلنفهم الآن المعنى الصحيح للآية وهو أن العبد إذا لازم تقوى الله تعالى، وبذل وسعه في طاعته وحاول فهم شريعته فهما صحيحا وفقه الله إلى الصراط المستقيم، ويسر له الأسباب في تحصيل العلم، ويسر له العمل الصالح، وهذا

---

(١) سورة الأنفال (٣ ـــ ٤)

(٢) سورة العنكبوت (٦٩)

هو معنى قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾[١] وهذا أيضا معنى الأثر الذي يكرره (محمود) دائما ظنا منه أنه حديث (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) ولا يدل هذا الأثر ـــ بعد صحته ـــ على أكثر مما ذكر في الآية السابقة .

الآية الثالثة : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[٢]

حاول صاحبنا الحائر ـــ كعادته ـــ أن يحمل الآية ما لا تحتمل، حيث أراد الاستدلال بها على تلكم العناوين الكثيرة التي يكررها دائما الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة، ومعنى الآية واضح جدا، وتوضيحه كالآتي : نفت الآية نوعا من الرمى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأثبتت له نوعا آخر ـــ فالرمى المنفى عنه ﷺ هو الرمى المقرون بالإصابة، لأن الله تعالى هو القادر وحده على إيصال التراب الذي رماه الرسول ﷺ، وحذفه إلى أعين الكفار، وإصابة أعينهم، كلها بذلك التراب القليل. والرمى المثبت هو الذي بمعنى الحذف، ويكون معنى الآية : (لم تكن أنت الذي أوصلت التراب إلى أعينهم، وأصبتها به، بل أنت وظيفتك الرمي والحذف، فالله هو الموصل للتراب، والمصيب به أعينهم)، هذا معنى الآية لا لفّ ولا تلبيس، ولله الحمد والمنة.

الآية الرابعة : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾[٣] هذه الآية في نظر صاحبنا من أصرح أدلته في الدلالة على ما يزعم هو، وسلفه الملحدون ـــ كابن عربي وابن الفارض ـــ في أن للقرآن ظاهراً وباطنا : والظاهر هو الذي يفهمه المسلمون قديما وحديثا، وهو ظاهر كما يدل عليه اللفظ والمعنى. والمعنى الباطن الذي يدعى معرفته بالإلهام من يسميهم بالعارفين. أن الكفار هي الجوارح من العينين والأذنين وغيرهما. وهذا الكلام الصوفي المضحك لا يستحق أن نقف عنده

---

(١) سورة الطلاق (٤)

(٢) سورة الأنفال (١٧)

(٣) سورة التوبة (١٢٣)

كثيراً لظهور بطلانه، بل نحمد الله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من عباده.

الآية الخامسة : قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾[١] يزعم صاحبنا ــ هداه الله ــ أن هذه الآية تخبر أن الذي تم وكمل هو إنزال القرآن إلى الأرض فقط، أما التشريع والبيان فلم يتما بعد، فهذه جرأة نادرة من (محمود) كعادته إلا أنها جرأة طائشة، ووقحة، وقد أرسل الله رسوله ﷺ وآله بالتبليغ والبيان ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾[٢] وقال : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[٣] وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رسالة ربه، ونصح لأمته وبين لهم البيان الشافي ــ بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم ــ لم يترك شيئاً يقربنا إلى الله إلا بينه لنا ودلنا عليه، كما لم يترك شيئاً يبعدنا عن الله. وعن دار كرامته ويقربنا إلى النار إلاَّ بيّنه لنا وحذرنا منه ويقول أبو ذر رضي الله عنه : (لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً)[٤] لأنه ﷺ نهى عن كل ذي مخلب من الطير[٥]، وعن كل ذي ناب من السباع[٦]. وقد أوتي جوامع الكلم[٧]، وأجمل بعض البيانات في كليات تندرج تحتها جزئيات كثيرة، وكلما جدت مسألة أو مسائل فلا بد أن توجد لها قاعدة كلية

---

(١) سورة المائدة (٣)

(٢) سورة المائدة (٦٧)

(٣) سورة النحل (٤٤)

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده كما في منحة المعبود (١/٣٣) وأحمد (٥/١٥٣، ١٦٢) وابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن (٤٧) وهو حديث صحيح لغيره (وانظر تفصيله في كتاب الزهد لوكيع بن الجراح رقم (٥٢٢، بتحقيقي)

(٥) مسلم : الصيد والذبائح، باب تحريم أكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (٣/١٥٣٤) من حديث ابن عباس.

(٦) والبخاري : الذبائح والصيد، باب أكل كل ذي ناب من السباع (٩/٦٥٧) ومسلم (٣/١٥٣٤) من حديث أبي ثعلبة الخشني كما أخرجه مسلم من حديث ابن عباس.

(٧) البخاري : الجهاد، باب قول النبي ﷺ نصرت بالرعب (٦/١٢٨) ومسلم : المساجد (٥ ــ ٨) (١/٣٧٢).

تندرج تحتها تلك المسألة أو المسائل، بعد التحقيق وإمعان النظر وهي التي يعبر عنها الفقهاء بـ (عموم الشريعة) أو (عموم النصوص) فالناس درجات، طبعاً في إيجاد المدخل للجزئيات المتجددة في عموم النصوص، وكان من الإنصاف إذا عجز العالم عن إدراك ما استحدث من المسائل وما سيحدث تحت تلكم الكليات، كان من الإنصاف أن يسأل من هو أعلم منه إن وجد. وإلا وكل العلم إلى عالمه قبل أن يتهم الشريعة بعدم الكمال، وقبل أن يزعم أن البيان لم يتم بعد، وبهذا ينتهي كشف الشبه حول الآيات التي لبس بها (محمود) في بعض محاضراته، وأرجو أن يكون قد زال الإشكال وظهر وجه الحق. ولننتقل إلى الأحاديث.

الحديث الأول :

(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[1].

يزعم بعضهم أن الرسول ﷺ قال هذا الكلام عند رجوعه من بعض

---

(١) هو حديث ضعيف جداً، أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/٤٩٣) وضعفه البيهقي وتبعه العراقي في تخريج الإحياء وأورده الملا على القاري في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (٢٠٦ ــ ٢٠٧) وأورده السيوطي في الجامع الصغير ورمز لضعفه، وتبعه الألباني (ضعيف الجامع الصغير (٤/١١٨).

وفيه يحيى بن العلاء متهم بالوضع، قال أبو حاتم : ليس بالقوى، وضعفه ابن معين، وقال الدارقطني : متروك، وقال أحمد : كان يضع الحديث، وقال ابن حجر : رمى بالوضع (راجع : الميزان والتقريب) فالرواية ساقطة، وضعيفة جداً، لا تجوز روايتها إلا على سبيل التنبيه، ثم هي تعارض معارضة صريحة للقرآن : لا يستوي القاعدون من المؤمنين الخ (النساء ٩٥ ــ ٩٦) وللسنة الصحيحة : أن رجلا قال : يا رسول الله : دلني على عمل يعدل الجهاد ؟ قال : لا أجده، ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ فقال : ومن يستطيع ذلك ؟ وبعد، فلا يلتفت إلى كلام هؤلاء الذين يصححون معنى الحديث الضعيف الذي هذى حالته سندا ومتنا وفي الموضوع بحث جيد للعلامة الدكتور محمد أمين المصري رحمة الله عليه في كتابه سبيل الدعوة الإسلامية، تكلم فيه على سنة الحديث ومتنه فأفاد وأجاد، فليرجع إليه للتفصيل.

غزواته، وهذا الحديث قد ضعفه غير واحد من أهل العلم من حيث السند، وهو غير صحيح من حيث المعنى أيضا. وكل من علم مكانة الجهاد في سبيل الله وأجر من استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله الذين هم ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ يدرك تماما أن البون شاسع بين هذا الجهاد الذي هذه مكانته وبين الجهاد الثاني الذي هو مخالفة الهوى، وحمل النفس على الطاعة، مع العلم أن من قام بجهاد الكفار، وخاض المعركة لإعلاء كلمة الله فقد جمع بين الجهادين والأمر واضح ولا حاجة إلى الإطالة.

الحديث الثاني :

(حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1] وقد ذكرت في بعض مواقفي ــ مع صاحبنا أن هذا الكلام ليس بقول الرسول ﷺ، ولا قول صحابي، ولا تابعي، بل هو قول أبي سعيد الخراز ــ أحد الصوفية ــ كفى الله المسلمين شرهم. كما ذكرت أنه غير صحيح من حيث المعنى، إذ لا يعقل أبداً أن تنقلب حسنة من الحسنات التي يثاب عليها زيد من الناس وهو في درجة الأبرار ــ سيئة في حق عمرو ــ وهو من المقربين ــ وقد حاول صاحبنا أن يجد لهذه القاعدة الخرازية مثالا في الشريعة، وأنى له ذلك ؟! وقال بعد أن فكر طويلا ــ إلا أنه تفكير غير موفق :

---

(١) هو كما قال فضيلة المحاضر حفظه الله أنه من قول سعيد الخراز الصوفي كما أشار إليه الغزالي في الإحياء (٤/٤٤) ولم يخرجه العراقي بناء على أنه من قول أبي سعيد، وقد أخرجه عنه ابن الجوزي في صفوة الصفوة وابن عساكر في ترجمته كما في الكشف (١/٣٥٧) وقال : (وعده بعضهم حديثا وليس كذلك)، وقال الألباني بعد أن تكلم على الحديث وحكم ببطلانه وأنه لا أصل له قال : ثم إن معنى هذا القول غير صحيح عندي لأن الحسنة لا يمكن أن تصير سيئة أبداً، مهما كانت منزلة من أتى بها، وإنما تختلف الأعمال باختلاف مرتبة الآتين بها، إذا كانت من الأمور الجائزة التي لا توصف بحسن أو قبح، مثل الكذبات الثلاث التي أتى بها ابراهيم عليه السلام، فإنها جائزة لأنها كانت في سبيل الإصلاح، ومع ذلك فقد اعتبرها ابراهيم عليه السلام سيئة، واعتذر بسببها عن أن يكون أهلا لأن يشفع في الناس صلى الله عليه وعلى نبينا وسائر أخوانهما أجمعين، واما اعتبار الحسنة التي هي قربة إلى الله تعالى سيئة بالنظر إلى أن الذي صدرت منه من المقربين، فمما لا يكاد يعقل. (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (رقم ١٠٠ ١/١٣٥ ــ ١٣٦).

لو تصدق إنسان بصدقة سرية لم يطلع عليه أحد ثم حدثته نفسه، وأعجب بنفسه يكون هذا العمل حسنة بالنسبة لهذا الإنسان إلا أنه يُعَدّ سيئة إذا ارتفع إلى درجة المقربين لما دخل فيه من الإعجاب بالنفس.

هذا ملخص كلامه في محاولته، وهي محاولة فاشلة كما ترون. والجواب عنها : إن كان لا بد من الجواب أن يقال الصدقة حسنة في حق كل واحد من الأبرار والمقربين، والعجب سيئة في حق كل واحد منهما، ولا إشكال في الموضوع وبالله التوفيق.

الحديث الثالث :

(أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي ؟ فسئل عنه فقال هو الرياء)[1]

---

(١) أخرج أحمد (٥/٤٢٨ — ٤٢٩) عن يونس ثنا الليث (هو الليث بن سعد) عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو وأخرجه عن ابراهيم بن أبي العباس وعبد الرحمن بن أبي الزناد كلاهما عن عمرو عن عاصم بن عمر الظفري عن محمود بن لبيد مرفوعا لفظ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء...

وقد عزاه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب إلى الطبراني وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد (تيسير العزيز الحميد ١١٨).

والحديث صحيح وقد صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٢/٤٥)

وأما قوله : « الشرك الخفي » فقد ورد في حديث أبي سعيد الخدري أخرجه أحمد (٣/٣٠) عن محمد بن عبد الله بن الزبير وأخرجه ابن ماجة عن عبد الله بن سعيد ثنا أبو خالد الأحمر كلاهما عن كثير ابن زيد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده أبي سعيد الخدري مرفوعا ولفظه : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قال : قلنا : بلى ! فقال : الشرك الخفي : أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل ».

وقال البوصري : إسناده حسن، وكثير بن زيد وربيح بن عبد الرحمن مختلف فيهما، (الزهد : باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٦)

وتبعه الألباني في تحسينه (صحيح الجامع الصغير ٢/٣٦٣) قلت : أي عند المتابعة ولم أجد من تابعه في قوله : « الشرك الخفي » مع ورود كلمة « الشرك الأصغر » بسند صحيح، ففي تحسينه نظر، والله أعلم.

ذكر صاحبنا أول هذا الحديث وسكت عن آخره، لأنه لا يتفق مع مراده وهكذا يفعل كل مغرض وصاحب هوى مع النصوص. ثم جعل يفسره على هواه بأن قال : (المراد بالشرك الخفي أن يرى الإنسان نفسه) وقد علمنا المعنى الصحيح للشرك الخفي من نفس الحديث مع أن لفظ الحديث (الشرك الأصغر) لا (الشرك الخفي) ولله الحمد والمنة.

الحديث الرابع :

(الظاهر والباطن) جاء ذكر هذين الإسمين العظيمين في الكتاب العزيز كما جاء ذكرهما في السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ وكثيرا ما يكرر صاحبنا هذين الإسمين، ظنا منه أنهما يدلان على أن للشريعة ظاهرا وباطنا، تقليداً لبعض الصوفية الذين لا يذكرون الحديث بتمامه بما فيه تفسير الرسول ﷺ، للاسمين الشريفين غيرهما من الأسماء الواردة في الحديث ونصه هكذا : (كان رسول لله ﷺ يقول إذا أوى إلى فراشه : اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، خالق كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، اقض عني الدين، واغنني من الفقر)[1]. فهل بعد هذا التفسير من تفسير ؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال. وكان (محمود) يجهل هذا التفسير النبوي، أو يتجاهل تجاهل مغرض، ويقول بدون رويه : (كل شيء له ظاهر وباطن، فالله له ظاهر وباطن. والشريعة لها ظاهر وباطن والإنسان له ظاهر وباطن). وقد دندن صاحبنا حول هذه المسألة كثيرا، ونوقش كثيرا، ونقدنا الأمثلة التي أوردها إلا أنه يجيد التهرب والتملص فلم يستفد من المناقشة والنقد والردود. نسأل الله لنا وله الهداية.

الحديث الخامس :

(تخلقـوا بأخلاق الله).

ذكرت لكم سابقا أن هذا الحديث لا أصل له في شيء من كتب السنة،

(١) مسلم : الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٠٨٤/٤) من حديث أبي هريرة.

ولا يعرف له إسناد، ومعناه غير صحيح بيان ذلك : المراد بالأخلاق الصفات قطعا فالله موصوف بالعظمة والكبرياء، وأنه يحي ويميت، وهل يجوز للعبد أن يتصف بهذه الصفات ؟

الجواب السليم : (لا) بالخط العريض، وقد يقول القائل هنا : أليس العبد يوصف بالعلم والقدرة والحياة والوجود وهذه من صفات الله تعالى ؟

الجواب أن يقال : إن علم الخالق تعالى غير علم المخلوق، وكذلك قدرته وحياته ووجوده.

وتوضيح ذلك في صفة العلم ــ مثلا ــ علم المخلوق علم مخلوق مثله، يناسب حاله كان مسبوقاً بجهل ويطرأ عليه النسيان، ما أكثر ما نعلم شيئاً، ثم ننساه، فهو ناقص غير محيط بكل شيء، أما الرب سبحانه فعلمه قديم قدم ذاته ــ غير مسبوق بجهل قط ــ ولا يطرأ عليه نسيان ــ ولا غفلة ــ وهو محيط بجميع المعلومات، وهكذا يقال في سائر صفاته التي فيها الاشتراك في اللفظ ــ كالكرم ــ والجود ــ والرحمة ــ والعفو ــ والمحبة ــ والغضب ــ ونحو ذلك ــ وهكذا تزول الشبهة ويظهر وجه الحق ــ واضحا ــ فلله وَحده الحمد والمنة.

الحديث السادس :

(خلق الله آدم على صورته)(١). هذا هو الحديث الأخير من الأحاديث

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٤٤، ٢٥١، ٤٣٤، ٤٦٣، ٥١٩) ومسلم : البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه (٤/٢٠١٦) من حديث أبي هريرة وسياق إحدى روايات أحمد : (إذا ضرب أحدكم، فليتجنب الوجه، ولا يقل : قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام على صورته)

وأخرجه أحمد (٢/٣١٥، ٣٢٣) والبخاري : الاستئذان، باب بدء السلام (٣٨١) ومسلم : الجنة، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٤ : ٢١٨٢) وابن خزيمة في التوحيد (٢٩) من حديث أبي هريرة وسياق مسلم : خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه، قال : اذهب، فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يجيبونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، قال : فذهب، فقال : السلام عليكم، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله، قال : فزادوه؛ ورحمة الله، قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن.

التي ساقها (محمود) ليلبس بها على الناس وهو لم يذكر الحديث بتمامه، وإنما اقتصر على القدر الذي كان يظن أنه من شواهده كعادته المعروفة. ولذلك فاته المعنى الصحيح للحديث، ومرجع الضمير في قوله : (على صورته)، وتمام الحديث ـــ بما فيه ذكر السبب ـــ كالآتي : مر رسول الله ﷺ برجل يضرب ابنه أو غلامه، في وجهه لطماً ويقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك. فقال رسول الله (إذا ضرب أحدكم غلامه فليتقي الوجه فإن الله خلق آدم على صورته).

ومعنى الحديث جد واضح، ومرجع الضمير ظاهر من ذكر سبب الحديث وتوضيح المعنى كالآتي : يقول ﷺ مؤدباً لأمته : إذا أراد أحدكم أن يضرب من يجوز له ضربه ـــ ضرب تأديب طبعاً ـــ كالغلام، والولد، والزوجة، فليتق الوجه ضربا احتراما بأبي البشر آدم لأن الله خلق وجه آدم مشبهاً لوجه هذا الإنسان المضروب، وهذا ما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه المقلوب إذا كان المفروض تشبيه وجه الفرع بوجه الأصل، ولكنه جعل وجه الفرع كالأصل تنفيراً من ضربه، وكان غرض صاحبنا من ذكر الحديث الاستدلال به على أن آدم فيه صفات من صفات الرب ظنا منه أن الضمير في قوله ﷺ على صورته ـــ راجع إلى الله ـــ وقد علمت عدم صحة هذا الفهم بمعرفتك المعنى الصحيح للحديث، فلله الحمد والمنة.

أيها الأخ المسلم ! لا يشككنك في دينك تلبيس الملبسين، وزعماء التجديد، وتلامذة الملحدين الذين يتبعون ما تشابه من النصوص ابتغاء الفتنة، وابتغاء التأويل والتحريف، على حسب أهوائهم، وإذا ابتليت بهذا النوع من الناس، وأراد أن يلبس عليك في باب صفات الرب جل وعلا، بمحاولة تشبيهها تشبيها بصفات المخلوق، أو بنفيها وتعطيلها، بدعوى التنزيه، فاستحضر قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾(١). ﴿ هل تعلم له سميا ﴾(٢). ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾(٣). وما في معناها من النصوص. ووجه هذه المدافع

(١) سورة الشورى (١١)
(٢) سورة مريم (٦٥)
(٣) الإخلاص (٤)

إلى قلوب أولئك الملبسين، فسرعان ما يصرعون، أو يقعون أسرى في يدك، فأحسن التصرف في الأسرى، وكن حكيما معهم، والله ولي التوفيق.

وإن ابتليت مرة أخرى بأولئك المساكين الذين يبالغون في حب الصالحين، وحاولوا أن يحملوك على عبادتهم مع الله ـــ أو من دون الله ـــ بدعوتهم، والاستغاثة بهم، والاستعانة بهم، وسؤالهم كشف الكربات، وشفاء المرضى، وطلب الشفاعة منهم، والتوسل بهم توسلا بدعيا، غير شرعي. وغير ذلك من يفعله بعض العوام اليوم، فبادر إلى النصوص الآتية، لتسد بها باب الشرك بالله، وباب الغلو في الصالحين، وأحسن التصرف فيها، وحاول ردهم إلى الحق، وعالجهم علاج طبيب ماهر ببيان ما هو حق لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه، وبيان حقوق الرسول ﷺ، وحقوق الصالحين، رحمهم الله تعالى، وهذه بعض النصوص : **﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ﴾**[1] **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾**[2] **﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت ﴾**[3] وقال رسول الله ﷺ : (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)[4] (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[5] وما في هذا المعنى من النصوص الصريحة الكثيرة. والله ولي التوفيق.

وإذا سلمت في البابين ـــ باب توحيد العبادة ـــ وباب توحيد الأسماء والصفات ـــ فقد سلمت، ولكن لا تقف عند هذا الحد فقط، بل كمل إيمانك

---

(١) سورة الجن (١٨)
(٢) سورة الكهف (١١٠)
(٣) سورة الأنعام (١٦٢)
(٤) الترمذي : صفة القيامة باب ٥٩ (٦٦٧/٤) من حديث ابن عباس وقال : حسن صحيح
(٥) احمد (٢٧٠/٦) والبخاري : الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٣١/٥) ومسلم : الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٣٤٣/٣) وابن ماجة : المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (٧/١) من حديث عائشة.

بالعمل الصالح بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، فابتعد عن البارات الخبيثة المنتشرة هنا وهناك، لا توسخ قلبك بالخمر فتهلك، ولا تقصد إلا بيتك الشرعي، ولا تبع هواك إلى تلك البيوت الوسخة، فتهلك، وقد نفى الرسول ﷺ الإيمان عن أولئك الذين يتجرءون على فاحشة الزنا وشرب المسكر والترفة والسرقة، ونهب أموال الناس حيث يقول ﷺ : (لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن)[1].

أخي المسلم ! أكثر الخطوات إلى المساجد، وحافظ على الصلوات مع الجماعة، وعلى حضور صلاة الجمعة دائما، يسلم لك دينك.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم، أن يجعلني وإياكم ممن يقول ويسمع فيعمل — كما أسأل الله تعالى أن لا يجعل ما قلناه وما سمعناه، حجة علينا إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد امان بن علي

---

(١) البخاري : الأشربة، باب ١ (٣٠/١٠) ومسلم : الإيمان، باب **بيان نقصان الإيمان بالمعاصي** (٧٦/١ — ٧٧)

المحاضرة الرابعة

العقل والنقل

عن ابن رشد

مقـــدمــــة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله وسلم، وبارك على عبده، ورسوله نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه وبعد :

طُلب من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حضور مهرجان ابن رشد لتمثيل المملكة العربية السعودية فطلبت إليّ الجامعة بدورها إعداد البحث للمهرجان وحضوره ممثلا لها.

فاستعنت بالله الذي من استعان به أُعين، فأعددت هذا البحث المتواضع تحت عنوان :

العقل والنقل عند ابن رشد

والله أسأل أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع بهذا البحث من شاء من عباده، ويجعله منيرا لسبيل الحق على تواضعه، إنه خير مسئول وأكرم معط.

وصلى الله وسلم، وبارك على خير رسله، وخاتم أنبيائه محمد، وآله، وصحبه.

١٣٩٧/٧/٢٥

محمد أمان بن علي
المدرس بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

تمهيـــــد

من هو ابن رشـــد :

قبل أن نتحدث عن موقف ابن رشد من العقل والنقل، يحسن بنا أن نقول شيئاً عن ابن رشد، عن حياته، وعن فلسفته، لكي نعرف الظروف التي نشأ فيها، حتى صار أحد أساطين الفلسفة، وما الذي عرضه لذلك الاضطهاد والعسف، والتشريد، والاتهام بالإلحاد والزندقة أحيانا.

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد في مدينة قرطبة سنة خمسمائة وعشرين من الهجرة الموافق عام ستة وعشرين ومائة بعد الألف ميلاديا،وترعرع في حب العلم وأهله في كنف والده الذي كان من كبار علماء قرطبة وقضاتها، وشغف في حداثة سنه بدراسة الطب، والشريعة، وتطلع إلى العلوم الماورائية، فظهر منه نبوغ عجيب، لفت إليه الأنظار، والعجيب من أمر هذا الفيلسوف الكبير أنه لا يدرى أين درس الفلسفة، والعلوم الماورائية، ومن أستاذه في هذه العلوم ؟

يرى بعض الناس أنه أخذها عن ابن باجة ـــ الفيلسوف المشهور ـــ إلا أن الواقع التاريخي يأبى ذلك، لأن وفاة ابن باجة كانت في سنة ١١٣٨ م وكان ابن رشد في هذا التاريخ في الثانية عشرة من عمره، فليس في الإمكان أن يدرس الفلسفة في هذا السن المبكر، بل كان يدرس مبادىء العلوم الشرعية في هذا التاريخ كالفقه وعلم الكلام على والده، ويرى البعض الآخر أنه تتلمذ على ابن طفيل، ولكن التاريخ يثبت أن ابن طفيل ما كان يعرف ابن رشد معرفة شخصية إلا في الوقت الذي ذاعت فيه شهرته، وطار صيته في الآفاق فيلسوفاً وطبيباً، هذا يستنتج من وصفه لحاله عندما دخل على السلطان يوسف بن يعقوب لأول مرة، وعنده ابن طفيل، يقول ابن رشد : لما دخلت على أمير المؤمنين ابن يعقوب، وجدته هو وأبا بكر بن

طفيل، فأخذ أبو بكر يثني عليّ، ويذكر بيتي، وسلفي، ويضم إلى ذلك بفضله أشياء لا يبلغها قدري، إلى آخر كلامه.

وهذا يدل على أن ابن طفيل إنما عرف ابن رشد من صيته الطويل، ولا يعرفه قبل ذلك، فضلا عن أن يتلمذ عليه.

هكذا يثبت بالواقع التاريخي أن ابن رشد لم يأخذ فلسفته عن ابن طفيل كما ثبت من قبل أنه لم يأخذها عن ابن باجة، فيبقى أستاذه في الفلسفة غير معروف، ولعله بعد دراسته لمبادىء العلوم الشرعية، وعلم الكلام عكف على دراسة كتب أرسطو، وتتلمذ عليه بواسطة كتبه، كما يظهر من تأثره البالغ بفلسفته، وعلى أي حال فهو فيلسوف كبير، يكتنفه الغموض، وتحيط به الاستفهامات من كل جانب، أهو فيلسوف متهور — كما يقول بعض الكتاب ؟ أو فيلسوف جامع بين الفلسفة والدين كما يظهر من بعض كتبه ؟ أهو أشعري في عقيدته ! أو واقفي ؟ أو مفوض ؟ أو هو...، أو هو... إلخ. والذي جعل ابن رشد يقع تحت هذه الاستفهامات، ويعيش هذا الغموض أنه كان كثير المداراة، ويحاول أن يعيش مع الجمهور بظاهرة، أما في حقيقته فهو في عالم آخر : عالم الخواص، الذي يزعم أنه يفهم من نصوص الشريعة فهما خاصا لا يفهمه الجمهور، ويعذر الجمهور في مفهومه الشخصي — على زعمه — ولا يبيح للعلماء أو الخواص، أن يقفوا عند مفهوم الجمهور، ولابن رشد اصطلاح خاص قد ينفرد به في هذا المعنى، وهو أنه يثبت فريقاً ليسوا من العلماء، وهم فوق الجمهور، وهم علماء الكلام من المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية، ومن يدور في فلكهم، يطلق عليهم جدليون، ويتبعون ما تشابه منَ النصوص ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

فابن رشد شخصية عربية، يحتار المرء في تحديده، فتراه فقيهاً واسع الإطلاع على أقوال الفقهاء، وكثيرا ما يحاول ترجيح قول على قول، أو تقديم رأي على رأي، فيقارع الحجج بالحجج، وقد تراه يتحدث عن مذهب السلف حديث مطلّع، ومقتنع، ويثني عليه خيراً لأنه لا يؤول النصوص، بل يبقيها على ظاهرها، على ما

يليق بالله، ثم تراه وقد انزلق مع الفلاسفة المتهورين ويدعو إلى تحكيم البراهين، ويعتبرها هي الأصل في باب الإلهيات مع الاكتراث بالأدلة النقلية، كما يقول بقدم العالم كما يبدو من بعض كتبه[1].

---

(١) مناهج الأدلة.

بين يدي البحث

قبل أن أشرع في البحث أحب أن أضع بين يدي القارىء النقاط التالية :

١ ــ مما يجب الاتفاق عليه بين المسلمين (وحدة المصدر في معرفة العقيدة الإسلامية). واعتماد ذلك المصدر في بحث أي معنى من معاني العقيدة الإسلامية، وعدم إغفاله، وبذلك تسلم عقيدة المسلم من الزيف والإلحاد والضلال.

٢ ــ لا يجوز تعطيل العقل في مجال العقيدة وغيرها، لأن العقل أساس التكليف، ومناط الأهلية، إلا أنه لا يجوز أن يتجاوز العقل حدوده، ويتجاهل وظيفته، ويجمع في مجال الخيال الفاسد، والأوهام الكاذبة، والخيال والوهم لا يصلحان أساساً للعقيدة، والمعرفة الصحيحة حتماً.

٣ ــ دعوتنا إلى وحدة المصدر للعقيدة الإسلامية حقيقة، دل عليها الشرع بالقواطع من الأدلة النقلية، والعقل السليم لا يعارضها، على القاعدة التي تقول : (العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح).

٤ ــ إذا كان العقل هو الذي دلنا على معرفة الله عز وجل، وعلى أن محمداً رسول الله حقاً، فأي معارضة تفرض بين العقل وبين ما جاء به الكتاب والسنة، أو ردّ خبر الله وخبر رسوله بحجة مخالفتهما للعقل، يعتبر كل ذلك مناقضة صريحة لما دل عليه العقل نفسه.

٥ ــ العقل نور جعله الله في قلبك، ليكشف لك الأشياء الموجودة، والحقائق الواقعة، ولتفهم به عن الله ورسوله، هذه وظيفة العقل؛ فلو أردت منه أن يريك كل ما تحبه وتتخيله من المعدومات فلا يجد إلى ذلك سبيلا، اللهم إلا إذا كان على سبيل الوهم والخيال، وسبق أن قلنا : إن الوهم والخيال لا يصلحان للمعرفة الصحيحة والعقيدة السليمة، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

تعريـــف العقــــل

يقال : عقل الشيء فهمه فهو معقول ـــ أي مفهوم، العقل نور روحاني تدرك به النفس الأمور الضرورية، والفطرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد في الرحم، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ[١].

ويقال للأدلة النظرية : الأدلة العقلية؛ لأنها تدرك بالعقل، حيث أن الإنسان يستعمل العقل في ترتيبه، وتكوينه وتنظيمه، وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه لئلا يقع فيما لا ينبغي من اعتقاد فاسد أو فعل قبيح، ومن ذلك (اعقلها وتوكل على الله) أي احبسها.

تعريف النقــل

يقال : نقل الشيء أي أخذه من مكان، ونقلة الحديث هم الذين يدونون الأحاديث وينقلونها ويسندونها إلى مصادرها.

ويقال لأدلة الكتاب والسنة : الأدلة النقلية، ويقال لها السمعية، ويقـــال لها : الخبرية، والأدلة المأثورة، وكلها بمعنى واحد، وهي الأدلة المسموعة المنقولة عن كتاب الله العزيز، والسنة المطهرة، أو الأدلة التي نقلها إلينا نقلة الحديث والرواة.

العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح

هذا العنوان يجب أن يكون المحور لبحثنا، وقاعدة ننطلق منها في دراستنا لآراء أبي الوليد في الإلهيات ومناقشتها، لنتبين مذهبه على حقيقته إن استطعنا إلى ذلك سبيلا، وهو أمر عسير غير يسير.

وذلك لأن العقل هو الذي دلّنا على وجود الخالق، وصحة رسالة رسوله الذي أيده ـــ بالمعجزات، تلك المعجزات التي تدل على صدق نبوة الأنبياء

---

(١) القاموس المحيط. مادة (عقل)

باستعمال الفكر والنظر، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح » وله كتاب خاص بهذا المعنى تحت عنوان : « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول »، وقد يسايرنا أبو الوليد في هذا الخط فترة من الزمن غير طويل إلا أنه لا يستطيع أن يواصل سيره معنا بل سرعان ما يتركنا في وسط الطريق، ليعود إلى غموضه متناقضا معه، ومطلقا على ما نحن عليه : (مذهب الجمهور) أو (مذهب العوام). والواقع أن ابن رشد يساير أيضاً علماء الكلام بل يوافقهم في الحقيقة، ويتظاهر بمخالفتهم في الظاهر، أو في طريق التطبيق. فتجده يعتب على علماء الكلام في تأويلهم لنصوص الكتاب والسنة، ويعلن أمام الرأي العام أن تأويلهم هو الذي غيّر الشريعة، وبدّل معالمها، وأفسد على الناس مفهومها، وإذا قلبت النظر في أمره فتجد أن عتابه لا ينصب على التأويل من حيث هو تأويل، ولكنه ينصب على التصريح به للجمهور، فهو يبيح من التأويل للعلماء ما يبيح للجمهور شريطة ألا يصرح العلماء للجمهور بذلك التأويل لأنهم (حرفيون) على حد تعبيره.

هكذا عاش ابن رشد غير واضح في عقيدته وفلسفته ويسمى هذا الموقف : التوفيق بين الفلسفة والشريعة، بين الحكمة والدين، وكان مقتنعاً بصحة هذا المذهب، ولذا نراه يعتب على الإمام الغزالي، وينقم منه تصريحه أمام الجمهور ما لا ينبغي أن يصرح به إلا أمام الخواص !!!

فلسفة ابن رشــد

مما لا يختلف فيه اثنان أن ابن رشد فيلسوف كبير وخطير، وباطني غامض، ومن الصعوبة بمكان أن يحدد المرء معالم فلسفته ومذهبه، كما قلت آنفاً حيث اختار لنفسه الغموض في حياته، ولا أقول : إن ابن رشد لا يملك الجرأة الكافية التي تمكنه من الإعلان عما يتفاعل في نفسه من آراء عرفانية، ولكن أقول : أن ابن رشد لم يستخدم أو لم يرد أن يستخدم جرأته في الإعلان عن مذهبه، والثبات عليه بشكل واضح، ودائم، بل قد اضطر أحياناً إلى مسايرة الناس في خلاف ما يعتقد،

وخصوصاً بعد أن نكب علي يد السلطان المنصور ابن أبي يعقوب، سلطان الموحدين، وأحرقت كتبه في الفلسفة، ورمى بالإلحاد، ومما يروى في سبب تلك النكبة أنه أنكر بحضرة والي قرطبة وجود قوم عاد الذين ورد ذكرهم في الكتاب العزيز، هكذا الرواية ـــ والعهدة على الراوي ـــ وعلى الرغم مما قيل؛ فإن الدارس لآراء ابن رشد يشهد له بالعمق، وأنه من أوسع الفلاسفة الإسلاميين في العلوم الماورائية، وله محاولة في ربط الفلسفة بالشريعة في حدود تصوره للشريعة.

وقد قام ابن رشد بشرح عدة كتب من كتب الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم، وانتقد بعض أولئك الفلاسفة، وفند آراءهم، ونظر في علم الكلام، فوقف عنده كثيراً، ولم يستسغ آراءهم وتأويلاتهم، فأخذ ينتقد تأويل الأشاعرة، والمعتزلة، والماتريدية، وحكم عليهم كلهم بأنهم خصمون، يجادلون بالباطل، حتى تخضع النصوص لآرائهم وعقلياتهم، فرأى أنه لا بد له أن يشق له طريقا وحده، ويطلق العنان لجواد فلسفته، لينطق كما يريد إلا أن جواده لم يسلم من كبوة ـــ لكل جواد كبوة ـــ ومن كبوة جواده وهفوة ذهنه أنه يرى :

إذا وجدت بعض الآيات في الكتاب العزيز تضاد الفلسفة يجب تفسيرها تفسيرا شعبياً باعتبار أن لكل آية معنيين : حرفي شعبي وروحي خاص، فالحرفي للشعب، والروحي للفلاسفة ـــ بل يقول ما هو أدهى من هذا وأمرّ، إذ يقول : كما أن الأنبياء يتقبلون الوحي فيبلغونه للشعب، وكذلك الفلاسفة، وهم أنبياء الطبقة العالمة.

لذلك يجب أن يوفق بين الدين والعلم، وعلى العلماء أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة، وأن يعملوا من الشريعة بما يوافق الحكمة حتى يكون عملهم في كل شيء موافق للحكمة، ومن أقواله المشهورة : (الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له).

هذه ـــ كما ترى ـــ كبوة خطيرة، بل انزلاقة قاتلة. وقوله : (منكرة في الإسلام، لا أعلم أنه سبق إليها، هي سخرية ساخرة من مقام النبوة. والنبوة منزلة

خاصة لا تنبغي إلا لأولئك المصطفين المختارين الذين اختارهم الله، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ الرسالة إليهم، ونصحهم، وهدايتهم، أولهم آدم وآخرهم خاتم النبيين محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي، وقد صرح الكتاب العزيز أنه خاتم النبيين، حيث يقول الرب تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾[1].

وادعاء النبوة لأحد بعده مصادمة لهذه الآية والأحاديث الصحيحة التي جاءت في هذا المعنى كقوله عليه الصلاة والسلام : (أنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي)[2] وابن رشد قد قال قولا شططا بادعاء النبوة للفلاسفة، بل إنه يجعلهم نخبة ممتازة من الأنبياء، ومرسلة إلى نخبة ممتازة من الناس — إذ يقول (وكذلك الفلاسفة، وهم أنبياء الطبقة العالمة). ولست أدري ما مفهوم النبوة عنده ابن رشد ؟ حتى تبيح له فلسفته مثل هذا الادعاء علماً بأن من الفلاسفة الذين يشملهم ادعاؤه فلاسفة اليونان من غير المسلمين مثل أستاذه أفلاطون ومثل أرسطو فهل تبيح فلسفة ابن رشد أن يكون أمثال هؤلاء من قدماء الفلاسفة وحدثائهم من المسلمين وغير المسلمين من أنبياء الله تعالى ؟!! والله المستعان.

نعود إلى قول ابن رشد (الحق لا يضاده الحق بل يوافقه ويشهد له) وهو حق بقطع النظر عما أراد به أبو الوليد، وسبق أن نقلنا عن بعض المحققين قوله : (العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح)، وعندما يحصل الاختلاف بين العقل والنقل لا بد من أحد أمرين :

أحدهما : أن النقل غير صحيح في نفسه، أو أسيء فهمه، وفسر تفسيراً غير صحيح.

ثانيهما : المعقول الذي ادعى أن النقل يخالفه غير صريح وغير سليم، بل إنه

---

(١) سورة الأحزاب (٤٠)

(٢) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول — لابن تيمية.

أصيب بأدران الشبهة أو الهوى الذي غيّر حتى فقد العقل سلامته. بل هو إما مريض أو ملوث ولا محالة، ولو كان العقل يتمتع بعافيته وسلامته، والنقل يتمتع بصحته وقوته فلا يكادان يختلفان.

وهذه قاعدة عظيمة ونافعة بإذن الله، ومقبولة لدى العقلاء المنصفين، بل لا يكاد يتردد فيها كل من له نظر في العقليات، وله اطلاع على النقليات، ورزق التجرد عن التعصب والهوى والتحيز.

وقد أشار أبو الوليد ابن رشد إلى هذه القاعدة في كتابه (مناهج الأدلة) في غير ما موضع في أثناء مناقشته لبعض علماء الكلام في تأويلهم البعيد عن روح الإسلام، وفي رد شبههم التي عرضوها على الشريعة ليعارضوها بها، ومما قاله أبو الوليد في هذا الصدد قوله :

(وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهرة، وقالوا : إن التأويل ليس هو المقصود به، وإنما أتى الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده، واختباراً لهم ثم قال أبو الوليد : نعوذ بالله من هذا الظن بالله، بل نقول : (إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان) إلى أن قال : ما أبعد عن مقصد الشرع من قال : فيما ليس بمتشابه أنه متشابه. ثم إنه أول ذلك المتشابه بزعمه، وقال لجميع الناس : إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش، وغيرذلك مما قالوا : إن ظاهره متشابه) يشير أبو الوليد إلى بعض آيات الصفات التي حرفها كثير من علماء الكلام، وتبعهم كثير من الناس في تحريفهم باسم التأول كآية مجيء الرب يوم القيامة ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾[1]، وبصفة المحبة ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾[2]، وصفة الرحمة التي دل عليها قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) سورة الفجر (٢٢)

(٢) سورة المائدة (٥٤)

(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[1] وصفة الرضا المأخوذة من قوله تعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[2] وغير ما ذكر من نصوص الصفات التي جاءت في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، التي سلط عليها أهل الكلام، وكثير من الفلاسفة صنوف التأويل البعيدة عن مراد المتكلم بها، والتي أبعدت كثيراً من الناس عن المفهوم الصحيح لنصوص الصفات، ويضرب أبو الوليد مثالا رائعاً لهذا الصنف من الناس فيقول :

ومثال من أوّل شيئا من الشرع، وَزعم أن ما أوّله هو ما قصده الشرع، وصرح بذلك التأويل للجمهور ــ مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة الناس أو الأكثر، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء المركب الأعظم لرداءة مزاج، كان به ليس يعرض إلا للأقل من الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمه الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة المركب لم يرد به ذلك الدواء الذي جرت العادة في اللسان أن يدل بذلك الاسم عليه، وإنما أريد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك الاسم باستعارة بعضه، فأزال ذلك الدواء الأول عن ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه الذي قصده الطبيب، وقال للناس : هذا هو الذي قصده الطبيب الأول، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت به أمزجة كثير من الناس، فجاء آخرون شعروا بإفساد أمزجة الناس عن ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه، بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول، فعرض للناس من ذلك نوع من المرض غير النوع الأول، فجاء ثالث فتأول من أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين

---

(١) الحديث صحيح لغيره من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه الحميدي في مسنده (٢/١٦٠) وأبو داود : الأدب، باب في الرحمة (٥/٢٣١) والترمذي البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (٤/٣٢٣ ــ ٣٢٤) وقال الترمذي : حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي (٤/١٥٩) وتبعهم الألباني (سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩٢٥ (٢/٦٣١) وقد فصلت القول في تخريجه والكلام عليه في تحقيقي لكتاب الزهد لوكيع بن الجراح (رقم ٤٠٢ من ٨٥٣ ــ ٨٥٧) فليراجع للتفصيل)

(٢) سورة المجادلة (٢٢) وسورة البينة (٨)

المتقدمين فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة، فلما طال الزمان بهذا المركب الأعظم، وسلط الناس التأويل على أدويته وغيرها، وبدلوها، عرض للناس منه أمراض شتى، حتى فسدت المنفعة المقصودة بهذا الدواء المركب في حق أكثر الناس، وهذه هي حال الفرق الحادثة في هذه الطريقة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت في الشريعة تأويلا غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت إنه الذي قصده صاحب الشريعة حتى تمزق الشرع كل ممزق، وبعد جداً عن موضعه الأول.

ولما علم صاحب الشرع ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أن مثل هذا يعرض، ولا بد في شريعته قال : (ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)[1] يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ولم تأوله تأويلا صرحت به

(١) روى الحديث بالفاظ عديدة ومن غير وجه وقد ذكر الألباني سبع طرق من حديث أنس وفيها تفسير الواحدة : ما أنا عليه وأصحابي

وفي طريق منه وردت كلمة (وهي الجماعة) أخرجه ابن ماجة : الفتن، باب افتراق الأمم (١٣٢٢/٢) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (١٤) وقال البوصري : إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقال الألباني : وفي تصحيحه نظر عندي وأنه لا بأس به في الشواهد (سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢٠٤) وورد من حديث معاوية أخرجه الدارمي وأحمد (١٠٢/٤) وأبو داود والحاكم (١٢٨/١) والأجري في الشريعة (١٨) وابن بطة في الأبانة (١٠٨/٢/ ب، ١١٩/أ) واللالكائي في شرح السنة (٢٣/١/أ) وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبي هريرة في الباب : هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، وأقره الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف وإسناده حسن (ص ٦٣)

والحديث أورده أبي كثير في تفسيره (٣٩٠/١) من رواية أحمد وقال : وقد ورد هذا الحديث من طرق، وقال شيخ الإسلام في المسائل (٨٣/٢ مخطوط في الظاهرية فقه حنبلي ٣) : هو حديث صحيح مشهور. وصححه أيضا الشاطبي في الاعتصام (٣٨/٣) وابن الوزير في الروض الباسم في الدفاع عن سنة أبي القاسم.

ومن طرق الحديث التي أشار إليها ابن كثير، وفيها الزيادة، ما ذكره الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١٩٩/٣) قال : رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو، وحسنه، وأبو داود من حديث معاوية وابن ماجة من حديث أنس، وعوف بن مالك، وأسانيدها جياد وقد ساق الجوزقاني في كتابه الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير بعض طرق حديث أنس المشار إليها، وقال في آخره : وقد روى هذا الحديث عن سعد بن أبي وقاص، وعلي بن أبي طالب وأبي الدرداء وعوف بن مالك، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو وجابر بن عبد الله وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان وأبي أمامة ووائل بن الأسقع، وعمرو بن عوف المزني كلهم عن النبي ﷺ، وقالوا فيه : (واحدة في الجنة وهي الجماعة) (باب حدوث الأختلاف ق ٦٨/أ)

وقد أطلت النفس في جمع طرق الحديث وتخريجه ونقل كلام أهل العلم فيه في التعليق عليه في كتاب الأباطيل فليراجع إليه. ويراجع أيضا للتفصيل : مجمع الزوائد (٢٥٧/٧ ـــ ٢٥٨) وكشف الخفاء (١٥٠/١) وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني حديث رقم ٢٠٣ و ٢٠٤)

للناس، وإذا تأملت ما في هذه الشريعة، في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبينت أن هذا المثال صحيح، وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج، ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعرية، ثم الصوفية.

إلى آخر كلامه في هذا المعنى، حقاً إنه لمثال صحيح وسليم لو سلم من شيء واحد، وهو ما جاء في تفسير أبي الوليد للحديث الذي استشهد به، إذ يقول : وهو يصف الفرقة التي تنجو من النار وتفوز بدخول الجنة وحدها (يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ولم تأوله تأويلا صرحت به للناس) يفهم من هذا التفسير الغريب أو التأويل المذموم — في نظر ابن رشد — هو التأويل الذي يصرح به للجمهور فقط، وأما لو أول العلماء نصوص الكتاب والسنة في دائرتهم الخاصة، وخرجوا بها عن ظاهرها، واعتقدوا صحة ذلك التأويل مع مخالفته لظاهر الشرع ومصادمته له فلا حرج عليهم، ولا يخرجهم عن عموم الفرقة الناجية، إنها لفلسفة جريئة، وابن رشد — كما علمنا — يثبت للشرع مفهومين اثنين، وكلاهما صحيح في بابه، مفهوم يخص العلماء[1] وهو الذي يتم بتأويل نصوص الشرع ليوافق الحكمة مع عدم التصريح به للجمهور وهم عامة الناس غير العلماء بل هو مفهوم خاص بالخاصة ولا يجوز لهم البقاء مع ظاهر الشرع حين يخالف ظاهر الشرع الحكمة، في زعمهم ويسمى ذلك عندهم التوفيق بين الشريعة والحكمة.

المفهوم الثاني : مفهوم يخص الجمهور، وهم عوام الناس غير العلماء كما تقدم، وواجبهم التمسك بظاهر الشرع قبل أن يحيدوا عنه، ولا يجوز لهم التأويل بل لا يخبرون عنه، هذه هي فلسفة — ابن رشد في هذه المسألة، وقد وقع فيما هو أقبح مما عابه على أهل الكلام حيث زعم أن للشريعة الإسلامية معنيين، معنى جمهوري أو شعبي، ومعنى فلسفي خاص بالحكماء، وادعى أن كلا المعنيين صحيح، ومراد للشارع ؛ وسبق أن صرح — فيما نقلنا عنه — أن مثل هذا الادعاء تغيير

---

(١) العلماء في اصطلاح ابن رشد : الحكماء أي الفلاسفة.

للشريعة، وإفساد على الناس ويعد ابن رشد علماء الشريعة من العوام أو الجمهور، ولا يطلق لقب العلماء إلا على الفلاسفة الذين يسمونهم حكماء أحياناً.

ولست أدري كيف غاب عن هذا الفيلسوف الكبير أن الحق لا يتعدد، بل هو واحد بلا نزاع، فماذا بعد الحق إلى الضلال.

يذكرني موقف ابن رشد هذا قول الشاعر العربي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

بل ما فعله ابن رشد أقبح مما فعله علماء الكلام في هذا المقام بالذات. قبل أن نضيف سخريته من علماء الشريعة والاستخفاف بهم حيث يعدهم من العوام !!

* * *

وجود الله عند ابن رشد

لم أعثر فيما قرأت لابن رشد على رأي صريح ينكر فيه وجود الله الخالق المصور المبدع، بل على العكس من ذلك نراه يرسم معالم الطريق لمعرفة الله تعالى، ويقيم الأدلة العقلية على وجود الله، وينبه على الآيات الكونية الآفاقية والنفسية، بصورة واضحة، ولكنه ــ كما قسم الناس في مفهوم الشريعة، كما رأينا آنفاً ــ يقسمهم مرة أخرى في مجال الاستدلال بالآيات الكونية على وجود الله فيقول : (إن الأدلة على وجود الله الصانع) تنحصر في هذين الجنسين :

١ ــ دلالة العنايــــة.

٢ ــ دلالة الاختــــراع.

يقوم دليل العناية على أن يفكر الإنسان جيداً، وينظر فيما يحيط به من حماية، وعناية ربانية، ونعم لا تعد ولا تحصى، وقد خلق الله من أجله أكثر الموجودات، بل جميع ما في السموات وما في الأرض، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه ﴾[1].

---

(١) سورة الجاثية (١٣)

ويقوم دليل الاختراع على النظر الدقيق في الموجودات والمصنوعات التي تدل لا على وجود الخالق فحسب، بل على قدرته، وعظمته، ووحدانيته، كأثر يدل على المؤثر، وصفة تدل على الصانع الحكيم، ويرى أبو الوليد أن لكل دلالة من الدلالتين جماعة من الناس تفهمها، وتختص بفهمها وإدراكها، ويجعل دلالة العناية طريقة الجمهور لأنها حسية، كما يجعل دلالة الاختراع خاصة بالعلماء والخواص، لأنهم يزيدون على ما يدركه الحس، ما يدركونه بالبرهان الذي يتم بالنظر، واستعمال الفكر والنظر، ويرى أنه لا يجوز للعلماء أن يقفوا عند دلالة العناية مع الجمهور، بل عليهم أن يستعملوا الفكر، وينظروا في ملكوت السموات والأرض. وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[1]. ليستدلوا على وجود الله وقدرته، وحكمته بالنظر في أسرار هذه المخلوقات، إذ كان ذلك في استطاعتهم دون الجمهور ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[2] ولنستمع الآن إلى أبي الوليد، وهو يتقدم إلى الجمهور بإرشاده كي يعرفوا الاستدلال على وجود الله تعالى : فيقول :

الطريق التي نبه بها الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل بأنها تنحصر في جنسين :

١ ــ في العناية بالإنسان، وخلق جميع الأشياء من أجله، ولنسم هذا (دليل العناية).

٢ ــ ثم ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل في الإنسان، وبقية المخلوقات الأخرى، ولنسم هذا (دليل الاختراع).

ويرى ابن رشد أن هذين الدليلين هما دليل الشرع، ثم يقول أبو الوليد : إن جميع الموجودات في هذا الكون مناسبة، ومفيدة لوجود الإنسان، كوجود الشمس،

(١) سورة الغاشية (١٧ ــ ٢٠)

(٢) سورة البقرة (٢٨٦)

والقمر، والنبات، والحيوان، والأمطار، والبحار، والهواء، والنار، بل في أعضاء الإنسان ذاتها دليل على أن موجد هذا العالم قدير، حكيم، عليم، لطيف بعباده، ثم يواصل تحليله البديع فيقول لما كانت جميع هذه الموجودات مخترعة من العدم، محدثة بعد أن لم تكن، دلّ ذلك على أنه لا بد من وجود مبدع صانع لهذا الكون، قادر على الاختراع لاستحالة تحولها من العدم إلى الوجود بنفسها، وذلك المبدع الخالق هو الله لا إله إلا هو ولا رب سواه.

الوحدانية عند ابن رشـــد

تبينا فيما سبق أن ابن رشد لايثار الغبار حوله في باب إثبات وجود الله تعالى لا أقول : إنه على يقين تام من وجود الله فحسب، بل هو على استعداد تام لاقناع غيره ممن يخالطه شك، أو ليس على يقين من وجود الله تعالى بأدلة عقلية، وآيات كونية بأسلوبه القوي الممتاز كما رأينا فيما سبق من الأبواب فلنستمع إليه، وهو يسوق الأدلة النقلية والعقلية، ويحلل المسألة كعادته إذ يثبت بأنه تعالى واحد، فرد، صمد اعتماداً على الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد. ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[1]، ويقول أبو الوليد : إن من نظر في كلمة « لا إله إلا الله » ، وصدق المعنيين الواردين فيها، وهما الإقرار بوجود الباري، ونفي الإلهية عما سواه، فهو المسلم الحقيقي، ويثبت ابن رشد من ناحية إدراكه الفلسفي، بأن الله هو الصانع الخالق الأول صنع كل ما في العالم لحكمة على نظام، وترتيب، وقانون، صدرت عنه جميع الموجودات المتغايرة صدوراً أولياً أزلياً، ودفعة واحدة، ويرى ابن رشد أن الفاعل الأول واحد، والوحدانية ذاتية فيه، إذ لا يمكن أن تكون الوحدانية زائدة على ذاته التي هي في الوقت نفسه وجوده.

وهذا يعني أن الصفات قائمة بذات الله، ومتحدة معها، وليست زائدة عليها، وسيأتي لهذه المسألة مزيد إيضاح إن شاء الله، ـــ ماذا يريد أبو الوليد بهذه

(١) سورة الإخلاص.

(الرطانة الفلسفية)، بعد أن أثبت وجود الله، ووحدانيته اعتماداً على الآيات القرآنية، وبعد أن وفق في تفسير كلمة التوحيد تفسيراً سلفياً أثبت فيه الربوبية والألوهية معاً بطريقة رائعة ودقيقة، وصرح بأن المسلم الحقيقي ذلك الذي يقر بواحدانية الله في ربوبيته وألوهيته، بعد هذا كله أبت عليه فلسفته إلا أن يستعمل أسلوبا مغلقاً ملتويا ينبيء بأن الفيلسوف قد اختلط عليه الأمر، ولعل هذا التخبط أثر من آثار فلسفة أرسطو، وزملائه الذين تتلمذ على كتبهم وتأثر بهم، وهم يعتقدون بقدم العالم وأزليته، ويثبتون تأثيراً لغير الله في هذا العالم في الأفلاك وغيرها على سبيل الاستقلال، ويشبهون الله عز وجل بملك في مدينة ما، يعطي الاستقلال في التصرف في المدينة لمن تحته لحاجته إليه في التعاون معه، سبحان الله من الشريك والوزير والمساعد !! بل هو الواحد الأحد سبحانه، وهؤلاء الفلاسفة الذين تأثر ابن رشد بفلسفتهم، يعتقدون بأن الله إنما خلق العقل الأول فقط، والعقل الأول خلق العقل الثاني، وهكذا إلى آخر كلام ركيك ومليء بالإلحاد، والقول على الله بغير علم، وليس فيه مسكة من تقدير الله حق قدره، سبحانك ما أحلمك يا رب العالمين !!

وقد تورط ابن رشد في هذا الاعتقاد في هذه المسألة كما ترى وكما سيتضح فيما سيأتي من كلامه. ثم أخذ ابن رشد يخوض في مسألة طالما خاض فيها علماء الكلام، وهي هل الصفات زائدة على الذات أم هي عين الذات ؟ إذ يقرر أن ذات الله، ووجوده، ووحدانيته، كلمات يختلف معناها، ولكن دلالتها فيما يتعلق بالله واحدة، فالله قديم لأن الواحد بما هو واحد سابق على كل مركب، وهذا الأول القديم بذاته باق مطلقا، وصفات الله من الحكمة والقدرة والوحدانية وغيرها ليست زائدة على الذات.

وتحقيق هذا المقام يتطلب نوعاً من التفصيل حتى يتضح الحق بإذن الله.

فنقول : يمكن أن يقال : الصفة عين الذات ويصح هذا الحكم ـــ بمعنى أن الصفات لا تنفك عن الذات إذ لا نستطيع أن نتصور علما بغير عالم، وقدرة قائمة وحدها بغير قادر، أو إرادة قائمة بنفسها دون مريد، وهكذا، وبهذا الاعتبار نقول الصفات عين الذات.

كما أنه من الممكن أن نقول : الصفة غير الذات فيصح الحكم أيضاً باعتبار آخر وهو أن للصفة معنى وللذات معنى مغاير لمعنى الصفة بهذا الاعتبار، أن الصفة غير الذات قطعاً، وما قيل في هذه المسألة يقال في مسألة هل الاسم عين المسمى أم غير المسمى، وعلى هذا المعنى يخرج كلام أبي الوليد إذ يقول أن صفات الله ليست زائدة على الذات، والله أعلم.

ومثل هذا البحث يعده أبو الوليد إذا صدر من غيره بدعة محدثة، غير معروفة عند السلف، إذ لا يكادون يزيدون على ما دل عليه الكتاب والسنة، بل يؤمنون بأن الله موصوف بصفات الكمال كالعلم، والقدرة، والرحمة، والاستواء وغير ذلك من الصفات ذاتية أو فعلية، ولا يسألون هل هي عين الذات أو غير الذات.

وهي الطريقة السليمة، وتدل على عمق علم السلف، ودقتهم، وبعدهم عن التكلف، والقول على الله بغير علم، والمعروف عنهم أنهم لا يتجاوزون الكتاب العزيز والسنة المطهرة في المطالب الإلهية خشية القول على الله بغيرها، والخوض في حقائق ذاته، وصفاته، وأسمائه، وتسليط الوهم والخيال عليها، فأمر جد خطير، إذ لا يصف الله أعلم من الله، ولا يصفه من خلقه أعلم من رسوله عليه الصلاة والسلام الذي أذن له أن يصفه، وأمره أن يبلغ عنه ما نزل عليه، ومن جملة ما نزل عليه صفات الله عز وجل، ومن بعدهم عن التكلف أنهم لا يتطلعون إلى إدراك حقائق الصفات والأسماء إيماناً منهم بأن المخلوق لا يحيط بالخالق علماً مهما أوتي من علم، وذكاء، لأن علم المخلوق محدود ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[1] ولا يقاس بغيره بأي نوع من أنواع القياس، إذ ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[2]، ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾[3]، ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[4]، والملاحظ أن ابن رشد قد يتسامح مع نفسه مالا يتسامح مع غيره كما رأينا فيما سبق، فيطلق لنفسه

---

(١) سورة الاسراء (٨٥)
(٢) سورة الشورى (١١)
(٣) سورة مريم (٦٥)
(٤) سورة الإخلاص

حرية الخوض والتأويل، بينما هو يعيب كل ذلك لو صدر من غيره، ويعده بدعة محدثة.

ومن الإنصاف ـــ والإنصاف من الإيمان ـــ أن يعد هذا التصرف بدعة في حق كل أحد حتى في حق أبي الوليد، وعلى العموم يلاحظ الدارس لكتب ابن رشد أنه يورد من الأدلة العقلية والنقلية في حواره ونقاشه في الإلهيات ما يدل على إطلاعه الواسع، ومقدرته الرائعة وذكائه الخارق.

(العلم عند ابن رشـــد)

يقول أبو الوليد في بعض كتبه : أما الأوصاف التي صرح بها الكتاب العزيز التي يوصف الصانع الموجد للعالم بها، فهي أوصاف الكمال الموجودة للإنسان، إلى أن قال : أما العلم فقد نبه الكتاب العزيز على وجه الدلالة عليه في قوله تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[1] وهي أن المصنوع يدل ـــ من جهة الترتيب الذي في أجزائه، ومن جهة كونها صنع بعضها من أجل بعض آخر، ومن جهة موافقة جميعها للمنفعة المقصودة بذلك المصنوع أنه لم يحدث عن صانع هو (طبيعة) كما لم يحدث (صدفة) وإنما حدث عن صانع رتب ما قبل الغاية قبل الغاية فوجب أن يكون عالماً به، مثال ذلك :

إن الإنسان إذا نظر إلى البيت فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط، وأن الحائط إنما أقيم من أجل السقف، يتيقن أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء.

يقول أبو الوليد : أن من نظر في أجزاء الموجودات وفي ترتيبها، وتنظيمها وارتباط أجزائها، وحاجة بعض أجزائها إلى البعض الآخر، يدرك تماماً أن هذا المصنوع إنما صنعه صانع عليم حكيم، هذا الدليل الذي ساقه ابن رشد، والمثال

(١) سورة الملك (١٤)

الذي ذكره، والأسلوب الذي استعمله يقطع بمجموع ذلك دابر ذلك الزعم بأن العالم وجد (صدفة) أو أوجدته (الطبيعة) إذ يأبى العقل الصريح، والفطرة السليمة صدور هذا المصنوع العجيب عن طبيعة، ليست هي أكثر من الشيء نفسه، أو صفة من صفات الشيء ؛ والشيء لا يوجد نفسه. وأما صفة الشيء فهي تابعة للشيء، لأنها عرض قائم للشيء، كما هو معروف لدى العقلاء، ثم يواصل ابن رشد حديثه في صفة العلم فيقول :

وهذه الصفة هي صفة قديمة، إذا كان لا يجوز عليه سبحانه ألا يتصف بها وقتا ما، ولكن لا ينبغي أن يتعمق في هذا، فيقال ما يقوله المتكلمون، ثم أخذ أبو الوليد يناقش أهل الكلام في بدعتهم التي أحدثوها في هذه الصفة كعاتهم : وهي قولهم : (هل الله يعلم المحدث في وقت حدوثه بعلم قديم، أو بعلم حديث) ؟!! إلى آخر خوضهم الذي يدل على عدم تقديرهم الخالق حق قدره، فيقول أبو الوليد في تعليقه على هذا الخوض : وهذا شيء لم يصرح به الشرع، بل المصرح به خلافه ـــ وهو أنه تعالى يعلم المحدثـات حين حدوثها كما قال تعالى ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾[1].

هكذا يقرر أبو الوليد شمول علم الله، وأنه يعلم الأشياء قبل أن تكون على أنها ستكون، وكيف تكون، وإذا كانت على أنها كانت، وهو بكل شيء عليم، كيف لا ؟ وهو الخالق البارىء المصور، وهذا مفهوم علم الله عند المسلمين سلفاً وخلفاً، بعيداً عن تكلف المتكلفين، وتشبيه المشبهين، وتنطع أهل الكلام الذي يهرفون مالا يعرفون، وقد ابتليت الأمة الإسلامية بهذه الطائفة أيما بلاء ـــ والله المستعان.

محاولة ابن رشد الحل الوسط في قضية قدم العالم

ناقش ابن رشد الخلاف القائم بين القائلين بأن العالم مخلوق محدث بعد أن لم يكن، وبين الفلاسفة القائلين بأن العالم قديم أزلي مع الاعتراف بأنه مخلوق، فيقول

---

(١) سورة الانعام (٥٩)

ابن رشد إن الخلاف في هذه المسألة يعود إلى اللفظ، أي خلاف لفظي غير جوهري، لأن في الوجود طرفين وواسطة ؛ ولقد اتفق الجميع على الطرفين وهما :

أولا ــ هناك واحد بالعدد قديم ــ الأول الذي ليس قبله شيء.

ثانياً ــ هناك على الطرف الآخر كائنات مكثرة، وهي عند الجميع محدثة، ولكنهم اختلفوا في هذا العالم بجملته، أقديم هو أم محدث ؟ فيواصل الفيلسوف مناقشته قائلا : إن العالم في الحقيقة ليس محدثاً حقيقيا، ولا قديماً حقيقياً، لأن القول : إنه محدث حقيقي فاسد ضرورة لأن العالم ليس من طبيعته أن يفنى، أي لا تنعدم مادته، والقديم الحقيقي ليس له علة والعالم له علة.

إذاً العالم محدث إذا نظرنا إليه من أنه معلول من الله، والعالم قديم إذا اعتبرنا أنه وجد عن الله منذ الأزل من غير تراخ في الزمن، الخلاصة أن العالم بالإضافة إلى الله محدث وبالإضافة إلى أعيان الموجودات قديم.

هكذا ينهي الفيلسوف ابن رشد مناقشته لهذه القضية العويصة حقاً. وقد اضطرب فيها كثير من حذاق الفلاسفة وأساطين أهل الكلام، والخوض في مثل هذه المسألة يعد من فضول الكلام، كما قال غير واحد من المحققين المعتدلين، ويكفي المرء أن يقول جملتين اثنتين مع الفهم والفقه وهما :

١ ــ الله خالق كل شيء وهو المبدىء المعيد.

٢ ــ ما سوى الله مخلوق محدث بعد أن لم يكن ــ وكفى.

وشبهة ابن رشد في تردده في هذه المسألة في أمرين اثنين ــ هما :

١ ــ إن الله لم يزل فعالا وخلاقاً.

٢ ــ إن مادة العالم باقية ولا تفنى.

الجواب عن الشبهة الأولى أن يقال : إن الله تعالى له معنى الربوبية قبل أن يخلق المربوب، وله معنى الخالق قبل أن يخلق، وهو الرازق قبل أن يخلق الرزق

والمرزوق، أي هو موصوف بجميع صفات الكمال أزلا وأبداً، ولم يتجدد له بإيجاد خلقه صفة لم تكن له، ولا يجوز أن يعتقد بأنه تعالى تجددت له صفة لم يكن متصفا بها من قبل، لأن صفاته تعالى صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يعتقد أنه حصل له الكمال بعد أن لم يكن.

وهذا واضح في الصفات الذاتية، وأما الصفات الفعلية كالخلق، والتصوير، والإحياء، والإماتة، والمجيء، والنزول، والاستواء، والغضب، والرضا، وإن كانت هذه الأحوال، والأفعال تتجدد، وتحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة، حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبه قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله)[1] لأن هذا التجدد والحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم، وكان متكلماً بالأمس، لا يقال بأنه حدث له الكلام بل في حال تكلمه يقال : أنه متكلم بالفعل، وفي حال سكوته يقال : إنه متكلم بالقوة، وكذلك من كان قادرا على الكتابة يقال : كاتب بالفعل في حال كتابته، وفي الحالة الأخرى يقال : كاتب بالقوة، فالله تعالى : خالق، رازق، محي، مميت، معط قبل أن يخلق خلقه، وعباده الذين يرزقهم، ويعطيهم، ويحييهم، ويميتهم، لأنه قادر على ذلك كله أزلا، ولم يكن فاقدا صفة من هذه الصفات، أو عاجزاً عن فعل من هذه الأفعال، بل هو على كل شيء قدير ؛ ولعل في هذا المقدار غنية لطالب الحق، ومحاولة الإحاطة بالله تعالى علماً محاولة فاشلة لقصور علمنا وعجزنا الذاتي **﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**[2]، **﴿ ولا يحيطون به علما ﴾**[3]، **﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾**[4] هكذا يتم الجواب على الشبهة من الشبهتين اللتين جعلتا ابن رشد يتردد في : هل العالم محدث أو قديم ؟ فلنجب الآن على الشبهة الثانية

(١) البخاري : الأنبياء، باب قول الله : ولقد أرسلنا نوحا (٦/٣٧١) ومسلم : الايمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١/١٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة الإسراء (٨٥)

(٣) سورة طه (١١٠)

(٤) سورة البقرة (٢٥٥)

بمعونة الله وتوفيقه، وهي أن مادة العالم لا تفنى ولا تنعدم، وذلك دليل قدم العالم، كان ابن رشد يحاول أن يستنتج من بقاء شيء من أجزاء العالم، وعدم فنائه يستنتج من ذلك أن العالم قديم أزلي.

الجواب : صحيح أن بعض المخلوقات لا تفنى بل تبقى بإبقاء الله إياها، ويجاب عن بقائها بجوابين :

أولا : لا يلزم من عدم فنائها أزليتها، إذ لا تلازم بين عدم فنائها وأزليتها.

ثانياً : أن بقاء ما يبقى من المخلوقات ليس بقاؤه ذاتياً، وإنما يبقى بإبقاء الله إياه ــ كالجنة وأهلها، والنار وسكانها، وعجب الذنب من ابن آدم، وأما الباقي الذي البقاء وصف ذاتي له فهو الله وحده، ولا يشاركه أحد في بقائه، كما لم يشاركه أحد في سائر صفاته، وأن اتحدت الأسماء أحيانا في بعض الصفات.

فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، هذا، والأمر في غاية الوضوح لطالب الحق، والحمد لله رب العالمين، له المنة وحده.

صفة الحياة والقدم والإرادة
عند الفيلسوف ابن رشد

يثبت ابن رشد عدداً معيناً من صفات الله تعالى، على الطريقة الأشعرية على الرغم من الحملات العنيفة التي يشنها عليهم أحياناً.

ومن الصفات التي يثبتها : صفة الحياة، والإدارة، والقدم، يثبت هذه الصفات بدليل عقلي مؤيد بالأدلة النقلية، وإن كان الاعتماد عنده على الأدلة العقلية على طريقة أهل الكلام.

بل يرى أن الاعتماد على الأدلة النقلية، والوقوف عندها طريقة الجمهور. والجمهور في اصطلاح ابن رشد هم من ليسوا بالفلاسفة الذين يسميهم (الحكماء).

فيقول : في إثبات هذه الصفات بعد أن تحدث عن صفة العلم، أن صفة الحياة والإدارة والقدرة، وجودها ظاهر من صفة العلم، وذلك يظهر في الشاهد أن من شرط العلم الحياة، والإرادة، والقدرة، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم إلى الغائب، وما قالوه صواب، وهذا التصويب يعتبر إنصافا من ابن رشد، وعلى الرغم من كثرة مناقشته الحادة للأشاعرة والمعتزلة يعترف لهم بالفضل فيما أصابوا فيه لأن الحق ضالة المؤمن، أخذها أين وجدها، ولو كان عند المتكلمين.

وبعد : فقد لاحظنا فيما سبق أن الفيلسوف ابن رشد كثيرا ما يناقش نفسه، إذ رأيناه غير مرة يقف مواقف كان يعيبها على أهل الكلام، من التأويل ودعوته المعنى الجمهوري، والمعنى الخاص لبعض النصوص، ولا عجب في ذلك لأن التناقض يكاد يكون وصفا ذاتياً للفلاسفة كلهم فليس أبو الوليد بدعا من الفلاسفة، هذا ما يهون الأمر علينا، وقديما قيل (إذا عمت هانت).

الكلام عند ابن رشـــد

يسلك ابن رشد في إثبات صفة الكلام، المسلك الذي سلكه في إثبات صفة الحياة، والقدرة، والإدارة وهو الاستدلال بثبوت صفة العلم، لأن الكلام في فلسفة ابن رشد ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا، يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه، أو الفعل الذي يصير المخاطب بحيث يتكشف له ذلك العلم الذي في نفسه،، وذلك فعل جملة الأفعال، وأغرب من هذا قوله : (وقد يكون من كلام الله ما يلقيه الله إلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وبواسطة البراهين، وبهذه الجهة صح عند العلماء أن القرآن كلام الله).

وقد توسع ابن رشد في مفهوم الكلام إلى أن أدخل في مسمى كلام الله ما يتكلم به علماء الفلاسفة بدعوى أن ألقى إليهم الكلام بواسطة البراهين.

يقف أبو الوليد في هذه المسألة موقفاً شاذاً وخطيراً ؛ ولم يسبق إليه ـــ فيما نعلم ـــ وذلك أنه خالف الأشعرية القائلة بالكلام النفسي واللفظي معا، على أن

النفسي هو الكلام الحقيقي لله، واللفظي دال عليه أو ترجمة له، أو عبارة عنه، والقرآن عند الأشعرية ليس بكلام الله، ولكنه دال على كلام الله الحقيقي الذي هو الكلام النفسي، فلذا يجب احترامه إلى آخر الكلام المعروف عندهم.

وأبو الوليد لم يلتزم هذا المذهب التزاما كلياً، ولم يرفضه رفضا باتا، وهو في الوقت نفسه يخالف المعتزلة التي لا تثبت كلاماً نفسياً، بل تصرف بأن كلام الله مخلوق، ومعنى أن الله متكلم عندهم : أنه خالق للكلام ؛ فالقرآن مخلوق من مخلوقات الله عندهم، وعند الأشعرية، ونقطة الخلاف بينهم ؛ التصريح بالقول أنه مخلوق، وعدم التصريح به فالطائفتان متفقتان في العقيدة الداخلية ـــ إن صح التعبير ـــ ومختلفتان في السياسة الخارجية.

إذ ترى المعتزلة أن يصرح بذلك لدى الجمهور، لأن القضية قضية العقيدة، يستوي فيها العامة والخاصة، بينما ترى الأشعرية عدم التصريح إلا في مقام التعليم، وكأنها عقيدة تخص الخاصة دون العامة، وهو موقف يشبه موقف ابن رشد من حيث التفريق بين العامة والخاصة، في بعض الواجبات، والاعتقادات ـــ كما رأينا ـــ إلا أنه يختار لنفسه طريقة أخرى في هذه المسألة كما أشرنا، وكما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله، هذا ما عنيناه بقولنا : إن موقفه شاذ وخطير. وأما أهل السنة والجماعة الذين اكتفوا بما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة، والتابعين، والذين لا يتجاوزون الكتاب العزيز والسنة المطهرة فهم يعتقدون بأن الله يتكلم حقيقة كما يليق به بكيفية لا نعلمها إذ لا نحيط به علما ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾[1]، ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾[2]، ولا يخوضون في كيفية تكلمه، كما لم يخوضوا في كيفية جميع صفاته، وكيفية ذاته تعالى : وإذا كان إيمانهم بالله إيمان تسليم، لا إيمان تكييف، فيجب أن يكون إيمانهم بصفاته كذلك، إيمان تسليم بما في ذلك صفة الكلام، لأن الكلام في الصفات كالكلام في الذات، والكلام في بعض

---

(١) سورة طه (١١٠)
(٢) سورة البقرة (٢٥٥)

الصفات كالكلام في البعض الآخر، يحذوا حذوه، فلا تكييف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، أو تحريف.

أما القرآن فمن جملة كلام الله غير مخلوق كسائر كلامه، وقد أخبرنا الله في الكتاب العزيز أن القرآن كلامه، حيث يقول : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾[1].

وما من شك أن الكلام الذي سمعه ذلك المشرك المستأمن، هو هذا القرآن الذي في المصحف المحفوظ في الصدور، المكتوب في الألواح، ولذلك نستشهد به قائلين قال الله تعالى : كذا وكذا، وكلماته تعالى لا نفاد لها ــ إذ يقول الرب جل من قائل : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مددا** ﴾[2].

هذا هو اعتقاد أهل السنة في كلام الله، وموقفهم من القرآن الكريم، وهم ــ كما لا يخفى على المنصف ــ خير هذه الأمة على الإطلاق بشهادة المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام فهو يقول عنهم : (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[3] والخيرية تستلزم قطعاً صلاح العقيدة وصحتها ضرورة، بحكم أنهم شافهوا صاحب الرسالة محمداً عليه الصلاة والسلام وأخذوا عنه دينهم وعقيدتهم.

وإذا كنا نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام بلغ رسالة ربه كاملة ولم يكتم شيئاً منها في أصول الدين وفروعه، ونؤمن ثانيا بأن الصحابة فهموا ما بلغهم الرسول عليه الصلاة والسلام فهما صحيحاً وشاملا وتحملوا أمانة التبليغ لمن بعدهم، فبلغوهم فعلا، ولم يكتموا شيئا مما بلغوا، إذا كنا نؤمن إيماناً كهذا يلزمنا أن نعتقد أن كل خير في اتباعهم فيما كانوا عليه، لأنهم على هدى وعلى صراط مستقيم ومخالفتهم تعد

---

(١) سورة براءة (التوبة) (٦)
(٢) سورة الكهف (١٩)
(٣) تقدم تخريجه

إحداث بدعة في الدين مع إدعاء أن الدين لم يتم بعد بل هو في حاجة إلى زيادة أو تعديل أو تحسين ؛ وكل ذلك تحد سافر لشهادة الله تعالى لنبيه وأتباعه بأنه أكمل لهم الدين وأتم عليهم نعمة الإسلام إذ يقول الله جل من قائل : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾[(١)]؛ وقد نزلت هذه الشهادة من السماء في آخر حياته عليه الصلاة والسلام، وكان نزولها في حجة الوداع على رؤوس الأشهاد في أعظم تجمع حصل في تاريخ الإسلام.

وكل الذي أقصده بهذا الاستطراد؛ إن الصواب في هذه المسألة وغيرها من مسائل الدين بما في ذلك البحث الذي حول القرآن هو ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وكل ما خالف ما كانوا عليه فهو باطل ضرورة (أن الحق واحد لا يتعدد) هذه هي الطوائف الثلاثة في هذه المسألة، ولا نعلم لها رابعة ــ فيما نعلم ــ ولكننا فوجئنا في أثناء دراستنا لكتب ابن رشد بقول غريب لم يسبق إليه ؛ وذلك في تعريفه للكلام ــ وقد ذكرناه فيما تقدم ــ وقد انتهى إلى القول : بأن حروف القرآن التي في المصحف إنما هي من صنعنا نحن بإذن الله؛ وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على المخلوق لله، وعلى المعنى الذي ليس بمخلوق[(٢)].

مناقشة ابن رشد في رأيه

يمكن أن نوجه فلسفة ابن رشد في هذه المسألة في نقطتين اثنتين :

١ ــ تعريفه للكلام بأنه فعل يفعله المتكلم إلى آخر كلامه.

٢ ــ الإدعاء بأن الحروف التي في المصحف صنفان، صنف مصنوع لنا، وصنف مخلوق لله، وأن الصنف الذي من صنعنا يدل على اللفظ المخلوق، وعلى المعنى غير المخلوق.

---

(١) سورة المائدة (٣)

(٢) مناهج الأدلة لابن رشد.

تعليق على النقطة الأولى : بأنه كلام لا معنى له،، بل تأباه اللغة العربية، ويأباه الواقع إذ لا يعرف في اللغة العربية : أن الكلام هو الفعل، فيقول النحاة عندما يعرفون الكلام : هو اللفظ المركب المفيد بالوضع، وذلك يعني أن الكلام هو ذلك الملفوظ المنطوق، وفي الواقع أن الناس يفرقون بين الكلام والفعل طبعاً، وأكتفى بهذا المقدار في هذه النقطة لوضوحها فيما أحسب.

وأما النقطة الثانية : فادعاء ابن رشد صنفين من الحروف للقرآن فكلام خال وفارغ عن المعنى في نظرنا، وعلى أي حال فقد وقع ابن رشد في البدعة التي كان يشنعها على أهل الكلام، ولم يقف مع ظاهر الشرع كما يدعو إليه وكما هو المتحتم على كل مسلم، وبعد فكم كان جديراً بابن رشد أن يطبق القاعدة التي يذكرها دائماً في بحثه وهي : (لا يحق للباحث في مسائل الدين أن يطبق الاعتبارات الإنسانية على الأمور الإلهية) ولكنه خالفها ولم يلتزم بها ــ وللأسف ــ والملاحظ أن ابن رشد قد خالف علماء الكلام في مواقفهم من صفات الله، وأنكر عليهم تأويلهم، وشدد الأنكار عليهم، وكان يرى أن تبقى نصوص الصفات على ظاهرها ــ كما يليق بالله ــ ويدعو إلى ذلك بكل صراحة، وهي دعوة حق طبعاً، ولكنه قلب ظهر المجن ــ كما يقولون ــ لهذه الطريقة في صفة الكلام، وانحاز إلى الطريقة الأشعرية، وهي القول بخلق القرآن مع إثبات الكلام النفسي، بل زاد عليهم حيث ادعى أن القرآن حرفين، حرف مخلوق لله، وحرف مصنوع للعباد، دال على الحرف المخلوق، وهو موقف ــ كما ترى ــ في غاية الغرابة، بل انزلاقة خطيرة، يخشى منها على إيمان صاحبها، والله المستعان.

موقف ابن رشد من مثبتة الصفات

جرت عادة معطلة الصفات الذين تعودوا أن يسلطوا ألواناً من التأويل على صفات الله تعالى، إذا خالفت المعقول وأوهمت التشبيه ــ في زعمهم جرت عادة هؤلاء بأن يلقبوا مثبتة الصفات بالألقاب التالية :

(أ) المشبهة.

(ب) المجسمة.

(جـ) الحشوية.

وفي زعم هؤلاء أن الإثبات يستلزم التشبيه والتجسيم، وهو زعم فاسد لا يعتمد على قاعدة علمية، ونظر سليم، وإنما هو زعم يتوارثه أهل الكلام بعضهم من بعض، مبعثة إما الجهل، أو هوى في النفس، وإلا فإن التشبيه أو التجسيم أمر زائد على الإثبات، فلا يلزم من إثبات العلم لله مثلا ــ تشبيه الله بخلقه في علمه، ضرورة أن علم الخالق ليس كعلم المخلوق، لأن علم المخلوق علم يناسب حال المخلوق، محدث مثله، محدود لا يحيط بالمعلومات، ومعرض للنسيان والغفلة والذهول، ثم إنه غير باق، ضرورة زوال الصفة بزوال الموصوف، وهذه الأعراض التي ذكرناها لعلم المخلوق، ينزه عنها علم الخالق لأنه علم يليق به تعالى، قديم قدم ذاته، محيط بكل شيء لا يلحقه نسيان، أو ذهول أو غفلة ؛ وهو باق بقاء الذات العلية، فإثبات صفات الله تعالى عند المثبتة على غرار قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1]، و ﴿ **ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[2]، ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾[3]، ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾[4]. وما قيل في صفة العلم يقال : في سائر الصفات الذاتية والفعلية، هكذا يثبت لدى المنصف أن الإثبات شيء والتشبيه شيء آخر والله ولي التوفيق.

وقد استخدم أبو الوليد بعض تلك الألقاب التي تقدم ذكرها في حق المثبتة جرياً على عادة القوم؛ وكان المتوقع من أبي الوليد أن يقف موقف البصير المنصف، فيضع الأمور في نصابها، ويلحق الألقاب بأهلها، فيقول لمن أثبت صفات الله كما يليق به أنه مثبت، ولمن أول وحرف أنه مؤول، ولمن شبه صفات خلقه أنه مشبه.

وقد أثبتنا ــ فيما سبق ــ أن المثبتة ليسوا بمشبهين ولا مجسمين، بل طريقتهم

---

(١) سورة الشورى (١١)

(٢) سورة الإخلاص

(٣) سورة طـه (١١٠)

(٤) سورة مريم (٦٥)

طريقة وسط بين التشبيه والتعطيل، كما وضحنا آنفاً، وإذا كانت المشبهة قد غلت في إثبات صفات الله فأثبتوها معتقدين أنها صفات كصفات المخلوقين، بدعوى أنهم لا يعقلون من صفات الله إلا كما يعقلون صفات المخلوقين، فقدرة الله عندهم كقدرة المخلوقين، وإرادته كارادتهم، واستواؤه كاستوائهم، كذلك محبته ورضاؤه، وغلت المعطلة في التنزيه من الطرف الآخر، فنفت، وعطلت صفات الله تعالى، أو بعضها، بدعوى التنزيه، معتقدين أن إثبات الصفات يؤدي إلى التشبيه، فأما أهل السنة والجماعة فقد هداهم الله سواء السبيل ووفقهم، فسلكوا مسلكا وسطا، فأثبوا ونزهوا، أثبتو لله ما أثبت لنفسه، أو أثبته له رسوله من صفات الكمال ــ وجميع صفاته كمال ــ إثباتاً بلا تشبيه أو تمثيل في ضوء قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾.[1]

وقد أثنى أبو الوليد على هذه الطريقة في غير ما موضع في بعض كتبه[2]، ولكنه يراها أنها إنما تناسب الجمهور فقط دون العلماء فإنهم لا يقفون عندها، بل عليهم أن يغوصوا في بحار الفلسفة، فيكشفوا حقائق لا يدركها الجمهور، مع التكتم الشديد، وعدم التصريح بتلك الحقائق أمام الجمهور، فلو التزم أبو الوليد طريقة معينة في إصدار الأحكام على الناس لسهل علينا أن نصغى إلى أحكامه ثم نناقشه، ولكنه صعب المنال، وكثير التقلب. فبينما تراه يتحدث في باب الأسماء والصفات حديثاً سلفياً مثبتاً للصفات، واقفاً مع ظاهر الشريعة، فإذا هو يخطب على منصة أهل الكلام، فيؤول وينفر عن الإثبات، ولو عرجت في نادي الفلاسفة لوجدته في طليعة الحكماء الذين يعيشون في مخيم الغموض، ويضربون في بيداء الأوهام والخيال ؛ ولا تكاد تفقه كثيرا مما يقولون، ولو مررت بمجموعة الفقهاء لرأيته في وسطهم يقارع الحجج بالحجج فيؤصل ويفرع، وربما دخل مجالس المحدثين ليتشبه بهم، على حد قول القائل :

---

(١) سورة الشورى (١١)

(٢) مناهج الأدلة لابن رشد.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم فإن التشبه بالرجال فلاح

والصفة البارزة في ابن رشد أنه يرى نفسه أنه محلق في سماء الفلسفة مع مجموعة الحكماء تاركا الجمهور في سذاجتهم ــ فيما يظن ــ.

ابن رشد يثبت المعاد بالأدلة العقلية والنقلية

يقول أبو الوليد : (والمعاد مما اتفقت على وجوده الشرائع، وقامت عليه البراهين عند العلماء، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده، ولم تختلف ــ في الحقيقة ــ في وجوده)، يشير ابن رشد إلى أن المعاد لم يكن محل نزاع بين الشرائع السماوية، أو لدى العقلاء والحكماء، بل كان محل اتفاق في المجالين الشرعي والفلسفي ــ إن صح التعبير ــ وإنما اختلفت الناس في أمرين في شأن المعاد :

١ ــ أهو روحاني فقط، أو روحاني وجسماني معا، ثم يسوق ابن رشد الدليل فيقول :

(والاتفاق على هذه المسألة مبنيّ على اتفاق الوحي في ذلك، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع على ذلك) هكذا يصرح ابن رشد بأن الأدلة النقلية المأخوذة من الشرائع السماوية، والبراهين العقلية اتفقت على أن للإنسان سعادتين اثنتين :

١ ــ دنيويــة.

٢ ــ أخروية، ويحلل ابن رشد المسألة قائلا : (وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل منها :

(أ) أن الإنسان أشرف من كثير من الموجودات.

(ب) إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثاً، وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه، وهو ثمرة وجوده ؛ فالإنسان أحرى بذلك، وقد نبه الله تعالى على وجود هذا المعنى في جميع الموجودات في الكتاب العزيز فقال : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض، وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا**

من النار ﴾[١] وقال جل من قائل، وهو يثني على عباده الذين يدركون هذه الغاية المطلوبة من الوجود : **﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض. ربنا ما خلقت هذا باطلا. سبحانك فقنا عذاب النار ﴾**[٢].

ثم يقول : أبو الوليد : ووجود الغاية في الإنسان أظهر منها في جميع الموجودات، وقد نبه الله تعالى عليها في غير آية في كتابه العزيز فقال :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون ﴾[٣] وقال : **﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾**[٤]، وقال : **﴿ ومالى لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾**[٥]، وقال : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾**[٦]، ثم يقول أبو الوليد ـــ وهو يبين اتفاق الأدلة النقلية والعقلية على المعاد :

ولما كان الوحي قد أنذر في الشرائع كلها بأن النفس باقية، وقامت البراهين عند العلماء على ذلك، وكانت النفوس يلحقها بعد الموت أن تعرى عن الشهوات الجسمانية، فإن كانت زكية، تضاعف زكاؤها بتعريها عن الشهوات، وإن كانت خبيثة، زادتها المفارقة خبثاً، لأنها تتأذى بالرذائل التي كانت قد اكتسبت، وتشتد حسرتها على ما فاتها من التزكية، عند مفارقتها البدن، لأنها ليس يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن، وإلى هذا المقام الإشارة بقوله تعالى : **﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾**[٧] هكذا يقرر أبو الوليد : أن المعاد مما جاءت به الشرائع، ونادت به الأدلة النقلية والعقلية بيد أن

---

(١) سورة ص (٢٧)
(٢) سورة آل عمران (١٩١)
(٣) سورة المؤمنون (١١٥)
(٤) سورة القيامة (٣٦)
(٥) سورة يس (٢٢)
(٦) سورة الذاريات (٥٦)
(٧) سورة الزمر (٥٦)

الموضوع لم يسلم من الاختلاف فيه، بل اختلفوا، ويمكن أن نوجز اختلافهم في الآتي :

١ ـــ هل ذلك الوجود الذي بعد الموت هو هذا الوجود بعينه، بمعنى أن ما في ذلك الوجود من النعيم واللذات، متحد مع ما في الوجود الذي قبل الموت، وإنما يختلفان في الانقطاع والدوام، أي أن ذلك دائم وهذا منقطع !؟

٢ ـــ أن الوجود الجسماني الذي مخالف لهذا الوجود، وإنما يتفقان في اسم الوجود الجسماني فقط، مع اختلاف الحقائق مستدلين بقول ابن عباس فيما روي عنه :

(ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء). ويرى أبو الوليد أن هذا الرأي الثاني أليق بالخواص.

٣ ـــ ترى طائفة من الفلاسفة : إن المعاد روحاني فقط، وإنما مثل به لإرادة البيان.

والعجيب في أمر ابن رشد أنه يرى أن أصحاب هذا الرأي لهم حجج كثيرة في الشريعة إلا أنه لم يذكر منها حجة واحدة مع دعوى الكثرة، وابن رشد يختلف مع الإمام الغزالي في هذه المسألة، إذ يرى الغزالي وجوب القول بمعاد الأجسام، ويحكم بالكفر على من أنكر ذلك وقال بمعاد الأرواح فقط، وقد كفر الغزالي بعض الفلاسفة بهذا القول، كالكندي والفارابي وابن سينا إضافة على قولهم بأن الله يعلم الكليات فقط دون الجزئيات، وقولهم بقدم العالم وأزليته.

هكذا يتبين أن ابن رشد متساهل، بل متناقض في هذا الباب على خطورته، ولم يقف عند التساهل والتناقش، بل إنه يذهب بعيداً إذ يعد هذه المسألة مسألة اجتهادية إذ يقول :

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها،

بعد ألا يكون نظراً يفضي إلى إبطال الأصل جملة، وهو إنكار الوجود جملة، فإن هذا النحو من الاعتقاد يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس بالشرائع والعقول).

خلاصة رأي ابن رشد في هذه المسألة أن الواجب هو الإيمان بالبعث بعد الموت، وأن هناك معاداً، وأما كون المعاد يكون للأرواح أو للأجسام فليس بمهم عند ابن رشد بل لكل إنسان أن يعتقد ما أدى إليه نظره واجتهاده.

والحق أن هذه المسألة من المسائل التي لم يوفق فيها ابن رشد، بل أخطأ في دعوى أن المقام مقام اجتهاد، بل الصواب أن المقام مقام نص، ولا اجتهاد مع النص طبعاً، فنصوص الكتاب والسنة تصرخ دون خفاء وبأعلى صوت : بأن المعاد للأجسام والأرواح معاً، فلنستمع إلى الآيات التالية، وهي تستنكر على الإنسان حين ينسى، أو يتناسى بأن الله خلقه من نطفة ويستصعب ذلك متسائلا من يحي العظام وهي رميم !!

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة، فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال : من يحيى العظام وهي رميم — قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[1] وإلى الآية التالية وهي تصف يوم القيامة : **﴿ يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب. كما بدأنا أول خلق نعيده. وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾**[2] وإلى قوله تعالى **﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه. وله المثل الأعلى ﴾**[3].

وإذا انتقلنا إلى السنة نجدها تصرح بالمعاد الجسماني بما لا يترك مجالا

---

(١) سورة يس (٧٧ — ٨٠)
(٢) سورة الأنبياء (١٠٤)
(٣) سورة الروم (٢٧)

للشك أو الجدل ــ من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين)[1] وقوله : (يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما)[2].

دلالة الحديث الأول على البعث الجسماني واضحة جداً، لأن الوصف بالغرة والتحجيل إنما هو وصف للجسم والروح تابعة طبعا.

وأما الحديث الثاني فلا تقل دلالته على المراد من الحديث الأول، لأن الأوصاف الأربعة كلها أوصاف لا تليق إلا بالجسم كما لا يخفى، والروح تدخل تبعاً والله ولي التوفيق.

وبعد : أعتقد أن الموضوع قد وضح، وليس بحاجة إلى تعداد أدلة أخرى غيرما تقدم من أدلة الكتاب والسنة، والعقل لا يستبعد ذلك، طبعاً لأنه لم يستبعد المبدأ، ولقد رأينا كيف ربطت بعض الآيات السابقة المعاد بالمبدأ : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾.

الخــــلاصــــة

١ ــ ثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن المعاد جسماني.

٢ ــ ثبت أن المقام مقام نص لا مقام اجتهاد.

٣ ــ إنكار المعاد الجسماني تكذيب لنصوص الكتاب والسنة، وخروج على مقتضى العقل، وتكذيب نصوص الكتاب والسنة الصريحة كفر لا ريب فيه.

والله المستعان.

---

(١) البخاري : الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء (١/٢٣٥).

(٢) النسائي : الجنائز، البعث (١/٢٣٨)

القضاء والقدر عند ابن رشد

مما لا يختلف فيه اثنان أن الإيمان بالقضاء والقدر جانب مهم جداً من جوانب العقيدة الإسلامية، ولهذا الإيمان أثره الواضح في سلوك المرء وتصرفاته، وفي موقفه من الوقائع والأحداث التي تفاجيء الإنسان في هذه الحياة، ويجب أن يقوم هذا الإيمان على المعنى الصحيح للقضاء والقدر، ولا يوجد ذلك المعنى الصحيح إلا في الوحي الإلهي المتمثل في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ولا يجوز بوجه من الوجوه الاستعاضة عن هذا المصدر، ولا إشراك غيره معه كمصدر أصيل.

معنى القدر والقضاء وأيهما أسبق

اختلف أهل العلم أيهما السابق على الآخر. القضاء والقدر.

والذي تطمئن إليه النفس وتؤيده الأدلة، هو قول أبي حاتم الرازي وغيره من بعض أهل العلم وخلاصته : أن القدر هو التقدير، وأن القضاء هو التفصيل، ومن الشواهد التي ذكرها أبو حاتم على ما ذهب إليه قوله تعالى : ﴿ **قضى الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾[1] ومعناه الفراغ، وقوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض** ﴾[2] أي فرغ منها، والقضاء والقدر بمنزلة الثوب الذي يقدره الخياط، فهو قبل أن يفصله يقدره، ويزيد، وينقص، ويوسع ويضيق، وإذا فصله فقد قضاه، وفاته، ولا يمكنه أن يزيد أو ينقص وذلك مثل القضاء والقدر والله أعلم. وهناك تعريفات أخرى، وقد يعكس بعضهم فيقدم القضاء على القدر.

وسواء كان هذا أو ذاك، فإن الله تعالى سبق علمه بكل مخلوق، وكتب مقاديره. وأوجده وفق ما قدره له، وشاءما يصدر عنه بعد وجوده من خير أو شر. ولا يخرج عن ذلك شيء لا أفعال الإنسان ولا غيرها، وكذلك مايصيب الإنسان

---

(١) سورة يوسف (٤١)

(٢) سورة الجمعة (١٠)

من الحوادث، والكوارث، والعبد بجملته مخلوق جسمه وروحه وصفاته، وأفعاله وأحواله، فهو مخلوق، خلق على نشأة وصفه يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله، بتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته. وتكوينه، فهو الذي خلقه وكونه، كذلك فتقع حركته بقدرة العبد المخلوق. وإرادته التي جعلها الله فيه. فالله سبحانه إذا أراد فعل العبد خلق له القدرة. والداعي إلى فعله. فيضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة المسبب إلى سببه، ويضاف إلى الله إضافة المخلوق إلى الخالق، فالمقدور واقع بقدرة العبد الحادثة وقوع المسبب بسببه والمسبب، والسبب، والفاعل، والآلة. أثر قدرة[1] الله تعالى فلا تعطل قدرة الله عن شمولها، وكمالها، وتناولها لكل ممكن؛ وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى الله تعالى وقدرته ولا تعطل قدرة العبد التي خلقها له وجعلها صالحة لمباشرة الأفعال.

هذه طريقة أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وهي التي كان عليها سلف الأمة، وهي وسط بين طريقة الجبرية، والقدرية كما ترى، كما سيتضح قريباً إن شاء الله.

وهذه المسألة من أعوص المسائل الشرعية، كما يقول أبو الوليد، لما يظهر من التعارض بين الأدلة، مما أدى إلى تفرق الناس إلى ثلاث فرق، طرفين ووسط :

الطرف الأول : الجبرية، وعلى رأسهم جهم بن صفوان، فقد ذهبت هذه الفرقة إلى أن العبد مجبور على عمله من خير أو شر، وتنسب إليه الأعمال مجازاً كما تنسب إلى الجماد، والأنسان إنما يخالف الجماد في المظهر فقط، فكتب فلان (مثلا) وقرأ وقام مجاز، كما يقال : ماج البحر، وتحرك الجمل، وأثمرت الشجر، والذي دفعهم إلى هذا فرارهم من الوقوع فيما وقعت فيه القدرية عن القول : إن العبد يخلق أفعاله، كما سيأتي إن شاء الله.

والجبرية نظرت إلى العبد وهو منفعل فقالوا : إنه مجبور غير مختار وفاتهم أنه منفعل وفاعل.

---

(١) موافقة « صريح المعقول » ــ لابن تيمية.

ما ينتج من هذا القول

يترتب على هذا المذهب إبطال التكليف، والثواب، والعقاب على الأعمال، كما ينتج منه أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب عبث، وهو مذهب باطل ومرفوض ـــ كما ترى عقلا وشرعاً، أما العقلاء : فإنه لا يستساغ أن يعطى العامل أجر عمل لم يعمله باختياره حقيقة، وإنما ينسب إليه مجازاً، من حيث الثواب.

وأما العقاب فليس من العدل أن يعاقب العامل على خطيئة ارتكبها تحت الأجبار، وبدون اختيار منه بل أتاه كمكره، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فيصبح إنذار الترغيب والترهيب، وإنذار الرسل كلاماً لا معنى له، هذا ما يترتب على قول الجبرية بإيجاز.

الطرف الثاني : المعتزلة القدرية.

هذه الفرقة ترى أن العبد يخلق أفعاله بقدرته مستقلا عن قدرة الله ويريد ويدبر بإرادته الحرة قبل أن تتدخل إرادة الله تعالى : في إرادته.

وجهـــة نظـــرهم

والذي حمل هؤلاء على هذا القول الخطير، لما رأوا أن العبد يفعل ويترك باختياره الحر، وأثبت له الشرع الثواب على الحسنات، والعقاب على السيئات، ثم لاحظوا الفرق بين حركة اليد العادية، وحركة اليد المرتعشة، حيث تكون الأولى اختيارية، والثانية اضطرارية، وما ندركه من الفرق بين حركات الصاعد إلى المنارة والساقط منها، إذ تكون الأولى بقدرة العبد واختياره بينما لا قدرة له ولا إرادة في الأخرى.

لا حظ القوم هذه الملاحظات في أفعال، وحركات العبد، ونظروا إليه فاعلا، وغفلوا أنه فاعل ومنفعل، فزعموا أن العبد هو الذي يخلق أفعاله بقدرته قبل أن تتدخل قدرة الله تعالى الله عن شريك يشاركه في ربوبيته وخلقه، وفاتهم أن العبد بجسمه وروحه وإرادته وقدرته مخلوق لله، فالله تعالى هو الذي يخلق له القدرة على

العمل، ويجعله فاعلا يفعل بالأرادة المخلوقة والمحدودة والقدرة المحدثة حتى ينسب إليه العمل، ويضاف إليه إضافة المسبب إلى السبب في الوقت الذي يضاف عمله إلى الله إضافة المخلوق إلى الخالق.

ما أبعد هذا الطرف عن ذلك الطرف حيث العبد مجبور هناك وخالق هنا، وكلا الفريقين ضل الطريق، وضاع الصواب بينهما، وعثر عليه أهل السنة والجماعة بتوفيق الله تعالى وقد تقدم بيان مذهبهم.

كسب الأشعري

حاول أبو الحسن الأشعري أن يأتي بحل وسط بين الجبرية والقدرية إلا أنه لم يوفق حيث جعل مناط التكليف الكسب، والكسب هو العمل — كما يتبادر — بل هو إرادة تحصل عند الفعل، وقعوا في هذا المضيق لئلا يقولوا : إن العبد هو الفاعل الحقيقي مستقلا كما هو مذهب القدرية، أو يقولوا : إنه مجبور، وليس له إرادة كما تقول الجبرية، ولكنهم لم يأتوا بجديد بل طريقتهم هذه هي الجبر بعينها، والخلاف بينهم وبين الجبرية خلاف لفظي، وليس بجوهري كما ترى، بل طريقتهم أكثر غموضاً، بل قد عد كسب الأشعري من المحالات، ومحلات الكلام ثلاثة — كما يقولون :

١ — كسب الأشعري.
٢ — أحوال أبي هاشم.
٣ — طفرة النظام.

أما كسب الاشعري : فقد تحدثنا عنه، وملخصه : أن العبد ليس هو الفاعل حقيقة ولكن إرادته للفعل يخلق الله الفعل. نقدر أن نقول : إنها جبرية متطورة أو متسترة.

أما أحوال أبي هاشم : المراد بها الصفات المعنوية التي انفرد بإثباتها أبو هاشم دون سائر المعتزلة مع نفيه لصفات المعاني، أي أنه ينفي العلم والقدرة والإرادة

إلى آخر الصفات، ثم يثبت كونه عالما وقادراً ومريداً، وهذه (الكوكنة) هي الأحوال.

وأما طفرة النظام : فهي (انزلاقه) انفرد بها النظام المعتزلى دون سائر المعتزله، وهي القول بأن الله خلق هذه الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن، من نبات وحيوان وجبال وبحار، ولم يتقدم خلق آدم على ذريته غير أن الله (أكمل بعضها في بعض، فالتقدم والتأخير إنما يقع في ظهور هذه الموجودات في أماكنها، دون حدوثها ووجودها).

وقد زعم النظام متأثراً بأصحاب الكمون والظهور، في الفلاسفة وهي طفرة لم يسبقه احد قبله.

خلاصة رأى ابن رشد

يقول ابن رشد ـــ وهو يلخص بحثه الطويل في مسألة القضاء والقدر : (ولما كان ترتيب الأسباب ونظامها هو الذي يقتضي وجود الشيء في وقت ما أو عدمه في ذلك الوقت، وجب أن يكون العلم بأسباب شيء ما هو العلم بوجود ذلك الشيء أو عدمه في وقت ما. والعلم بالأسباب على الإطلاق هو العلم بما يوجد منها، أو ما يعدم في وقت من أوقات جميع الزمان، فسبحان الذي أحاط اختراعاً وعلماً بجميع أسباب الموجودات، وهذه هي مفاتح الغيب في قوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾[1] الآية.

وإذا كان هذا كله كما وصفنا، فقد تبين لك كيف لنا اكتساب، وكيف جميع مكتسباتنا بقضاء وقدر سابق، وهذا الجمع هو الذي قصده الشرع بتلك الآيات العامة والأحاديث التي يظن بها التعارض، وهي إذا خصصت عموماتها بهذا المعنى، انتفى عنها التعارض، وبهذا أيضاً تنحل جميع الشكوك التي قيلت في ذلك، أعني الحجج المتعارضة العقلية، أعني أن كون الأشياء الموجودة عن إرادتنا يتم وجودها بالأمرين معاً أعني بإرادتنا وبالأسباب التي من خارج فإذا نسبت الأفعال

(١) سورة الأنعام (٥٩).

إلى واحد من هذين على الإطلاق لحقت الشكوك المتقدمة.

وابن رشد ــ كما نرى ــ يدندن حول مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وهو بريء من داء الجبرية والقدرية، ومن كسب الأشعري بل هو يثبت للعبد قدرة وإرادة، وفي الوقت نفسه يقرر أن الأشياء توجد بقضاء وقدر سابق، بل يقرر أنه لا بد من اجتماع الأمرين معاً. القضاء والقدر ويسميها « السبب الخارجي » وإرادة العبد وهي السبب الداخلي وتوجد الأشياء بإذن الله تعالى، بتوفر الأمرين معاً.

وذلك يعني أن العبد يعمل بإرادته، وقدرته، واختياره، ولكنه هو وإرادته وقدرته، والآلة التي استعملها، بل وعقله كل ذلك مخلوق لله ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ ، فتضاف الأعمال إلى العبد حقيقة إضافة المسبب إلى السبب لأن العبد بإرادته وقدرته هو سبب وجود تلك الأعمال. وقد جعل الله لكل شيء سبباً. فهي تضاف إلى الله إضافة المخلوق إلى الخالق. هذه هي طريقة أهل السنة والجماعة كما تقدم. فليهنأ ابن رشد بهذا التوفيق في هذه المسألة العويصة كما وصفها هو نفسه في كتابه منهاج الأدلة في عقائد الملة. وبعد هذا الملخص والتعليق يحسن بنا أن ــ نسرد بعض الآيات القرآنية التي أشار إليها ابن رشد لنرى كيف تتفق، ولا تختلف، وبالتوفيق بينهما تزول جميع الشكوك إن شاء الله. المجموعة الأولى من الآيات المشار إليها :

(أ) ﴿ **فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر** ﴾[1] ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾[2] ﴿ **ثم توفي كل نفس ما كسبت** ﴾[3] ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾[4] ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾[5].

---

(١) سورة الكهف (٢٩)

(٢) سورة التكوير (٢٨)

(٣) سورة البقرة (٢٨١) وسورة آل عمران (١٦١.)

(٤) سورة البقرة (٢٨٦)

(٥) سورة آل عمران (١٨٢)

هذه المجموعة، وما في معناها من نصوص الكتاب والسنة تفيد أن أفعال الإنسان تقع بإرادته، ومشيئته، واختياره.

ومما يؤيد هذا المعنى أن المجنون لا يسأل عن أفعاله بإجماع لأنها لم تقع منه بإرادته أو بإرادة معتبرة.

(ب) المجموعة الثانية : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾[1]. ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم** ﴾[2]. ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[3].

تفيد هذه المجموعة وما شاكلها من نصوص الوحي أن الإنسان وإن كان فاعلا لأفعاله حقيقة لا مجازاً، وله إرادة ومشيئة، لكن إرادته ومشيئته مخلوقان لله، وهما سببان فقط لإيجاد فعل الإنسان، والله خلق السبب والمسبب معا، وكون الإنسان يفعل بإرادته، لا يخرج فعله من عموم مخلوقات الله فالسفينة يصنعها الإنسان بيده ولكن الله خالقها وخالق يده وإرادته وكذلك البيوت والجلود المذكورات في المجموعة الثانية والله ولي التوفيق.

هكذا تتفق الآيات التي ظاهرها التعارض ولا تعارض في واقع الأمر إذ دلت المجموعة الأولى أن للإنسان تدخلا في أعماله بحيث يثاب على الحسنة ويعاقب على السيئة، فتضاف إليه أعماله حقيقة.

ودلت المجموعة الثانية أن الإنسان وعمله مخلوقان لله تعالى وهو الخالق وحده سبحانه.

ســـر القـــدر

فطالما خضنا في هذا البحث الخطير فلا بد أن نقول شيئاً في محاولة الإجابة

---

(١) سورة يس (٤٢)
(٢) سورة النحل (٨٠)
(٣) سورة الصافات (٩٦)

على سؤال خطير يتردد في الأذهان، وربما ظهر على بعض الألسنة أحياناً والسؤال يتكون من فقرتين، ونص السؤال هكذا :

إذا شاء الله من الإنسان المعصية، ولم يشأ منه الطاعة، فلم يحاسبه على ما يشاء منه.

ولِمَ لم يشأ منه الطاعة كما شاءها من غيره ؟

الجواب على الفقرة الأولى من السؤال : سبق أن تحدثنا أن في الأصول القطعية عند أهل السنة : أن الهداية والضلال، والطاعة والمعصية بمشيئة الله، وأن الإنسان سبب في وقوعها، ومسئوليته عن أفعاله أصل قطعي آخر من هذه الزاوية، فالقاعدة التي يتفق عليها العقلاء أن القطعيات لا تتناقض في نفسها، وأن بدت لنا متناقضة لقصور إدراكنا، فحسبنا أن نقف عند هذه القطعيات، ونؤمن بها جميعاً. ولا نرد منها شيئاً ولو لم نحط بها علماً، لأن مسألة القضاء والقدر لها تعلق بصفات الله تعالى : كعلمه وحكمته وإرادته، وحيث أننا نعجز عن الإحاطة بصفات الله تعالى فكذلك نعجز عن الإحاطة بسر القدر، وسر القدر هو أن الله تعالى أضل، وهدى، وأسعد، وأشقى، وأمات، وأحيا، وغير ذلك لحكمة يعلمها، ولا نعلمها. هاهنا السر !! وهو العليم الحكيم. فسبحان الذي أحاط بكل شيء علماً. وأحصى كل شيء عددا، ولا يضير المرء في إيمانه عجزه عن الإحاطة بسر القدر لأن ذلك ليس بمستطاع ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولكن الذي يضيره أن يبني على عجزه أحكاماً، ويتصرف على غير هدى، من ذلك رد بعض الأصول القطعية في القدر، وضرب النصوص بعضها ببعض.

وللجواب على الفقرة الثانية في السؤال نورد قول علي رضي الله عنه : (القدر سر الله فلا نكشفه) ومن سر القدر عجزنا عن جواب : (لم شاء الله الطاعة من زيد ووفقه بينما لم يشأ من عمرو ولم يوفقه) ؟ بل الجواب الذي ليس بعده جواب قوله تعالى : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾[1]. ومما لا نزاع فيه بين

(١) سورة الأنبياء (٢٣)

العقلاء أن المالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء. ولا يلزم ليكون تصرفه سليما أن يدرك غيره الحكمة الباعثة والعلة في تصرفاته، وليس لأحد حق الاعتراض عليه في تصرفه، إذا لم يعلم السر في أفعاله.

فلو رأينا صاحب بستان يحتوي بستانه على أنواع من الأشجار، لو رأيناه يقطع هذه الشجرة، ويترك تلك، ويهذب هذه، وينظمها، ويهمل تلك دون تهذيب، أو إصلاح، فهل لأحد حق الإعتراض على هذه الأعمال المختلفة، فالجواب : لا، طبعاً، لأننا لا ندري ما هو الباعث له على ما فعل أو ترك. هذا هو معنى قول علي رضي الله عنه (القدر سر الله فلا نكشفه) أي فلا نحاول كشفه لندرك حقيقة ذلك السر المكتوم لأنه تكلف بلا نتيجة، ومن حاول إدراك غير المستطاع ــ فنتيجة محاولته :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

من ثمرات الإيمان بالقــدر

صاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الأسباب المباحة بيده، ويبذل وسعه في الأخذ بالأسباب، ولا يعجز، ولا يتواكل، ولكنه يعتمد على الله وحده في نجاح تلك الأسباب المبذولة لا على الأسباب ذاتها، ولقد كان كذلك سيد المرسلين، وإمام المتوكلين محمد عليه الصلاة والسلام. فقد اختفى عليه الصلاة والسلام في الغار يوم الهجرة. وهذا منه عليه الصلاة والسلام يعتبر تعليما للأمة في الأخذ بالأسباب ومباشرتها، وقد فعل ذلك في سبيل التخلص من شر المشركين، ولكنه لم يكن اعتماده في الخلاص على السبب نفسه. وإنما كان اعتماده على الله العلي القدير قال الله تعالى ﴿ **ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصحابه لا تحزن إن الله معنا** ﴾[1] وذلك يعني أن ثقته كانت في الله واطمئنانه وسكينته بسبب تلك المعية الخاصة، إلا أنه لم يهمل السبب بناء على الثقة والاعتماد الصادق على الله،

---

(١) سورة التوبة (٤٠)

وقد رأيناه عليه الصلاة والسلام مرة أخرى في معركة « بدر » يباشر السبب — إذ رأيناه ينظم الجيش كسبب مادي لا بد من مباشرته، ثم يرجع إلى العريش الذي ضرب له في أرض المعركة، فيدعو الله، ويلح في الدعاء، ويكثر فيطلب النصر من الله، وكان عليه الصلاة والسلام يحث أصحابه على البيع والشراء. وكان من أصحابه المزارعون والتجار الذين يزاولون البيع والشراء، هذا هو المفهوم الصحيح للتوكل، وهو ثمرة من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر ﴿ **فسبحان الذي بيد ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾[1].

---

(١) سورة يس (٨٣)

خـاتمـــة

تم بتوفيق الله وعونه إعداد هذه العجالة التي تحدثنا فيها عن موقف الفيلسوف ابن رشد من العقل والنقل، ورأينا في هذا البحث معالجة ابن رشد التوفيق بين الشريعة والحكمة، ومناقشته الحادة لعلماء الكلام في التأويل الذي يسلطه أهل الكلام على نصوص الصفات ليتبعوا ما تشابه من النصوص ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، وقد بينا في هذه العجالة ضرورة توحيد المصدر للعقيدة الإسلامية، وذلك المصدر هو الوحي الإلهي، فقط قبل أن يشاركه أي مصدر آخر لا الفلسفة، ولا علم الكلام، ولا القياس بأنواعه.

وبعد هذا كله من الحماقة بمكان أن يقال :

بأن الشرع لم يمصل أمور العقيدة، فالرجوع إلى الفلسفة أمر ضروري لمعرفة التفصيل، وهو قول عار عن الحقيقة، بل هو تمويه على السذج من الناس لأن أمور العقيدة ـــ كما أوضحنا في صلب البحث ـــ من أهم مطالب الدين، بعثت بها الرسل وأنزلت بها الكتب.

ومن المستحيل عقلا أن يهمل الشارع بيان هذا المطلب الذي هو أهم المطالب على الإطلاق دون بيان شاف بالتفصيل اللازم فيحيل الناس على مصدر آخر في معرفته، في الوقت الذي بيّن فيه فروع الشريعة، وأوضح سننها وآدابها، ولقد رأينا كيف بين الوضوء ونواقضه وكيفية التيمم وغير ذلك من الفروع.

ومن تتبع آيات القرآن وتدبرها، واطلع على المقدار الكافي من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مع دراسته ما كان يفهمه الرعيل الأول من النصوص، يدرك تماماً ودون شك أن بيان العقيدة قد وقع بياناً يغني أهله عن الحاجة إلى سفسطة أهل الكلام وخوض الفلاسفة.

والحمد لله رب العالمين.



المحاضرة الخامسة

طريق الإسلام في التربية

ألقيت في الندوة الاسلامية العالمية في التربية

كلية بايرو الجماعية كانو ـــ نيجيريا

من ٢٧ ديسمبر ١٩٧٦ إلى ٢ يناير ١٩٧٧ م

مقـــدمـــة

طريقة الإسلام في التربية

فضيلة رئيس الندوة الإسلامية العالمية في التربية، والسكرتارية المحترمة أيها الحضور الكرام : أحييكم بتحية الإسلام. سلام الله ورحمته وبركاته.

وبعد : كم كان سروري عندما سمعت بهذه الندوة المباركة التي بادرت إلى إقامتها والدعوة إليها هذه الجماعة الفتية (جماعة بايرو) بكانو. وقد جاءت الندوة في الوقت الذي تشكو فيه البشرية حاجتها الماسة إلى التربية الإسلامية السماوية بعد أن جربت جميع المناهج الأرضية، وأدركت فشلها في إيجاد الفرد الصالح الذي يتكون منه المجتمع الصالح والأمة الصالحة. ولا يتحقق ذلك إلا حين يتخرج ذلك الفرد في المنهج الإسلامي، في هذا الوقت دعت هذه الجامعة الفتية إلى هذه الندوة المباركة، وبحق تعتبر هذه الدعوة مبادرة موفقة وكريمة، وهي تدل ـــ في ضمن ما تدل ـــ على مدى الوعي الناضج في أسرة هذه الجامعة والمسئولين عنها، فنشكر لهم هذه المبادرة الكريمة، وندعو الله السميع القريب أن يبارك في هذه الجهود المبذولة، وهذا السعي المشكور حتى نرى ثمار هذه الندوة قد أينعت، وآن قطافها بإذن الله، ومساهمة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في مثل هذا النشاط الإسلامي العالمي قد لبت الدعوة الموجهة لها من جامعة بايرو بكانو، وكلفتني بالحضور، والمشاركة في الندوة، فها أنا ذا أتقدم بهذه المحاضرة الموجزة أو البحث المتواضع تحت عنوان ((طريقة الإسلام في التربية)) فأقول مستعيناً بالله ومصلياً على رسوله ومسلماً :

طريقة الإسلام في التربية

لكل منهج من المناهج طريقة في التربية، وميزة يتميز بها في تنشئة الفرد والمجتمع، فللإسلام طريقة خاصة ومتميزة في التربية بميزات لا يشاركه فيها أي منهج

آخر، فالإسلام وحده هو الذي يهدف إلى تكوين الإنسان الصالح بينما تهدف جميع المناهج إلى تكوين المواطن الصالح، وما من شك في أن إعداد وتكوين الإنسان الصالح أشمل وأدق وأعمق من إعداد المواطن الصالح، المواطن الصالح هو ذلك الإنسان المقيد بالأرض بل بقطعة منها لا يصلح لغيرها، مع ملاحظة الاختلاف بين تلك المناهج الأرضية في تحديد هذا المواطن الصالح هل هو الجندي الصالح في استعمال سلاحه.

أو هو العابد الصالح في تنسكه وعبادته.

أو ذلك الإنسان الخامل في سلامة صدره وهدوئه.

إلى غير ذلك من المعاني.

أما الإسلام فله طريقته الخاصة في إعداد الفرد الصالح، وله وسائله الخاصة أيضاً إذ يأخذ هذا الكائن البشري المسمى إنساناً يأخذه بكامله بجسمه وروحه وعقله، قبل أن يهمل الروح على حساب الجسم أو العقل، وقبل أن يعكس، بل ينفذ إلى هذا الكائن من جميع منافذه فيربي روحه وجسمه وعقله معا ثم إنه يساير الإنسان في جميع أحواله، في حبه وكرهه، وفي حالة خوفه ورجائه، وفي جميع ظروفه المختلفة.

يربيه بوسائل شتى : يربيه بالقوة، يربيه بالموعظة، يربيه بالأحداث على اختلافها بالقحط والزلازل بالأمراض، وتسليط الأعداء، حتى يجأر إلى الله، ويرجع إليه ﴿ **ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾[1] يربيه بمثل هذه الوسائل حتى يتكون الفرد الصالح القوي في إيمانه وثقته بربه، فمنه يتكون المجتمع الصالح، والأمة الصالحة الخيرة، وهي الأمة الإسلامية الواعية الطيبة التي قال عنها خالقها الحكيم العليم سبحانه ﴿ **كنتم خير أمة، أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله** ﴾[2].

---

(١) سورة النحل (٥٣)

(٢) سورة آل عمران (١١٠)

ولقد رأينا الله يخاطب هذه الأمة المحمدية بواسطة النبي ﷺ، ودون تقييد لها بأي صفة من الصفات المقيدة، لا بالقومية أو الوطنية أو القبلية، بل يقول لهم : يا أتباع محمد (عليه الصلاة والسلام) ! كنتم خير أمة أخرجت للناس إخراجاً خاصاً، وممتازاً لتقوموا بأعباء أداء الأمانة تعمرون الأرض وتصلحونها بالعدل بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والايمان بالله، ــ والإيمان بالله يستلزم الايمان برسله وكتبه ويوم لقائه وغير ذلك من شعب الايمان التي أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، أخذاً من سنة هادي الأمة ومربي البشرية محمد عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله لهداية الناس جميعاً **﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾**[1] **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**[2] **﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾**[3] **﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾**[4].

أعود فأقول : إذا رأينا الله يخاطب هذه الأمة في الآية السابقة يوجههم ذلك التوجيه السديد، ثم استمعنا إلى الآيات التي تخبرنا عموم رسالة محمد نبي هذه الأمة، وأنه بعث لهداية الناس جميعاً، ليصلهم بربهم، فسنرى في هذه النصوص الآتية كيف يخاطب الله الإنسان بصفته إنسانا فقط، ليرده إلى خالقه ويصله به مباشرة ودون واسطة **﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك، فسواك، فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾**[5].

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾[6]، **﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونحن نعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل**

---

(١) سورة الأعراف (١٥٨)

(٢) سورة الأنبياء (١٠٧)

(٣) سورة سبا (٢٨)

(٤) سورة النساء (٧٩)

(٥) سورة الانفطار (٦)

(٦) سورة الانشقاق (٦)

الوريد ﴾[1].

هكذا يخاطب الله الإنسان حقيقة الإنسان دون أن يربطه بصفاته الطارئة كالوطنية والقومية مثلا، بل يخاطب إنساناً حراً مخلوقاً لله، وهو عبد الله فقط، ليرده إلى خالقه ومولاه، ويخبره بأنه سوف يرجع إليه، ليرى عنده جزاء عمله وكده في هذه الدار، وفق عمله وكده، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قبل أن يظلم ﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[2] فما عليه إلا أن يعمل الخير، ويبتعد عن الشر، بمثل هذا الأسلوب، وبمثل هذا التوجيه يربي الإسلام الإنسان في كيانه المهم : الروح، وهو لا يهمل الجسم، ولكنه يركز على الروح كما رأينا وكما سنرى تفاصيل ذلك إن شاء الله.

ومن درس المناهج الأخرى غير الإسلامية في مجال التربية يجدها فريقين : فريق يصل الناس بربهم وخالقهم متجردين عن الحياة، تاركين الأرض وعمارتها بل يكادون أن يزعموا أنهم روح بلا جسم.

وفريق آخر يصل الناس بالأرض، ليتمتعوا بالأرض وزينتها، ويكافحوا دونها، ويعادوا من أجلها، ويوالوا في سبيلها، من أجلها يحبون ويكرهون، وقد خلدوا إلى الأرض، وركنوا إليها، حتى أصبحوا عباداً لها.

وأما الإسلام، الإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بخالقه ليصلح حاله في الأرض، وينظم حياته، ويمشي على الأرض بجسمه، وهو متوجه إلى السماء بروحه، ليعيش بين الأرض والسماء، ولا يقطع صلته بأيتهما، يمشي على الأرض، يكد ويسعى في رزقه، وهو متصل بالسماء : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها، وكلوا من رزقه، وإليه النشور** ﴾[3]. وهذا الاتصال بالسماء بهذه الصورة التي صورها القرآن، هو محور العقيدة الإسلامية، ومنهجها التربوي، ومن الاتصال بالله تتفرع التشريعات والتنظيمات والتوجيهات حتى يمكن للحياة

---

(١) سورة ق (١٦)

(٢) سورة الكهف (٤٩)

(٣) سورة الملك (١٥)

البشرية أن تسير على منهجها المستقيم، دون تفريط أو إفراط ليعلموا أن الله وحده صاحب الحول والقوة والعزة والجبروت والسلطان وهو مالك الكون ﴿ **بيده ملكوت كل شيء** ﴾[1].

وهذا العلم يحملهم على عدم التطلع إلى أحد سواه، بل يتوكلون عليه وحده، ويكتفون به ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾[2]، ويغمضون عيون قلوبهم بحيث لا يلتفون إلى غيره، ومن ثم تتحرر قلوبهم، وأرواحهم، ليتطلعوا إلى الله، بل لينطلقوا إليه خفافاً، يحدوهم الحب الصادق لخالقهم، وولي نعمتهم، وشوقهم إلى لقائه، وهو أسمى أمانيهم، أجل ! إن هذا الرد يجعلهم يدركون الأمور على حقيقتها، وأن منهج الله هو المنهج الصالح وحده، فيلتمسون الهدى في منهجه، ليهتدوا بهديه، ويسيروا على ضوئه، فتصلح حالهم في الأرض، وتقوى بذلك صلتهم بالله، وثقتهم به، بل يكسبون من هذا الإتصال قوة، تفوق قوى الأرض كلها، لأنهم يستمدون قوتهم من قوة الله، خالقهم، فهم من الله، وقوتهم من قوة الله، إذ هي قوة تبني، وتنشيء، وتعمر، وتصلح، وهم خلائف في الأرض يخلف بعهم بعضا ليعمروها ويصلحوها ويقيموا فيها العدل، ويتسغلوا خيراتها وثرواتها، ﴿ **وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه** ﴾[3]، ولا يعرف العجز والكسل إلى نفوسهم سبيلاً بل يواصلون سيرهم بقوة، دونها جميع القوى، وبثقة دونها كل الثقات.

هكذا يربي الله الإنسان حتى يدرك أن منه المنشأ وإليه المصير، ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، إنه على رجعه لقادر، يوم تبلى السرائر، فما له من قوة، ولا ناصر** ﴾[4] ﴿ **إنا نحن نرث الأرض، ومن عليها، وإلينا يرجعون** ﴾[5] ﴿ **إنا نحن نحيي ونميت، وإلينا**

---

(١) سورة المؤمنون (٨٨) ويونس (٨٣)
(٢) سورة الزمر (٣٦)
(٣) سورة الجاثية (١٣)
(٤) سورة الطارق (٦ ــ ٩)
(٥) سورة مريم (٤٠)

المصير ﴾(1) فمنهج الإسلام في التربية فريد في بابه في إحاطته بجميع جوانب الإنسان، ولا غرابة في ذلك لأنه منهج الله الخالق **﴿ ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير ﴾**(2) **﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ﴾**(3) وبعد هذه الإشارة، وهذه النصوص التي سردناها نستطيع أن نقول بكل تأكيد : إنه لا يوجد نظام، أو منهج يعالج الفطرة كما يعالج الإسلام، إذ هو يعطي كل جانب في الإنسان غذاءه اللائق به، والصالح له، بنظام دقيق، وبالقدر المفيد، بحيث لا يشكو جوعا أو يصاب بتخمة، ومن ثم ينطلق الإنسان في الحياة نشيطا متحركا ومنتجا على الدوام دون عجز أو كسل أو فتور، وجميع المناهج الأرضية تعجز عن الوصول إلى هذا المستوى، وتقف دون هذا الشمول في دقته، كما يشهد واقع الحياة بذلك، ولا أريد بحديثي هذا إجراء مقارنة بين المنهج الإسلامي المنزل، وبين المناهج الأرضية الوضعية، بل لا أبيح لنفسي مثل هذه المقارنة، وإنما أريد بيان وشرح المنهج الإسلامي، وأنه هو وحده الصالح للتربية المنشودة، وهو الكفيل وحده لتكوين الجيل الصالح وتنشئته، الجيل الذي يعمر الأرض، ويقيم العدل، ويؤمن بالله، ويعمل لصالح عباد الله دائما حيث ما حلّ، وأينما نزل، بل أقول بكل تأكيد : إن المناهج كلها : غير المنهج الإسلامي ــ تعجز أن تخرج هذا الصنف من الناس، أجل ! أن المنهج الإسلامي لو درس، وفهم، ثم طبق، لأغنانا ــ نحن المسلمين ــ من استيراد مناهج من خارج بلادنا، ومن وضع أعدائنا، وأعداء عقيدتنا ــ مشرقين أو مغربين، لنربي عليها أبناءنا وفتياتنا، والذي حملنا على ما نحن عليه اليوم من التماس الهدى والصلاح والخير في غير المنهج الإسلامي، هو عدم دراستنا للإسلام ومنهجه التربوي دراسة فاحصة، وواعية كما يجب أن يدرس، ويفهم، بل لا أقف عند قولي : لأغنانا ــ نحن المسلمين ــ فحسب بل أقول : لأغنى الناس جميعا، وكفاهم، لأنه منهج رباني صالح لجميع الناس أنزله رب العالمين، رحمةً

(1) سورة ق (٤٣)
(2) سورة الملك (١٤)
(3) سورة الروم (٣٠)

للعالمين، لهداية البشرية أجمع، عرفه من عرفه، وأخذ به، وجهله من جهله، وأعرض عنه، وشقي لعدم الأخذ به.

وهذا الشقاء الذي تشكوه الأمم المعاصرة اليوم في مجال التربية وغيره، هو نتيجة إعراضها عن المنهج الإسلامي التربوي، فهل لها أن تعود من جديد لتسعد ؟ لست أدري عن مدى استعدادها للعودة، ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها** ﴾[1].

الـــــروح

قبل أن أقول شيئاً عن طريقة الإسلام في تربية الروح يحسن بي أن أقول شيئاً عن الروح ذاتها : الروح هي تلك الطاقة الهائلة في كيان الإنسان، والركن المهم فيه، والعنصر الأساسي في تكوينه، وهي التي يتم بطريقها اتصال الإنسان بربه وخالقه، لأنها من روح الله التي أودعها قبضة من طين، فصار إنساناً ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[2] وهي تهدي إلى خالقها وتتصل به سبحانه ﴿ **وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بل شهدنا** ﴾[3]

هكذا يبقى الإنسان على اتصال بربه بواسطة روحه ما لم تنحرف فطرته، ويفقد الإنسان اعتداله بأن يصاب بمرض الشبهات المضلة، أو يغشاه ركام من الشهوات فيحجب عنه النور، فيتخبط، وعلى الرغم من ذلك فإن الفطرة لا تعمى كل العمى حتى في هذه الحالة، بل لا تزال تحاول أن تتجه إلى خالقها. مثلها في هذه الحالة مثل العين الكليلة تحاول الاتجاه إلى الضوء، وهي لا تراه كله رؤية كاملة ولكن لديها بصيص من النور، ففي هذه الحالة يصاب الإنسان بتخبط في سيره إلى

(١) سورة فصلت (٤٦)
(٢) سورة ص (٨٢)
(٣) سورة الأعراف (١٧٢)

الله وعبادته، فتجده يعبد مع الله غيره من الكائنات بالتقرب لها والتزلف ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[١] مع الاعتراف التام بأن هذه الكائنات لن تشارك الله في الخلق ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾[٢]، ﴿ **قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض** ﴾[٣] هنا تظهر جلياً مهمة العقيدة، ودورها الفعال ومهمتها مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها السليمة، أجل ! مهمة العقيدة أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله، وإخلاص العبادة له وحده، ذلك الاهتداء الذي كان كامنا فيها، وتلك القابلية التي كانت تنتظر التوجيه، فتأتي العقيدة فتوجه، وتهدى إلى طريق مستقيم، وصراط قويم، صراط الله الذي له ما في السموات، وما في الأرض، هكذا تظهر جلياً مهمة العقيدة، وفائدة إرسال الرسل، وإنزال الكتب السماوية، وعدم الاكتفاء بالفطرة وحدها، وبالأدلة الكونية التي نصبها الله في الآفاق، وفي الأنفس لتدل على خالقها.

إذن مهمة العقيدة أن تطلق الروح، وتخرجها من حجابها، لكي ترى الله وتتصل به مباشرة، وبدون واسطة، لذا نرى الإسلام يعنى بالروح عناية خاصة، لأنها في نظر الإسلام هي القاعدة التي يستند إليها الكيان كله، ويتم الترابط عن طريقها، وهي الموجهة إلى الله، ومعلوم أن للانسان طاقات عديدة، طاقة الجسم، وهي لا تتجاوز كيانه المادي وما يدرك بالحواس وهي طاقة محدودة كما ترى.

أما طاقة العقل فهي أكثر انطلاقة طبعاً، إلا أنها محدودة أيضاً بما يعقل، وبالزمان والمكان والبدء والنهاية.

فالطاقة الوحيدة في كيان الإنسان المعفوة عن الحدود والقيود هي طاقة الروح وحدها، إذ هي التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس والعقل، وهي التي تتمتع وحدها بالاتصال بالخلود الأبدي، والوجود الأزلي لأنها تملك الاتصال بالله

(١) الزمر (٣)
(٢) سورة لقمان (٢٥) وسورة الزمر (٣٨)
(٣) سورة الأحقاف (٤)

ومعرفته بآلائه ونعمائه، وإن كنا نجهل كنه الروح، وكنه الاتصال بالله، وما أكثر ما نجهل كنه وحقيقته، ونحن نؤمن به وبوجوده، ولكن الإنسان يكاد يحس بسبحة الروح الطليقة عندما تجوب آفاق الكون، وتتصل بكل حي في هذا الكون ــ لهذا اهتم الإسلام بأمر الروح في جملة اهتمامه بالطاقات البشرية كلها وأعطاها حقها من الرعاية والتوجيه، وركز على الروح، وهي من أمر الله ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾[1].

وفيما يلي نرى كيف ربى الإسلام الروح وما هي الطريقة التي سلكها في تربيتها.

طريقة الإسلام في تربية الروح

للإسلام طريقته الخاصة في تربية الروح، وهو يعقد الصلة الدائمة بينها وبين الله صلة لا تنقطع في كل لحظة في كل عمل، وكل فكر، وكل شعور حتى لا تنطفىء تلك الاشراقة الروحية لتكون تلك الصلة القوية منهج حياة الإنسان، تضيء له الحياة، لتظل دائمة مضيئة لكيلا تكون الانطلاقة فلتة عابرة، إذا منهج الإسلام في تربية الروح أن تكون صلة الروح بالله في كل لحظة ودقيقة كما سبق أن قلنا بحيث يراقب الله، وهو في خلوته، حيث لا يراه أحد سواه وهو بين أصحابه، وهو يقرأ، وهو يكتب، ولا يكتب مالا يرضاه الله وما يضر عباده وأولياءه، وهو في مصنعه، في متجره، في مزرعته، في حبه، في رضائه، وسخطه، في جميع أحواله وظروفه، بل لا تقوى الظروف الطارئة، والأحوال المتجددة أن تحول بينه وبين الله، ومراقبته بل هو في جميع حالاته مع الله وعلى اتصال وثيق دائم، بل هذه هي العبادة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[2] وليست العبادة المذكورة في الآية والتي خلقنا من أجلها أداء بعض

---

(١) سورة الإسراء (٨٥)

(٢) سورة الذاريات (٥٦)

الشعائر الدينية في أوقات محددة فحسب ـــ كما يظن البعض ـــ كالصلاة والزكاة والصيام مثلا بل هذه مفاتيح وأسس لعبادات أخرى كثيرة، أو هي المحطات الكبرى ـــ كما يقول بعض المفكرين الإسلاميين ـــ شريطة أن يحسن الوقوف فيها وأداؤها كما يجب، أما حقيقة العبادة أو ثمرتها على الأصح فهي تلك الصلة الدائمة بالله في جميع الأحوال، وتحت أي الظروف دون انقطاع أو فتور، ويخطىء الذين يحسبون أن حقيقة العبادة في الإسلام ذلك التنسك والتزهد فترة من الزمن، وأن يظهرالخشوع والخضوع في السجود وفي الركوع فإذا ما ختم الصلاة، وخرج من مصلاه، فإذا العدوان على عباد الله، وهتك أعراضهم !!، فإذا الجشع، والشح، والغش، والخيانة، فإذا هذه الأخلاق قد أخذت منه كل مأخذ فلا يأمنه المشتري في بيعه بل لا يأمن جاره بوائقه (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه)[1] أي شره وضرره ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[2] وليس الغرض من العبادة هذه الشكليات الجوفاء.

(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[3] فالقلب هو محل نظر الرب في العبد، لا الصور والمظاهر والشكليات التي لا قيمة لها عند الله إذا انفردت.

والعبادة المثمرة هي أهم الوسائل في تربية الروح، وعقد الصلة بين الإنسان وربه، وهناك وسائل أخرى يستعملها الإسلام في هذا المجال، وسوف نذكر بعضها إن شاء الله فيما يأتي من باب المثال لا الحصر.

الوسائل التي استعملها الإسلام
في عقد الصلة بين الإنسان وربه

---

(١) البخاري : الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (١٠/٤٤٣)
(٢) سورة العنكبوت (٤٥)
(٣) مسلم : البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم (٤/١٩٨٧)

١ ــ إن الاسلام ينبه القلب ويثيره لينظر في الكون وصفحته الواسعة، ويحس بوجود الله المبدع، وقدرته المطلقة التي ليس لها حدود، ويقول قرآن الإسلام عقب ذكر كل آية من الآيات التي في صفحات الكون، يقول منبها مثيراً ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ إلى آخر تلكم التنبيهات والتذكير فتتفق هذه الآيات الكونية مع الآيات المنزلة المتلوة في إثبات وجود الله وقدرته القاهرة لقوم يعقلون ويدرسون ويفهمون فيعمق ذلك إيمانهم وتوثق صلتهم بربهم وخالقهم هذه واحدة.

٢ ــ يثير انتباه القلب لئل يغفل عن مراقبة الله الدائمة، ليعلم أنه سبحانه وتعالى معه أينما كان، مطلع على قلبه، عالم بكل أموره السرية والعلنية، بل وما دون السر، كيلا يفارقه وجدان التقوى، والخشية الدائمة، ومراقبة الله في كل حال، ومن ثم يتجدد عنده شعور الحب لله وتعظيمه والتطلع إلى رضائه على الدوام، والشوق إلى لقائه والأنس به دائما، والاطمئنان إليه في السراء والضراء ويتقبل قدره بالتسليم والرضا دون تضجر، أو قلق، ودون شكوى من الله إلى خلقه، ومحاولة الفرار منه إلى غيره، وإنما يفر منه وإليه ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾[١] لأن الأمر كله منه وهو الذي له الخلق كله، وله الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، وبيده الخير كله، ومَنْ مَنَّ الله عليه بهذه الحالة هو الذي يعيش الحياة السعيدة وقليل ما هم.

ويقول كاتب إسلامي معاصر[٢] في هذا المعنى وهو معروف لدى القراء المسلمين :

((وحين يعيش الإنسان في جو الإسلام والقرآن، لا يملك نفسه من حب الله تعالى حتى وهو يخشاه !. إنها عجيبة من عجائب العقيدة، في ظل العقيدة يتطلع القلب إلى الله بحب دافق وشوق دائم للقياه، ثم يقول الكاتب : إنه ليس عمل واحد، ولا كلمة واحدة، ولا شعور واحد، ولا لمسة واحدة، وإنما هو عمل مزيج من الأعمال والأقوال والمشاعر واللمسات، كلها في النهاية تحدث هذا الحب

(١) سورة الذاريات (٥٠)
(٢) الأستاذ الفاضل محمد قطب.

المتدفق الفياض، الحياة الدائمة مع الله في صفحة الكون، وباطن النفس، التطلع الدائم إلى الله في السموات، وفي الأرض، في الظاهر، والباطن، في السر والجهر.

المراقبة الدائمة في كل أمر.

الصلاة والعبادة. قراءة القرآن.

ومئات من المشاعر الخفيفة. واللمسات اللطيفة، إلى أن قال : في النهاية يتدفق في هذا الحب الواغل في الأعماق حب أعمق من أن يصفه اللفظ، وألطف من أن يمسكه التعبير، سارب في النفس، مشع في الكون، لا تمسكه الألفاظ ». ثم يقول الكاتب : وهو يعلل هذه الحياة النادرة الوجود اليوم : « ذلك لأنه يعيش، وهو مسلم لله بأنه هو مالك الملك، وهو موزع الأرزاق ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾(١).

فلا يلجأ إلا إلى الله إذ ما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته، إلا المذلة للناس والهوان والضعف والخسران المبين ﴿ **أيبتغون عندهم العزة، فإن العزة لله جميعاً** ﴾(٢). كذلك تصنع العقيدة في النفوس. إنها تولد فيها هذا الإطمئنان إلى الله والتسليم لقدرة الله والرضا بما يرضاه » ا هـ.

أعود فأقول : باستخدام هذه الوسائل التي ذكرناها، أو ذكرنا بعضها على الأصح يعقد الإسلام الصلة بين الإنسان وبين خالقه، وتولد هذه الصلة ذلك الاطمئنان العظيم.

وبعد : هذا ما يحدث كنتيجة لتربية الروح على المنهج الإسلامي فإذا كنا قد أطلنا الحديث عن الروح وتربيتها فلابد لنا من كلام موجز على الأقل عن الجسم وطريقة تربيته.

---

(١) سورة فاطر (٢)

(٢) سورة النساء (١٣٩).

طريقة الإسلام في تربية الجسم

إن الإسلام لم يهمل — كما نوهنا سابقاً — الجانب الجسمي في الإنسان، بل عامل الإنسان على أنه مادة وعقل وروح، وأولى عنايته بكل من هذه العناصر، وأعطى لكل عنصر احتياجه وضروراته، فكفل للجسم كل متطلباته ولوازمه إلا أنه ركز — كما رأينا — على العنصر الذي يميز الإنسان عن سائر الجمادات وهو الروح. أما الجسم فقد هيأ له جميع وسائل الراحة الجسمية، أحل له الطيبات، وحرم عليه الخبائث الضارة للجسم وحياته عاجلا أو آجلا، يسر له الطعام والشراب والمسكن والمتعة المباحة، ورفع عنه الحرج في التشريع.

﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[1]، (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)[2] وشرع له التداوي من الأمراض لئلا تفتك به (عباد الله ! تداووا إن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء)[3] هذه بعض الأمثلة السريعة لعناية الإسلام بجسم الإنسان، وأنه لم يهمله على حساب الروح، وإن ركز عليه كما رأينا، إذا العقل السليم في الجسم السليم كما يقولون.

أيها الحضور الكرام ! عندما نتحدث عن المنهج الإسلامي في مجال التربية وغيره من المجالات، لا نعني أن يعرف الناس هذا المنهج بمعرفة خصائصه ووسائله ومحاسنه معرفة ذهنية نظرية فحسب، وإنما نعني أن نعيش مع هذا المنهج، ونجني ثماره ليسعد به الإنسان المعاصر، كما سعد به من قبل من سبقنا في صدر هذا الإسلام وعصوره الذهبية أولئك الذي عرفوه حق المعرفة لأنهم عرفوه بعد أن جربوا غيره من المناهج الجاهلية، وعرفوا عيوبها، ثم انتقلوا إلى الإسلام عن إيمان وفهم، فأحبوه بل تفانوا في حبه وحب من أنزله وحب من جاء به وهو رسول الهدى ومربي البشرية عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سورة الحج (٧٨)

(٢) تقدم تخريج الحديث

(٣) البخاري : الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١٠/١٣٤) والترمذي : الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه (٤/٣٨٣)

وتمسكوا بالإسلام تمسك من ألقى في اليم بيد من أخذ بيده لينقذه من الغرق، وليكون سبباً في حياته، كيف يكون تمسكه به كذلك كان تمسكهم بالإسلام وفي هذا المعنى يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعمر من تعرفونه ذلك الرجل والصحابي المحدَّث، وعمر هو عمر دون حاجة إلى تعريف يقول عمر رضي الله عنه :

(أنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية).

ما أصدق هذا الكلام، وقد فسره واقع جمهور المسلمين اليوم، ما أكثر الجاهليات التي يتمسك بها كثير من المسلمين اليوم على أنه من الإسلام، وليست منه في شيء، ومن ذلك مناهج التعليم والتربية في كثير من البلدان الإسلامية، والتي يتخرج عليها أبناؤنا وفتياتنا، تلك المناهج التي تسمح للطالب والطالبة أن ينال الشهادة العالية بل الشهادات العليا في الدراسة الإسلامية، وهو لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه وكتابته، وبجانب ذلك لا يجيد لغة القرآن ـــ اللغة العربية ـــ وهي بحق لغة الإسلام ـــ إذن لا يمكن فهم كتاب الإسلام إلا عن طريقها، بل لا يمكن الفهم عن رسول الإسلام، وما جاء به من عند الله إلا بهذه اللغة، والمناهج التي تحول بين أبناء المسلمين دون هذا الغرض هي مناهج ضارة وداعية إلى الجهل بالإسلام، فهذا كمثال فقط لتصديق قول عمر رضي الله عنه، ولو تتبعنا أمثلة، تفسر لنا هذا الكلام العظيم للرجل العظيم عمر، لطال بنا الحديث، ولسبب ذلك الخروج عن موضوع المحاضرة، فلنعد إلى الموضوع.

أيها الإخوة الكرام ! إذا كنا لا نشك بأن الله هو خالق النفس البشرية، وهو خالق الحياة فلا شك أن خالق النفس وخالق الحياة هو أعلم وأخبر بالنفس وطبيعتها ومتطلباتها وبالحياة وظروفها في تطورها فإذا هو أولى وأجدر بتنظيم الحياة، وتربية النفس، بل هو الذي له الحق وحده في وضع منهج الحياة التربوي وغيره،

المنهج الذي يضمن للبشرية السعادة في الأولى والأخرى الذي يعتبر بحق سفينة نوح من ركبها سلم ونجا، ومن تخلف عنها غرق ولا شك، إذ لا توجد سفينة أخرى في الميدان ﴿ **إلا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين** ﴾[1] ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[2] فلنرجع إلى المصحف، ولنشرحه بالسنة، فهناك المنهج الصحيح، وهناك التربية السليمة، وهناك الحياة السعيدة، والله المستعان وصلى اللهم وسلم وبارك على من أرسلته رحمة للعالمين نبينا محمد وآله وصحبه.

الاقتـــراحات

أتقدم باقتراحات لا تتجاوز ثلاثة أرقام فقط خشية أن تكثر وتنسى :

١ ــ إحياء رسالة المسجد بأن توجد في كل مسجد مدرسة تحفيظ القرآن ونبذة يسيرة من كتب الأحاديث النبوية، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

٢ ــ أن توجد لكل مسجد هيئة يطلق عليها هيئة المسجد هي المسئولة عن مدارس تحفيظ القرآن إداريا وماليا، وعن طريقها تجمع التبرعات من الأهالي، فتكون هذه المدارس نواة للمدارس الأهلية التي لا بد من إيجادها إذا أردنا الإبقاء على ديننا، ولغة ديننا : اللغة العربية، ولعلكم على علم بأن المدارس الأهلية قد لعبت دوراً مهماً في شبه القارة الهندية في ميدان نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وقد بدأت تلكم المدارس بمدارس تحفيظ القرآن في المساجد ثم انتهت إلى التعليم الجامعي، ولا تزال تعمل وتؤدي واجبها إلى اليوم، وهناك جامعات كثيرة في كل من الهند وباكستان تخرج علماء فطاحل في علوم الحديث بالهند وعلوم القرآن واللغة العربية[3]، وأذكر على سبيل المثال الجامعة السلفية بنارس تحت إشراف جمعية أهل

---

(١) سورة الأعراف (٥٤)

(٢) سورة الملك (١٤)

(٣) انظر للاطلاع على جهود علماء شبه القارة الهندية في مجال علوم الكتاب والسنة. ١ ــ جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة (علم الحديث في الهند) ٢ ــ وجهود أهل الحديث في خدمة القرآن الكريم كلاهما من تأليف عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، والكتابان من منشورات الجامعة السلفية بالهند، وراجع أيضا مجلة الجامعة السلفية (سنة ١٤٠٢)، ومجلة الجامعة الإسلامية عدد (٤٩، ٥٥) مقال « الحركة السلفية في الهند ودورها في خدمة السنة المطهرة ».

الحديث لعموم الهند، والجامعة السلفية بفيصل آباد (بباكستان) وقد عملت في الجامعة السلفية بباكستان مدرساً منتدبا من الجامعة الإسلامية لمدة سنتين، وعرفت المجهود الجبار الذي يقوم به شعب باكستان في سبيل خدمة دينهم ولغة دينهم دون حاجة إلى الدولة إلا للاعتراف فقط.

والجدير بالذكر أننا صرنا نحتاج إلى استعارة علماء في علم الحديث من الجامعات الأهلية في الهند وباكستان ليقوموا بتدريس علوم الحديث في جامعاتنا في البلاد العربية، ويوجد الآن في الوقت الحاضر أساتذة من باكستان في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة يدرسون علوم الحديث والقرآن وهم خريجو الجامعات الأهلية هنالك.

أذكر هذا الواقع كاستشهاد بالواقع على الاستغناء عن المدارس الحكومية الرسمية بالمدارس الأهلية للمحافظة على تعاليم ديننا ولغة ديننا.

٣ ــ إيجاد لجنة دائمة لهذه الندوة المباركة التي جمعتنا هنا لتقوم دائماً بتنظيم المؤتمرات الإسلامية كما تقوم بزيارة بعض البلدان الإسلامية لتكسب خبرة في مجال المدارس الأهلية والجامعات الأهلية ودراسة مناهجها ثم العمل على ضوء تلك الخبرة المكتسبة.

٤ ــ إيجاد منح دراسية لأبناء نيجيريا في تلك الجامعات الأهلية التي تدرس بتوسع العلوم الدينية واللغة العربية ليتفهموا في دينهم ويعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم.



المحاضرة السادسة

مشاكل الدعوة والدعاة في العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم المتفضل تفضل علينا بنعمة الإسلام والدعوة إليه وصلاة الله وسلامه وبركاته على رسوله المصطفى والنبي المرتضى نبينا محمد وآله وصحبه أئمة الهدى ودعاة الحق والتابعين لهم على منهاجهم في الدعوة إلى الله تعالى. وبعد.

إن معرفة الدعاة سنة الله مع دعاة الحق قديماً وحديثاً، وكيف امتحن الله الرسل وأتباعهم، إن هذه المعرفة لمما يخفف على الدعاة وطأة المشاكل والمحن إذا ما أوذوا في سبيل دعوتهم ــ ولا بد أن يؤذوا ــ

ومما قاله ورقة بن نوفل لرسول الله عليه الصلاة والسلام عندما زاره صحبة خديجة أم المؤمنين ليخبره ما جرى له في جبل حراء مع جبريل مما قاله ورقة «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي »[1].

تلك هي سنة الله مع دعاة الحق، و ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾[2] لو ذهبنا لنرى كيف عاشت أول رسالة إلى أهل الأرض، وهي رسالة نوح عليه السلام رأينا الرسول نوحاً يقاسي من قومه صنوفاً من المشاكل من سخرية السفهاء وعناد المعاندين، وعلى الرغم من ذلك نراه يجابه الجاهلية ويصدع بالحق ﴿ **أن اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون** ﴾[3] وثارت الجاهلية، وعاندت، وكابرت، وأخيراً أخذ نوح يجأر إلى الله، ويدعو عليهم الدعاء الأخير :

﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً.. إنك إن تذرهم يضلوا**

(١) راجع : البخاري : بدأ الوحي، باب ٣ (٢٢/١)
(٢) سورة فاطر (٤٣)
(٣) سورة نوح (٣)

عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)[١] ولو تركنا نوحاً، وتمرد الجاهلية ودعاء نوح بالهلاك لنرى تلك المحنة التي عاشها خليل الرحمن إبراهيم إذ جاء إبرهيم إلى قومه بأسلوب لا يتوقعونه، إذ قام من توه بأسلوب يهدم الجاهلية، ليبني على أنقاضها الإسلام، الإسلام الذي لا يقبل الله سواه ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾[٢]

صاح فيهم صيحة الحق قائلا ﴿ **أفتعبدون من دون الله، مالا ينفعكم شيئاً، ولا يضركم، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾[٣]

فهاجت الجاهلية، وجن جنونها، وقررت أخيراً التخلص من الرسول ورسالته، وأصدرت قرارها القائل ﴿ **حرقوه، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾[٤] بيد أنه صدر من السماء قرار ﴿ **يا نار ! كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**)[٥] فأبطل هذا القرار مفعول قرار الجاهلية ولله الحمد والمنة، هكذا امتحن الرسولان الكريمان، ولكن العاقبة للمتقين.

موسى عليــه الســلام

أما موسى عليه السلام فقد تنوعت المشاكل معه ورافقته المحن والمخاوف وهو رضيع ثم شبت معه حيث أخذ يحاول الطاغية فرعون التخلص منه وهو رضيع، ثم بدأ يؤذيه سفهاء قومه من جهة فتجلد حتى بلغ رسالة ربه في وسط تلك الأمواج المتلاطمة من المحن المتنوعة، فيخبر القرآن آخر قصة موسى مع فرعون فيقول ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآيتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾[٦]

---

(١) سورة نوح (٢٦ — ٢٧)
(٢) سورة آل عمران (٨٥)
(٣) سورة الأنبياء (٦٦ — ٦٧)
(٤) سورة الأنبياء (٦٨)
(٥) سورة الأنبياء (٦٩ — ٧٠)
(٦) سورة القمر (٤١ — ٤٢)

عيســى عليه الســلام

إذا كان موسى عليه السلام قد رافقته المحن ــ كما قلنا ــ منذ أن كان في المهد صبيا فإن عيسى عليه السلام قد واجهته ألوان من الشكوك موجهة إليه وإلى والدته فور أن وجد في هذه الدنيا فقاسى ضروباً من العنت إذ اختلف فيه القوم بين قائل هو ابن الله أو الله نفسه وبين قائل هو ولد بغي فجعل عيسى عليه السلام يعرف القوم نفسه وحقيقته فيما تخبرنا به سورة مريم : ﴿ **قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا * والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون** ﴾[1] وعلى الرغم من هذه الحقيقة التي شرحها القرآن لم يزل القوم يتمردون عليه، ويؤذونه، ولكنه كان يقابل كل ذلك بالصبر الجميل، والتحمل، وكان محاطاً بعناية الله تعالى ؛ وقد تآمروا على قتله وصلبه، ولكن الله جعل فداءه ذلك الرجل الذي كان دليلا لهم يدلهم على مخبئه، فقتلوه ثم صلبوه، جزاء وفاقا. فأشاعوا بأنهم قتلوا عيسى، وصلبوه، فيوضح القرآن هذه الحقيقة، ويخبر أن تلك الإشاعة عنه ليس لها أصل من الصحة فيقول الله تعالى : ﴿ **وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[2].

محمد رسول الله والذين آمنوا به واتبعوه

مضت الأيام تلو الأيام، والشهور تلو الشهور، والدهور تلو الدهور ليحين وقت بزوغ فجر الإسلام من جديد، من واد غير ذي زوع، من عند بيت الله المحرم، بمكة، فولد محمد عليه الصلاة والسلام بمكة، وترعرع فيها، فعرف عند قومه

---

(١) سورة مريم (٣٠ ــ ٣٤)

(٢) سورة النساء (١٥٧)

منذ صغره بالصدق والأمانة، فكانت له شخصية وكسب شعبية بأخلاقه الكريمة ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1]، فلما كلفه ربه بتبليغ رسالته، وأن يصدع بالحق ﴿ فاصدع بما تؤمر، واعرض عن المشركين ﴾[2] فدعاهم إلى الإسلام، واستنكر القوم هذه الدعوة، واستغربوا هذا الأسلوب الجديد الذي لا عهد لهم به، والرسول ينادي فيهم : (قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا !)[3] فأدرك القوم معنى هذه الكلمة، وأنها تعني القضاء على المتهم والقضاء عليها يقضي على نفوذهم الواسع وسلطانهم الجاهلي.

فلما كان لصاحب الدعوة من المكانة في أنفسهم سابقاً، لم يتجرأوا في أول الأمر على قتله، وقتل دعوته في مهدها، بل اتبعوا أساليب شتى قبل قرار القتل الذي سوف نتحدث عنه إن شاء الله، فعرضوا عليه المال أو الجاه والرياسة، ولم ينجح العرض إذ رأوا أنه ليس لديه أدنى ميل إلى هذه الأمور التي يرونها عظيمة، فعمدوا إلى أسلوب خسيس يريدون به تدمير أعصاب الرسل — لو استطاعوا — والقضاء على الروح المعنوية العالية فأخذوا يقترحون إقتراحات ساخرة، يحدثنا القرآن عن شيء من ذلك؛ فيقول :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ° أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ° أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾[4] ولما لم ينجح هذا الأسلوب أيضا، أخذوا يفترون على من سموه من قبل أنه الصادق الأمين، ويلقبونه بألقاب مفتريات، ويشيعون ضد الدعوة إشاعات، هم يعلمون عدم صحتها قبل غيرهم، ولم يتركوا باباً من المكر والمكيدة إلا طرقوه، وها هو القرآن يحدثنا عن مكرهم :

(١) سورة القلم (٤)
(٢) سورة الحجر (٩٤)
(٣) مسند أحمد (٣/٤٩٢، ٤/٦٣، ٣٤١، ٥/٣٧١ ، ٣٧٦)
(٤) سورة الاسراء (٩٠ — ٩٣)

﴿ وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾.[1]

ولما لم تنجح جميع الوسائل التي أشرنا إليها من عرض المال، والرياسة، والسخرية، والشائعات، والافتراءات وهي ما يسمونه بالحرب النفسية لجأ القوم إلى الحرب الحسية ينالون بها من صاحب الرسالة وأصحابه، فجروا أحقادهم، فعقدت جلسة خاصة ومهمة لسادات قريش في الحجر، واستعرضوا الموقف ودرسوه، وعددوا ما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، وما قال في حقهم وفي حق آلهتهم، قالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط؛ سفه أحلامنا وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا وشتم آباءنا، وعاب ديننا إلى آخر ماعددوه، ومن باب الموافقة أن يمر بهم النبي علية الصلاة والسلام، وهم يتحدثون في أمره. فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به من كل جانب وصاحوا به قائلين : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ فيجيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام، بكل ثقة وثبات : نعم ! أنا أقول كذا وكذا وأرادوا قتله فأدركهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه فانبرى للدفاع عنه، فأخذ يدفع هذا، ويجع هذا في بطنه، وهو يقول : (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) ؟

ولما أعجزتهم جميع الحيل، عقدوا مؤتمرا خطيراً في زعمهم في الأيام التي أخذ المسلمون يهاجرون فيها إلى المدينة، وظنوا أن الفرصة سانحة فلا تفوت، ومن الاقتراحات المهمة التي طرحت على بساط البحث والمناقشة للتخلص من النبي ودعوته هي الآتية :

١ ـــ أن يسجن سجناً مؤبداً ولا يفك.

٢ ـــ أن يقتل على أيدي عدد من شباب قريش ينتخبون من عدة قبائل ليتفرق دمه بين القبائل.

٣ ـــ أن ينفى من البلد.

---

(١) سورة ابراهيم (٤٦)

ولما وضعوا خطتهم وحزبوا أمرهم، كشف الله السميع القريب أسرار مؤتمرهم ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك. ويمكرون، ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾[1] هذا، وكانت المحنة على ضراوتها وقسوتها،لا تزيد محمداً عليه الصلاة والسلام وصحبه إلا صلابة وتصميماً، تصميماً في المضى مهما كانت التضحيات.

وفي الوقت الذي كانوا يؤذونه عليه الصلاة والسلام هذا الإيذاء كانوا يؤذون المؤمنين به ويعذبونهم بألوان العذاب، وقد سجل التاريخ ما فعل أمية بن خلف ببلال الحبشي في بطحاء مكة ليكفر بمحمد، ويعبد اللات والعزى، ولا يزيد بلال على قوله أحد أحد وهو تحت تلك الصخرة، ولكن إيمانه كان أعظم وأثبت، وكانت هذه الكلمة من بلال تعنى الهتاف بلا إله إلا الله، وقل هو الله أحد وفي مكان آخر من مكة أيضاً نرى آل ياسر يعذبون ويفتنون ليكفروا بالأسلام، ويعبدوا اللات والعزى، ويموت الأب وهو شيخ كبير تحت التعذيب من توه كما تقول بعض — روايات السيرة.

أما الأم الشجاعة فقد أغلظت القول على أبي جهل، فطعنها لشدة جهله برمحه، فقتلها فهي أول شهيدة في الأسلام، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يمر بآل ياسر، وهم يعذبون فيقول لهم (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2].

وقد شهدت أيام النبوة أبطالا خلد التاريخ بطولتهم وشجاعتهم وثباتهم على عقيدتهم مهما كلفهم ذلك من الثمن، ولو كان الثمن إزهاق أرواحهم الطاهرة فلنتخذ منهم خبيب بن[3]عدى كمثال فقط لندرك أثر العقيدة في نفوسهم.

يقول علماء السيرة أن خبيباً أحد الذين بعثهم النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة الأنفال (٣٠)

(٢) تهذيب الأسماء للنووى.

(٣) انظر قصته في صحيح البخاري : المغازي، باب ١٠ (٣٠٨/٧ — ٣٠٩) وباب غزوة الرجيع .... وعضل والقارة (٣٧٨/٧ — ٣٧٩)

إلى بعض القبائل التي تسكن بين مكة والمدينة، وهي قبيلة عضل وما جاورها من القبائل فبينما هو في طريقه اعتقل ثم حمل إلى مكة وباعه المجرمون لبني الحارث بن عامر بن نوفل، ليقتلوه بحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر، وفي اليوم المحدد لقتله خرجوا به من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه في الحل بعد أن يصلبوه، فاستأذن منهم ليصلي ركعتين، يناجي فيهما ربه، وهو ساجد فأذنوا له، فصلّى ركعتين حسنتين، فلما فرغ، فأقبل عليهم فقال : أما والله لولا أن تظنوا إنني لجزع من الموت لاستكثرت، أو لأطلق فرفع خبيب على الخشبة فقيل ارجع عن الاسلام نخلي سبيلك. فقال : لا والله، ما أحب أن أرجع عن الأسلام، وأن لي ما في الدنيا جميعا، وله دعوة مستجابة على الكفار في هذه المناسبة في كتب السير وكتب الحديث ولا نطيل بذكرها.

ومما قاله خبيب وهو معلق مصلوب ﴿ **اللهم إني لا أرى إلا وجه العدو اللهم أنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك عني السلام بلغه عني أنت** ﴾ فبلغ جبريل سلامه إلى النبيﷺ فأخبره النبيﷺ أصحابه.

فأخذوا يمزقون جلده أشلاء برماحهم وهو يترنم بأبياته المشهورة التي منها :

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا	قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي	وما أرسل الأحزاب عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على الأوصال شلو ممزع
ولست أبالي حين أقتل مسلماً	على أي جنب كان في الله مصرعي

وفي وسط هذه المحن والمشاكل المحزنة أظهر الله دينه، وقويت شوكته وأعز الله أتباعه حتى قامت له دولة في طيبة فطابت لأتباعه، وطاب مقامهم بها، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يستقبل الوفود تلو الوفود، وهم يدخلون في الإسلام ويسألون عن تعاليمه، وفي الوقت نفسه يرسل جيشه إلى الأطراف، ليدعو إلى الله بالتي هي أحسن أولاً، وللمعاند السيف، هكذا أظهر الله الإسلام وأعز أهله، ولو كره الكافرون.

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(١)، ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ° هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله ولو كره المشركون ﴾(٢).

ثم سلم الرسول الزمام لرجال أمناء تسلموا الدعوة وساروا بها سيرتها الأولى لم يغيروا ولم يبدلوا، فأخذوا يفتحون القلوب قبل أن يفتحوا البلاد فأقبل الناس على الإسلام محبة وتقديراً لحملته لما رأوا فيهم الرحمة والإنصاف والعدل وعدم التناقض، وهي الصفات التي جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

هكذا مثل الإسلام أصحابُ رسول الله وأتباعهم وحببوه إلى الناس ثم انتهت تلك القرون التي هي بحق خير هذه الأمة (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)(٣).

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الدعوة، وشوهوا الإسلام، وأدخلوا فيه ما ليس منه، فاشتدت غربة الدّين من جديد، فوقع الدعاة في مشاكل ومحن غير متوقعة، إذا واجهت الدعوة صنوفا من الضغط والاضطهاد من أولئك الذين يتظاهرون بالإسلام بل في زعمهم أنهم أتباع صاحب الرسالة والمحبين له.

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة　　　على المرء من وقع الحسام المهند

مشاكل الدعوة بين الماضي والحاضر

وقد استعرضنا عرضا سريعاً مشاكل الدعوة عبر التاريخ الطويل للدعوة اعتباراً من عهد نوح عليه السلام إلى العصر الحديث محاولين الربط بين ماضي

---

(١) سورة المنافقون (٨)
(٢) سورة الصف (٨ — ٩)
(٣) تقدم تخريجه.

الدعوة وحاضرها لنقارن بين المشاكل والمحن المحدقة بالدعوة والدعاة فيهما، وتبين لنا من هذا العرض أن المشاكل التي واجهتها الدعوة في الماضي البعيد والقريب كان مصدرها أعداء الدعوة المكشوفة عداوتهم الذين يعادونها علنا مما جعل الدعاة يحذرونهم، ويحتاطون لمكائدهم، ولا يفاجأون إذ ظهرت بل يقابلونها بكل ثقة وثبات دون اضطراب أو قلق.

أما في العصر الحديث فتواجه الدعوة الإسلامية ودعاتها مشاكل ومحنا لا قبل لهم بها من المنتسبين إلى الإسلام، بل من المنتسبين إلى الدعوة نفسها أحياناً كما سيأتي بيان ذلك.

نوعية المشاكل في الماضي

أما نوعية المشاكل والمحن في الماضي قريباً كان أو بعيداً تتجلى فيما يلي :

١ ـــ إيذاء الدعاة في أنفسهم وأتباعهم وتعذيبهم لمحاولة إيقاف الدعوة.

٢ ـــ وربما قدموا لهم بعض المغريات كالأموال والمناصب والرياسة ولكن دون جدوى.

٣ ـــ محاولة القضاء على الدعوة في مهدها، بقتل صاحب الدعوة أو حبسه أو نفيه وإخراجه من أرضه، وإبعاده في الآفاق كما مر بنا تفصيل ذلك.

هكذا كانت نوعية المشاكل في العصور الغابرة، وكلها باءت بالفشل كما رأينا إذ جعل الله العاقبة للرسل وأتباعهم ونصرهم على أعدائهم ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾(١).

﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنفال (١٠).

(٢) سورة الصافات (١٧٢ ـــ ١٧٣)

نوعية المشاكل في العصر الحديث

تعيش الدعوة الإسلامية في العصر الحديث حياة لا تعرف لها مثلا في العصور الغابرة وقد تنوعت المشاكل وتعددت، مما جعل دعاة الحق يحتارون في أمر الدعوة ومشاكلها المتنوعة وكيفية التغلب عليها، حتى صار هذا التفكير شغلهم الشاغل، وفي الإمكان أن نوجز أهم تلك المشاكل فيما يلي :

(أ) الجهل أي عدم تصور الإسلام تصوراً صحيحاً.

(ب) التناقض الذي يصيب بعض الدعاة أحياناً.

(جـ) النفرة وعدم الانسجام بين المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية.

(د) وجود بعض الطوائف الضالة التي تعمل في بعض البلاد باسم الإسلام (كالقاديانية).

(هـ) المناهج العقيمة المقررة في كثير من جامعاتنا.

(و) آثار الاستعمار الباقية في كثير من البلدان الإسلامية.

تفصيل الكلام على المشاكل الست :

١ ــ الجهل : حقاً إن الجهل داء، فعلى الداعية أن يبدأ بتكوين نفسه، وعلاج دائه قبل أن ينزل الميدان للدعوة، وذلك فالفهم الصحيح، بأن يوجه اهتمامه إلى أخذ العلم من مصدره الأصيل الكتاب والسنة على أنهما هما المصدران للشريعة أصولها وفروعها، وبدراستهما يحصل العلم النافع والهدى والسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة. ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[(١)] ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (أوتيت القرآن ومثله معله)[(٢)] كما

---

(١) سورة الأسراء (٩).

(٢) تقدم تخريجه.

ينبغي له أن يدرس السيرة العطرة، ولا بأس أن يطلع على ما تزخر به المكتبة الإسلامية الحديثة من كتب قيمة تستند إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة في بحوثها ومعالجتها للحوادث العلمية.

وبذلك يتكون لدى الدارس تصور صحيح لهذا الدين في أحكامه وتشريعاته وعقيدته وعبادته وأخلاقه.

وبذلك يحصل له الفقه في الدّين. وهو التصور الصحيح للأسلام — كما قلنا — يتصور ويفهم فهماً دقيقاً معنى الألوهية، ومعنى العبادة، ومعنى الجاهلية، وما أصدق كلام عمر بن الخطاب إذ يقول : (إنما تنقض عرى الأسلام عروة عروة إذا نشأ في الأسلام من لم يعرف الجاهلية)[1] هو الفقه الذي يريده النبي عليه الصلاة والسلام في قوله : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدّين)[2].

وعدم هذا الفقة هو الذي جعل أهل الكلام يسمون فلسفتهم توحيدا، وتعطيلهم تنزيها، وإثبات غيرهم تشبيها، وألفوا في ذلك مؤلفات تدرس اليوم في كثير من معاهدنا وجامعاتنا باسم التوحيد وليس فيها طعم التوحيد ولا روحه، بل قد أبعدوا النجعة فهم كما قال القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

وهؤلاء في واد، والتوحيد والعقيدة في واد.

فكم حالت تلك المؤلفات بين شبابنا وبين فهم العقيدة الإسلامية التي نطق بها الكتاب والسنة، نتيجةً للتصور الخاطىء للإسلام وعقيدته، ولقد أحسن من قال :

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه في بحث الأولياء (تصحيح المفاهيم)

العلـــم قال الله قال رسولـــه   قال الصحابـه ليس بالتمويـــه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة   بين الـرسول وبين رأى فقيـــه
كلا ولا جحـد الصفـات ونـفيها   حذراً من التمثيـل والتشبيـــه

هذا، وإن عدم الفقه الدقيق هو الذي حمل العُبّاد أو المنتسبين إلى التنسك والتعبد على ابتداع طقوس بعيدة عن روح الإسلام، وأطلقوا عليها أسماء من عند أنفسهم على حساب الإسلام، وفرقوا بها جماعة المسلمين، ووزعوهم على تلك البدع، وأعلنوا عن أنفسهم أنهم أهل الله وأحباؤه. ولهم صلاحية ليست للأنبياء والرسل، إذ في إمكانهم أن يأخذوا الدّين وشرائعه عن الله مباشرة بغير واسطة جبريل، ودون حاجة إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

هكذا تدعو جهلة الصوفية إلى الردة من حيث لا تشعر، أو من حيث تشعر بالنسبة لأقطابهم، ومن تلكم الطرق المبتدعة الطرق الآتية أسماؤهم :

١ ـــ الطريقة التيجانية.

٢ ـــ الطريقة القادرية.

٣ ـــ الطريقة السنوسية.

٤ ـــ الطريقة المرغنية.

إلى آخر تلكم الأسماء التي وزعت المسلمين طرائق قددا وسماها أولئك الذين لا فقه لهم في الدين أنها من طوائف المسلمين،بل زعم بعض هؤلاء أن أصحاب هذه الطرق من دعاة الإسلام، وأنهم هم الذين انتشر الإسلام بدعوتهم في العالم، يا لها من فرية ما أفظعها، ويا له من جهل ما أقبحه.

إن هي إلا بدع سميت بغير أسمائها لو كانوا يفقهون.

ولا يستكثر على مشايخ الصوفية أن يأتوا كل بدعة، وأن يقولوا كل قول بعيد عن الصواب لأنهم أوعية جهل ـــ لو صح هذا التعبير ولعلي لا أثقل عليكم لو نقلت لكم بيتاً صوفياً يشتمل على الوعظ والإرشاد في دين الصوفية وهذا نصه :

فأكثر ما استطعت من الخطايا   إذا كان القدوم على الكـــريم[1]

وأتركه هكذا دون تعليق لتأخذوا حريتكم في التعليق : وجهلهم مركب وهو من أقبح نوعي الجهل كما لا يخفى، ولكن الذي يخجل ويحمل المرء على الاستغراب أن يتبنى الدعوة إلى هذه الطرق المبتدعة، ويعد أصحابها من دعاة المسلمين، علماء أجلاّء ولو في نظر العامة ودكاترة محترمون، كيف جهلوا بأن هذه الطرق عقبة من العقبات التي يشكو منها دعاة الحق في كل مكان، وليس بينها وبين الإسلام صلة قرابة إذ تتنافى، وتعاليم الإسلام في أصوله وفروعه، ودعوى أنها من البدع الحسنة دعوى عارية عن الدليل، ولا يوجد في الإسلام ما يسمى بالبدعة الحسنة. ورحم الله الإمام مالكا إمام دار الهجرة إذ يقول : (من ابتدع في الإسلام بدعة فرآها حسنة فقد اتهم محمداً بالخيانة وعدم التبليغ)[2] أو كما قال الإمام رحمه الله.

حقاً إنه لا يكون ديننا اليوم مالم يكن ديننا أمس في عهد النبوة. ولعمري لقد عظمت المصيبة على الأمة الإسلامية في العصر الحديث بهاتين البدعتين بدعة الكلام وبدعة الطرق الصوفية.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٦٧.

(٢) قال ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً عليه الصلاة والسلام خان الرسالة، لأن الله يقول : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم ديناً،

(الاعتصام للإمام الشاطبي ٤٩/١) هذا، وما أحسن ما ذكر الشاطبي في الإعتصام (١٣٢/١) ومن قبله الهروي في ذم الكلام (١/٥٤/٣) عن الزبير بن بكار قال : حدثني سفيان بن عيينة قال : سمعت مالك بن أنس، وأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ! من أين أحرم ؟ قال : من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال : لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة، فقال : وأي فتنة في هذه ؟ إنما هي أميال أزيدها ؟ قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ ؟ ! إني سمعت الله يقول :

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) !

وراجع أيضا : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة في رقم ٢١٠ (٢٤٧/١ — ٢٤٨)

وأخرج أبو نعيم في الحلية بسند آخر عن مالك نحوه مختصرا (٣٢٦/٦)

أما بدعة الكلام فقد صرفت شباب الجامعات، وكثيراً من طلاب العلم في المساجد في كثير من البلدان الإسلامية عن دراسة العقيدة الإسلامية التي كان عليها سلف هذه الأمة والتي نطق بها الكتاب، وشرحتها السنة، فقد جهلها كثير، من شبابنا المخدوعين بذلك الكلام المذموم الذي ذمه أئمة المسلمين وحذروا منه.

ومن المغالطات الغريبة أن يطلق على عقيدة طائفة من أهل الكلام أنها عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي بعيدة عن السنة، وعما كانت عليه الجماعة بعدهما عنها. وهم يدخلون في عموم قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾(٢).

وقد شغلت تلكم المغالطة وزخرف القول فراغ قلوبهم، واستولت على عقولهم، ولم يبق مكان لقبول الحق إلا من رحم ربك وأدركه بلطفه.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه :(٣).

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده. هكذا كما أنه في الأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات. فإذا كان القلب ممتلأً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع.

فلنسمع ما قاله بعض أئمة الهدى في ذم الكلام وأهله :

١ ــ قال الإمام أبويوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة وصاحبه (من طلب

---

(١) سورة الحج (٨) وسورة لقمان (٢٠)
(٢) سورة الحج (٣ ــ ٤)
(٣) الفوائد

الدّين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس. ومن طلب غريب الحديث كذب ﴾[1].

(قال الإمام الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ويضربوا بالجريد والنعال ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام[2]، وقال : وقد أطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت أن مسلما يقوله، ولأن يبتلي العبد بكل ما نهى عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام »[3].

وما أروع ما قال الإمام مالك رحمه الله. (أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام لجدله) ؟ ؟[4].

فكم كان غريبا ومثيراً ينتسب هؤلاء الكلاميون إلى الأئمة المذكورين في الفروع الفقهية، ثم يخالفونهم في أصول الدّين فيما يعتقدون نحو ربهم ! !.

فهل يعتقد هؤلاء البلداء أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السلف كانوا على ضلال في عقيدتهم وأصول دينهم بينما هم على حق في الفروع ؟ ؟

هذا ما يستنتج من موقفهم رضوا أم أبو ! ! إنها قضية ولا أباحسن لها ! ! ـــ كما يقولون، وأما بدعة طرق الصوفية فهي الأخرى، قد حجبت كثيرا من المخدوعين لها عن فهم حقيقة العبادة في الإسلام، حتى ظن جمهور المخدوعين أن التعبد أو التنسك معناه التصوف، وبالتالي غيرت الصوفية لديهم مفهوم الذكر، فقد ظن أكثرهم أن ذكر الله ـــ عبارة عن اجتماع لفيف من الناس في مكان ما ـــ وفي

---

(١) شرح الطحاوية ص ٢٢٩، وأخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (٥) واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/١٤٥) وابن بطة في الإبانة (١/٥٠/أ)

(٢) شرف أصحاب الحديث (٧٨)

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٩) وأدب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي، والحلية لأبي نعيم (٩/١١١) وتبيين كذب المفترى لابن عساكر (٣٣٥) وجامع بيان العلم (٢/٩٥) والأنتقاء (٧٨) كلاهما لابن عبد البر والآداب الشرعية لابن مفلح (١/٢٢٣ و ٢/١٣٣).

(٤) حلية الأولياء (٦/٣٢٤) وسير أعلام النبلاء (٨/٨٨)

الغالب يكون عند ضريح من أضرحة المشايخ والسادة ويعقدوا حلقات يطلق عليها ــ ظلماً وعدواناً ــ حلقات الذكر، ثم يأخذون في التمايل يمينا ويساراً، وهم يقولون : الله، الله، وأخيرا هو، هو وإذا حمى الوطيس، فلا نسمع إلا حوه حوه أو حوه أو ح ح . وقد يطفأ السراج ــ إن أقيمت الحضرة ليلا ــ ليأخذ الذاكرون حريتهم، وليصل الذكر إلى حد الكمال، ويصل الواصلون ! ! ياللإسلام ما أعظم مصيبة أتباعه !

وأما العبادة عند المتصوفة فهي عبارة عن إقامة الحفلات الموسمية كالاحتفال باسم المولد النبوي، والاحتفال باسم الاسراء والمعراج، وعيد أو السنة الهجرية، وعيد النصف من شعبان، وصورت الصوفية لجمهور المخدوعين أن هذه الاحتفالات والأعياد هي الإسلام، بل هي من أعظم ما يتقرب به المسلمون إلى الله، فطالما يحافظون عليها فهم بخير، والحمد لله شرقوا أو غربوا أو ألحدوا أو وحدوا والعبارة المخدرة لا تفارق ألسنتهم (أمة محمد بخير).

ولا يشك الباحث الفهيم المهتم بشئون الدعوة الإسلامية أن أفظع فتنة فتنت بها هذه الأمة في العصر الحديث فتنة علم الكلام، وفتنة التصوف، وجميع المشاكل التي سوف نتحدث عنها إن شاء الله تتفرع معظمها عن هاتين البدعتين والله المستعان.

٢ ــ التناقض :

إذا تحدثنا عن حاجة الدعاة إلى التصور الصحيح للإسلام، وأن عدم تصورهم للمفهوم الصحيح للإسلام هو عقبة من العقبات في سبيل الدعوة، إذا أثبتنا حاجتهم تلك، فهم إلى التطبيق العملي والتفاعل مع الإسلام أحوج. بحيث تكون حياتهم ترجمة واضحة لمنطوق الإسلام وصورة كريمة تمثل الإسلام، وتحببه إلى الناس فالأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى دعاة، يتوسمون خطى الدعوة في أقوالهم وأفعالهم، في حياتهم الخاصة، في أنفسهم، وفي بيوتهم وفي حياتهم العامة، ليصبحوا بذلك قدوة للمجتمع الذي يعيشون فيه، والداعية الناجح هو الذي يهذب الناس

بسيرته قبل أن يهذبهم بلسانه، ويدعوهم إلى الله بخلقه، وحسن سلوكه قبل أن يقول شيئاً بلسانه.

فكم تشكو الدعوة الإسلامية في العصر الحديث من تناقص الدعاة، تشكو من دعاة يعظون ولا يتعظون، يقولون مالا يفعلون، يأمرون ولا يأتمرون، ينهون ولاينتهون، دعاة تكذب أفعالهم أقوالهم في الغالب، نسمع خطباً منبرية قوية، وتحمسات، وانفعالات، وثرثرة، ولا شيء غير ذلك (نسمع جعجعة ولا نرى طحنا).

وقد بلغ الأمر والحال، ببعض من ينتسب إلى الدعوة والإصلاح أنه قد يترك الصلاة، أو صلاة الجمعة، وإذا سئل عن ذلك يكون الجواب أنه في إجازة.

وبعد، هذا صنف من الدعاة إلى الإسلام فما رأى المستمع الكريم ؟ ! !

٣ ــ النفرة وعدم الانسجام.

توجد في العصر الحديث جماعات تدعو إلى الله، ولكنها في الغالب تتخبط على غير بصيرة، فالواجب على دعاة الحق أن يكونوا على بصيرة، فاهمين ما يدعون إليه، ومتصورين له : ومؤمنين به.

﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني ﴾(١) هاتان صفتان لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

١ ــ القيام بواجب الدعوة.

٢ ــ أن يكسبوا البصيرة قبل أن يشرعوا في الدعوة.

البصيرة هي العلم الذي مصدره الوحي والفقه الدقيق الذي يستفيد منه الداعية الحكمة، وحسن الأسلوب، وكسب القلوب، والتحبب إلى الناس دون تملق ولا نفاق، والتحابب بين المسلمين عامة، وبين الدعاة خاصة أمر ضروري لحياة الدعوة بل سبب لرضى الربّ تعالى ودخول دار الكرامة (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا

(١) سورة يوسف (١٠٨)

تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم)[1].

ومما تشكوه الدعوة الإسلامية هذا اليوم النفرة وعدم الإنسجام وقلة التعاون بين الجماعات التي تتصدى كل واحدة منها للدعوة إلى الله. وفي الواقع أن أكثر تلكم الجماعات بحاجة ماسة إلى من يدعوهم إلى الله ويبصرهم في دينهم حتى يكونوا مؤهلين أولاً في أنفسهم للدعوة بالقضاء على التنافر فيما بينهم وتنافر مناهجهم وبراجهم في العمل.

وهذه الجماعات أشبهها بالأحزاب السياسية المتنافسة لمصالحها الشخصية، وأغراضها الذاتية، وهي ذاتها محنه من المحن، ومشكلة من المشاكل للدعوة والدعاة معا، إذا هي بقيت على وضعها، ولم تعد النظر في سلوكها، ومنهج عملها، وبرامجها، وأساليب دعوتها وسياستها، فخطرها على الدعوة يفوق كل خطر، يهدد الدعوة من خارجها. فعلى هذه الجماعات أن تدرس تاريخ الدعاة الأولين من الصحابة والتابعين الذين نطق بهم القرآن، وبه نطقوا، والذين انتشر الإسلام بدعوتهم، بل عليهم أن يفهموا الدّين كما فهم أولئك السادة، ويسيروا سيرتهم، وينسجوا على منوالهم مع ملاحظة الأساليب المناسبة في العصر الحديث والملابسات والظروف وأحوال الناس.

وإن لم يسلكوا هذا المسلك، فسوف لا يكتب لدعوة أي نجاح أو أي تقدم لأنه عمل لم يستوف الشروط، وهو عمل غير صالح، وسوف لا يجدى ما أوتى أصحابها من الدهاء وسحر البيان والجدل والاستغفال. أجل ! قد ينطلي هذا الاسلوب على بعض الناس فترة من الزمن، ويحسبهم صادقين في دعوتهم لكثرة لمعان الاسلوب، ولكنه لا ينطلي على الله الذي بيده النجاح والتوفيق، فعليهم أن يراقبوا الله وحده، لأنه هو الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، لا إله إلا هو ولا ربّ سواه، وهو المستعان.

---

(١) تقدم تخريجه.

٤ ـــ المناهج التعليمية :

مما منيت به الدعوة الإسلامية في هذا العصر أن كثيراً ممن يتصدون للدعوة إلى الإسلام، أولئك الذين يتخرجون في الجامعات التي تدرس تلكم المناهج العقيمة البالية التي لا تنتج إلا الجهل بحقيقة الإسلام والجمود الفكري وبرودة الهمة.

فيتخرج الطالب وليس أمامه أي هدف إلا البحث عن وسيلة العيش فقط، فيأخذ يطرق الأبواب التي تؤمن له العيش فإذا لم يجد سبيلا إلى ما يريد أن يوظف كداعية أخذ شهادته المزر كشة في طولها وعرضها، وعرضها على الجهة المسؤولة عن الدعوة رسمياً فوظف تحت عنوان :

الداعيــة ! !

فينزل الداعية الجديد الميدان ليدعو إلى الله وليس لديه أي تصور للدعوة في أسلوبها وسياستها وآدابها، ودراسة أحوال المدعوين فيتخبط خبط عشواء يميناً ويساراً على حساب الدعوة الإسلامية المظلومة التي أصبحت (تكية) يتعيش منها كل محتاج إلى العيش ـــ هل يقوم بواجب الدعوة أولاً يقوم ؟ هذا السؤال غير وارد.

نوعية المنهج :

يحسن بنا أن نعرف شيئاً عن هذه المنهج الذي تحدثنا عنه، ووصفناه بأنه منهج غير صالح، وأنه عقيم لئلا يكون كلامنا مجرد دعوى لا بينة لها، فلنتخذ من مواد المنهج كله ثلاث مواد رئيسية تمثل المنهج كله فيما قلنا عنه :

١ ـــ مادة التوحيد.

٢ ـــ مادة الفقة.

٣ ـــ مادة التاريخ.

أولا : أن مادة التوحيد ليس لها قسم خاص، وإنما تدرس في قسم الفلسفة، وهذا يعني أن التوحيد عندهم مادة من مواد الفلسفة، وفي الواقع أن الفلسفة شيء

والتوحيد شيء آخر لا صلة له بها إن كان التوحيد هو ذلك الذي نطق به الكتاب والسنة، ولا علاقة لفلسفة أرسطو وأفلاطون بالتوحيد الذي يؤخذ من الوحي ؛ الثرى غير الثريا.

بعض الكتب المقررة في مادة التوحيد :

من أمهات الكتب التي تدرس هذه المادة الخطيرة :

١ ــ أم البراهين.

٢ ــ حاشية الباجورى على السنوسية.

٣ ــ حاشية الباجورى على جوهرة التوحيد.

٤ ــ حاشية الدسوقى.

٥ ــ الهدهدى.

٦ ــ الشرقاوى .. الخ.

الموضوعات التي تشتمل عليها هذه الكتب :

تبحث هذه الكتب الموضوعات التالية :

(أ) ــ مبحث الاستواء والعلو.

(ب) ــ مبحث المحبة والرحمة.

(ج) ــ مبحث الغضب.

(د) ــ مبحث الكلام وغيرها، ولكننا نخص بالبحث هذه الصفات التي اخترناها لأهميتها، وهذه الصفات كلها يدرسها الطالب لا ليثبتها، ويؤمن بها على مراد الله، ومراد رسوله كما جاءت. ولكن يدرسها ليتعلم كيف يردها، ويعطلها، وينفيها عن الله، بدعوى أنها لا تليق بالله على الرغم بأن الله هو الذي أثبتها لنفسه.

﴿ **أأنتم أعلم أم الله** ﴾ والله سبحانه وتعالى هو أعلم ما يليق، ثم يسمون ذلك التعطيل والنفي تأويلا وتنزيها، وهل يغير حكم الخمر تسميتها ماء زلالا أو لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ؟ ؟ ! !

فتجد الطالب يدرس مالا يقبل عقله الحر، لو ترك على حريته، ولكنه مضطر أن يدرس، وأن يقبل كل ما يدرسه مما جاء في تلك الكتب : مكره أخاك لا بطل : فيقول المنهج مثلا لا يجوز أن يعتقد بأن الله في العلو وآيات الكتاب الكريم والسنة المطهرة والعقل الصحيح والفطرة السليمة كل أولئك يثبتون علو الله على خلقه، وأنه ليس في ذاته شيء من خلقه ولا في خلقه شيء من ذاته وهو فوق سماواته بائن من خلقه بل كل أحد يجد من نفسه ما يدفعه إلى اعتقاد العلو، ويرفع أكف الضراعة إلى العلي الأعلى قبل أن يستشير علماء الكلام، هل ذلك لائق أم لا ؟ وهو أمر فطرى، ولم ينقل خلاف ذلك إلا عن بشر المريسى أحد الجهمية مع أنه يقول سبحان ربي الأسفل. قبحه الله هو وأتباعه.

فيعيش الطالب حياته كلها في هذه الاضطرابات الفكرية حائراً ما يدري ماذا يفعل ؟

هل يصدق المنهج على علاته فيقع في الإلحاد في صفات الله وأسمائه ؟ وهل يتجرأ على مخالفة المنهج ليتبع ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام من ربه وفي ذلك صلاحه ونجاحه ؟.

فلنسمع بعض النصوص التي يرى المنهج وجوب تأويلها وأن ظاهرها لا يليق بالله.

١ ـــ ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[١]، إن الله كتب كتاباً، وهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي[٢].

---

(١) سورة طه (٥)

(٢) صحيح البخاري : التوحيد، باب وكان عرشه على الماء (١٣/٤٠٤)

٢ ـ ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾[١].

٣ ـ أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[٢].

٤ ـ ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾[٣].

هذه النصوص وأمثالها نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام، وعلمها أصحابه، وفهموها، وآمنوا بها، ولم يروا وجوب تأويلها، بل لم يتكلموا فيها بشيء وهكذا من جاء من التابعين إلى عهد المأمون العباسي في المائة الثانية، فدبت فتنه الكلام إلى صفوف المسلمين بواسطة الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية في الفلسفة والمنطق.

فسلطت على المطالب الإلهية فأعرض الناس عن النصوص في هذا الباب، فصاح فيهم شيطان الفلسفة، وعلم الكلام بأن النصوص لا تفيد اليقين، وأنها ظنية، وأن الأدلة العقلية هي اليقينية، ودعوا عنكم الظنية إلا حين توافق اليقينية ومن تاريخ هذه الصيحة المنكره أصاب منهج التوحيد انحراف خطير، فشب على ذلك الوليد، وشاب الكبير، فأنكروا استواء الله على عرشه على ما يليق به كما أخبر عن نفسه، كما أنكروا أن يكون القرآن كلام الله، وأنه يحب أولياءه، ويحبونه، وأنه يرحم عبادة على ما يليق به، ويجيء لفصل القضاء يوم القيامة كما يليق به سبحانه.

والطالب الذي يدرس المنهج يتعلم فلسفة التعطيل والتحريف، فيتخرج موحداً أي معطلا ومنحرفا فتصبح كلمة التوحيد، ولفظة الموحد من ألفاظ الأضداد.

الفقة :

وأما مادة الفقه فهي عبارة عن آراء بعيدة، وخالية عن الأدلة، بل هي

(١) سورة التوبة (٦)
(٢) تقدم تخريجه
(٣) سورة الفجر (٢٢)

مسائل فرضية لا صلة لها بالواقع أو استحسانات شخصية لا طعم لها ولا لون، وكل طالب يدرس آراء تنتمي إلى مذهب معين محاولا أن يثبت أن آراء وقياس مذهبه أفضل من آراء وقياس مذاهب الآخرين ولا يمرن الطالب على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة على أنهما مصدران للتشريع الإسلامي وعلى الرغم من ذلك يتخرج عالما من علماء المسلمين وداعية إلى الله ! !

وفي الواقع أن انحراف المنهج التعليمي، ليس وليد العصر الحديث بل راجع إلى القرون التي خلت.

فلنسمع للعلامة ابن القيم، وهو يتحدث عما أصاب المسلمين نتيجة لانحراف المنهج التعليمي، والعلامة ابن القيم من أعيان القرن السابع الهجري يتحدث عما أصاب المسلمين من الإعراض عن الكتاب والسنة وهو يقول :

« لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليها، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء، والقياس، والإستحسان، وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم. إلى أن قال : قامت فيهم البدع مقام السنن، والنفي مقام العقل والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، ثم قال رحمه الله : فإذا رأيت في دولة هذه الأمور أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش خير من مخالطة الناس، والله المستعان ».

مادة التاريخ :

فأما مادة االتأريخ فهي عبارة عن سرد حوادث، وقعت في القرون الخالية، وأماكن وقوعها وزمانها، والأخبار بأن فلان ولد في اليوم الفلاني في السنة الفلانية، وكان وفاته في عام كذا إلى آخر تلكم الحكايات، ولا يتفقه الطالب في فقه السيرة وعبر التاريخ، ولا يعلم شيئاً عن أخبار أبطال المسلمين وتراجم أئمة المسلمين وعلمائهم.

ومنهم كهذا إنما يخرج الجدليون، والقصاصون، وأصحاب الآراء الذين يجيدون كيف يفرضون المسائل الفرضية التي لا وجود لها في دنيا الناس، ولقد ملأ هذا الصنف معاهدنا وجامعاتنا ومراكز الدعوة دون جدوى منهم في مجال الدعوة، بل صاروا عقبة في سبيل الدعاة الصالحين والعلماء العاملين والله المستعان.

٥ ـ بعض الطوائف المنحرفة التي تعمل باسم الإسلام :

ومما منيت به الدعوة الإسلامية في العصر الحديث وجود طوائف تعمل في ميدان الدعوة باسم الإسلام، ومن تلكم الطوائف « القاديانية » التي نشأت بالقارة الهندية، وباضت وفرخت قبل أن يحرك علماء المسلمين المسئولين عن الدعوة الإسلامية أي ساكن، بل لم يفطنوا لها ولانحرافها إلا بعد أن تمكنت في القارة في طولها وعرضها واستفحل أمرها فألفت الكتب ووزعتها وأنشأت المدارس ونشرت مبادئها ثم أخذت تنتشر في أطراف الدنيا. والمدهش من أمر علماء المسلمين المهتمين في الدعوة الإسلاميةفي القارة التي ظهرت فيها القاديانية أول ما ظهرت وفي الجهات التي ظهر فيها نشاطها أخيراً. والعجيب من أمرهم أنهم لم يحركوا بنت شفة في استنكار مبادئها وبيان زيفها وتحذير الناس منها إلا في الآونة الأخيرة بعد أن تمكنت في الأرض كما قلت سابقا[1] وعلى الرغم من القرار الذي اتخذته بعض الجهات الإسلامية بأن ــ القاديانية تعتبر أقلية إسلامية في أرضها على الرغم من ذلك فلا تزال الطائفة تزاول نشاطها في الجهة نفسها وفي الجهات الأخرى التي انتشرت فيها سابقا. كبعض دول أفريقيا.

---

(١) نحب أن نشير هنا إلى موقف علماء الهند في هذه القضية لبيان الحقيقة وهي أن علماء الهند قد تفطنوا لزيغ الميرزا غلام أحمد القادياني وضلاله قبل أن يدعي بكونه مسيحا أو يدعي النبوة، ومن هؤلاء العلماء المجاهدين العلامة محمد عبد الحق الغزنوي الذي هو أول من تنبه لمخاطر أفكار الميرزا غلام أحمد القادياني، وصرح بأن الرجل كاد أو قرب أن يدعي النبوة، ثم وقف العلامة محمد حسين التبالوى مدير مجلة «إشاعة السنة» ومن كبار تلاميذالعلامة المحدث السيد نذير حسين الدهلوي موقفا شديدا إزاء القادياني وكفره، بعد ما وضح له زيغه وضلاله، فرد عليه ردودا شديدة، ونادى العلماء بإبداء آرائهم إزاء هذه الضلالات فبناء على طلبه أفتى العلماء الكثيرون وعلى رأسهم المحدث السيد نذير حسين الدهلوي بضلاله وتكفيره، ثم وقف العلامة ثناء الله الأمرتسري موقفاً شديدا تجاه أفكار القادياني الهدامة، وألف في رده رسائل=

وتعتبر الطائفة ونشاطها عقبة أمام دعاة الحق في تلك الجهات، وقد استمالت قلوب العوام بتلك النفقات الباهظة التي تنفقها على المدارس والمؤمنين بها بسخاء منقطع النظير.

فالواجب على جميع الجهات المسئولة، أو المهتمة بالدعوة السعي في إيقاف هذا النشاط الهدام كلياً طالما ثبت كفر هذه الطائفة وردتها بتكذيبها نصوص الكتاب والسنة التي تنص بأن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ولا نبي بعده.

وبذلك نكون قد عملنا شيئاً في تقليل المشكلات الكثيرة التي عرقلت سير الدعوة في كثير من الجهات، وشغلت بال الدعاة، علمـاً بأن القضاء على نشاطهم ليس بالأمر السهل بل الموقف يحتاج وقتا غير قصير مع جهود الحزم والصدق لأن كثيراً من عوام المسلمين الذين لا يفرقون بين الشحم والورم، قد اعتنقوا مبادىء هذه الطائفة منذ أمد بعيد، وافتتنوا بها، فشغلت أذهانهم الخالية بأفكارهم المسمومة، وخدعتهم أساليبهم المعسولة، ولقنوهم الكفر، والإلحاد باسم الإسلام. صحيح أن نشاط هذه الطائفة بدأ يضعف في بعض الجهات التي كانت قد

=ومؤلفات كثيرة كثيرة يصعب إحصاؤها، وقد أنشأ للرد على القاديانية مجلة مستقلة باسم «مرقع قادياني» من مدينة أمرتسر ، وناظره مرات وكرات، حيث ضاق صدر القادياني من انتقاداته، واضطر إلى المباهلة، مصرحا أن ثناء الله الأمرتسري قد بالغ في الردّ عليّ مبالغة شديدة فادعوا الله أن يهلك الكاذب منا في مرض مهلك في حياة الصادق، فتقبل الله دعوة المتنبيء الكذاب حيث هلك في مرض الطاعون، وبقي العلامة المجاهد ثناء الله الأمرتسري بعده أكثر من أربعين سنة، في نضال مستمر وجهاد متواصل في مقاومة الأفكار الهدامة، وخاصة القاديانية التي نشأت في الهند لخدمة الاستعمار البريطاني وعلى إشارته كما سيأتي في صلب الكتاب، ولأجل هذا حاول المستعمرون كل محاولة لنشرها وترويجها وإذاعتها بين المسلمين وغيرهم لمصالحهم الخاصة، ثم حدث أن حررت الهند في عام ١٩٤٨ م، وانقسمت إلى باكستان والهند، ولما كانت هذه الحركة الجديدة في نتيجة مؤامرة الاستعمار وضد الإسلام والمسلمين كانت الفرصة مواتية لأصحابها للوصول إلى مناصب حكومية باسم الإسلام والمسلمين، في زمن الاستعمار ثم لسبب تنظيمهم وكيدهم ومكرهم حاولوا السيطرة إلى حد ما على المناصب المهمة في باكستان حيث ظهروا في أقوى حركة وأنشط مؤسسة في باكستان وخارجها، ولما فاق أمرهم، وعم بلاؤهم وشرهم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ظاهر مسلمو باكستان مظاهرات عنيفة أدت إلى إكراه بوتو (الرئيس الباكستاني آنذاك) على إصدار القرار بتكفيرهم وأنهم أقلية غير مسلمة.

تمكنت فيها، وذلك بنشاط أهلي محلي قد يقوم به سكان المنقطة كما لاحظنا ذلك في نيجيريا في هذه الأيام القريبة، فقد علمت في أثناء زيارتي الأخيرة لنيجيريا في بعض المناسبات بأن نشاط القاديانية قد خف الآن حتى انحصر في المدارس الثانوية بل قد أخذ القاديانيون المحليون يراجعون الإسلام من جديد بعد أن كانوا دعاة مخلصين للقاديانية. هذا خبر سار ولكنه لا يجعلنا نتكل، ونترك العمل في القضاء على هذا النشاط في جميع مراحل مدارسنا ومؤسساتنا وبالله التوفيق.

وإذا كنا قد تساهلنا عند ظهورها كما رأينا فلا ينبغي أن نتساهل مرة أخرى، وهي مدبرة إذ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. والله المستعان.

٦ ــ الاستعمار الغربي والشرقي

(أ) ــ الاستعمار الغربي

الحديث عن القاديانية يذكرنا المشكلة الأم ألا وهي الاستعمار الغربي لأن القاديانية بل وجميع الطوائف المنحرفة التي تكيد للإسلام والمسلمين باسم الإسلام أغلبها من منتجات الإستعمار أو أصدقاء الإستعمار ــ بل إن بعض الطوائف الصوفية كان لها علاقة قوية ودية مع الاستعمار أيام كان الاستعمار يفسد في هذه المناطق الاسلامية كالمرغنية وفروعها، عرف الناس ذلك أم جهلوا إلا الخواص.

إن الاستعمار الغربي الذي سيطر على كثير من البلدان الإسلامية لم يكن مخططه أن يستغل خيرات تلك البلاد ويستعبد سكانها فحسب ــ كما يظن البعض ــ بل كان من أهم مخططاته محاربة الإسلام وتجهيل المسلمين بدينهم على حقيقته بجميع الوسائل الممكنة له الظاهرة والخفية.

الوسائل التي استعملها الاستعمار في محاربة المسلمين

١ ــ نشر الثقافة الغربية على نطاق واسع، مع السعي في التخفيف من الثقافة العربية الإسلامية أو القضاء عليها إن أمكن ولو مع طول الزمن.

٢ ـــ تشجيع مدارس التبشير المسيحي وتدوين مناهجها لكي ينصرف أبناء المسلمين إليها تاركين مدارسهم الإسلامية، وقد نجح في ذلك كله.

٣ ـــ تشجيع الطوائف المنحرفة التي تعمل باسم الإسلام في ميدان الدعوة كالقاديانة وبعض الطوائف الصوفية ليتمكن من ضرب الإسلام ودعوته من الداخل بأيد تنتمي إليه، تلهج بذكره، وهذا أخطر سلاح استعمله الاستعمار ضد الإسلام ودعوته.

٤ ـــ اعتبار اللغة الانجليزية لغة رسمية في كثير من البلدان العربية والإسلامية مما جعل شبابنا يقبلون على تعلم هذه اللغة في الوقت الذي يجهلون فيه لغتهم الأصلية، بل استطاع الاستعمار أن يحمل شبابنا السذج على كراهة الإسلام وأهله بدعوة أنه دين تعصب، ودين تأخر، وانطلى هذا الكلام على شبابنا لجهلهم حقيقته، فضلوا.

فوقف الاستعمار والمؤمنون به حجر عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية، وأخيرا غادر المستعمرون بلادنا وديارنا بعد أن تركوا على تركتهم ورثة مخلصين ليحافظوا على تركتهم، ولأنهم يتمكنون من العمل في صالحهم أكثر مما يتمكنون هم بأنفسهم.

وهذا يعني أن الاستعمار لم يخرج حتى الآن من بعض البلاد الإسلامية. ولا أدل على ما قلت من أن اللغة الأنجليزية لا تزال رسمية في بعض تلك البلاد، والذين يستعملونها هم من المسلمين رسميا طبعاً، ولهم لغتهم وثقافتهم وما ذاك إلا لأنهم ورثة مخلصون يقدرون لغة المورث كما يقدرونه.

وهؤلاء الورثة أشد عداوة لدعاة الإسلام ودعوتهم.

والله المستعان.

(ب) ـــ الاستعمار الشرقي

فبينما يعاني الدعاة تلك المعاناة من الاستعمار الغربي وورثته المخلصين فإذا هم يفاجأون باستعمار من نوع آخر أشد ضراوة، وأشد حقداً على الدعوة

الإسلامية وأهلها، وهو الاستعمار الشرقي الملحد، وكان ماكراً يظهر للغوغائيين نوعا من الرحمة في أسلوب معسول يخدع السذج من الناس. فقد خدع الطبقة الفقيرة ووعدهم بثراء يأتيهم بين عشية وضحاها إذا آمنوا به، وأخلصوا له ليثيرهم ضد الأغنياء، وأصحاب الأموال الطائلة، وكان يضحك على سذاجة الفقراء، فيقول لهم : إن هؤلاء الاقطاعيين طالما ظلموكم، ونحن نريد أن نمن عليكم، وننقذكم مما أنتم فيه من الفقر والحاجة، ونرفعكم إلى المستوى اللائق بكم، لنحقق بذلك العدالة الاجتماعية، حتى تعيشوا مع هؤلاء الأثرياء الاقطاعيين جنباً إلى جنب. من هنا طار الفقراء فرحاً وصفقوا لهم حتى كلت أيديهم من التصفيق، وهتفوا لهم بالبقاء ـــ يعيش يعيش... حتى بحت حناجرهم، فجعل الفقراء ينتظرون الثراء الموعود به من السادة المستعمرين الشيوعيين فلم يجدوا شيئاً بل الحالة تزداد سوءاً. فإذا المستعمرون يهجمون على أموال الأثرياء فيصادرونها باسم الفقراء، ولكن لم تنقل إلى خزائن الفقراء ـــ كما كان يتوقع الفقراء ـــ بل نقلت إلى الخزينة الخاصة لتشترى بها الضمائر الرخيصة، والأيدي الأثيمة لتسلط على دعاة الإسلام، وعلماء المسلمين بالتعذيب والتشريد والتقتيل لمحاولة القضاء على الدعوة وأهلها، ظناً منهم بأن الدعوة سوف تموت بموت الدعاة والعلماء ـــ خابوا وخسروا ـــ صحيح أن الدعوة في المنطقة أصيبت بنكسة خطيرة بموت القادة المسئولين، ولكنها لم تمت، ولن تموت بإذن الله، بل سوف تبقى ما بقيت الغبراء تحت الخضراء، بل إنها تواصل سيرها إلى الأمام، ولو كره المجرمون المستعمرون والمؤمنون بهم. إن هذا الاستعمار الشرقي من مكائده أنه دخل المنطقة وهو ينادي ويهتف مع المواطنين يسقط الاستعمار، يسقط الاستعمار، الاستعمار عدو الإنسانية إلى آخر الهتافات المضللة فاطمأن الغوغائيون، وهتفوا بحياة الرفيق المخلص على درب الحرية الرفيق، الرفيق، ولكنه لم يرفق بهم، ولم يرحمهم، فجعل يظهر في كل بلد بوجه وبلقب جديد ويتلون بحسب الظروف.

الشيوعيون، اليساريون، الاشتراكيون، الاشتراكية العربية، الاشتراكية الإسلامية ! ! الاشتراكية المحلية ..

وهكذا ولا يزال يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، ويهلك الحرث والنسل، ويكسب الأصدقاء من أناس من بني جلدتنا، ويتكلمون بلساننا، وينتسبون إلى ديننا وإسلامنا، فيما يبدو للناس، وعلى الرغم من ذلك كله أن هذا الاستعمار هو صديق جمهور الغوغائيين، لأنه يمدنا بالأسلحة التي يحارب بها الاستعمار إنها من عجائب الدهر ! ! وهل هناك استعمار أظلم من هذا الاستعمار الذي لم يترك لنا ديناً ولا دنيا ﴿ **إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور** ﴾[1]. فما قيمة الأسلحة التي ندفع ثمنها ديننا وعقيدتنا ؟ ؟ . أفلا يعقلون ! !

دعوة محمد بن عبد الوهاب وصمودها للمشاكل

وفي القرن الثاني عشر، كان يعيش محمد بن عبد الوهاب في قلب بلاد نجد في بلدة (حريملة) فرأى العالم المصلح أن ظاهرة جاهلية أخذت تنتشر في طول البلاد وعرضها، إذ رأى الناس يترددون إلى جذوع النخل وقبور الموتى فيطلبون من الموتى والجمادات ما لا يطلب، ولا يملكه إلا خالق الأرض والسماوات ـــ رأى النّاس يطلبون المغفرة والشفاء مثلا، كما لاحظ غلبة الخوف الزائد والقلق من شياطين الجن والاستعاذة بهم، إذ خافوا منهم. وفي الوقت نفسه يلاحظ الداعية أن الأمة الإسلامية التي يتصل بها عندما كان يطوف أكثر البلاد لطلب العلم رآهم أنهم كلهم ـــ إلا ما شاء الله ـــ أصيبوا بنفس الجاهلية بل أقبح منها، وبجانب ذلك رأى أن كتاب الله لا يرجع إليه لأخذ الأحكام منه، وإنما يحكم الحكام بغير ما أنزل الله.

هذه الظواهر الجاهلية جعلت الشيخ يفكر في إصلاح العقيدة، وإصلاح الأحكام حتى يكون الحكم لله، والعبادة له وحده، والمتابعة لرسوله وحده، فهاجم الجاهلية، وصارح الناس بأن ماهم عليه ليس من دين الإسلام في شيء، فدعاهم إلى الرجوع للإسلام في معناه الحقيقي : عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته، وطاعة رسوله، وأن يعبد الله بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام دون ابتداع في الدّين، وأن تؤخذ الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله رأساً دون لف أو دوران في

---

(١) سورة الحج (٤٦)

الآراء والاستحسانات، أو قوانين أو عادات، فحمل المصحف يدعو إلى الرجوع إليه، والاكتفاء به، والسنة تشرحه وتفصل مجمله، من هنا ثارت الجاهلية، وهاجت وصاحت قائلة : إن ابن عبد الوهاب أتى بدين جديد، وبمذهب خامس والداعية ماض ــ في دعوته ولا يلتفت إلى ما يقال، ويشاع، وكأنى به يقول :

ومـــالى إلا آل أحمد شيعـــــة ومـالى إلا مذهب الحق مذهبُ

نجاح دعوته رحمه الله

ولما أراد الله نجاح هذه الدعوة المباركة، قيض الله لها ملوك آل سعود فجعلوا السيف بجانب المصحف، فالشيخ يدعو ويجادل بالتي هي أحسن، ويسوق الأدلة من الكتاب والسنة محاولاً إقناع المخدوعين ليرجعوا إلى الحق، ومن اقتنع ورضى بالله رباً معبوداً وحده، ومحمد رسولاً وإماماً وقدوة وحده وبالإسلام دينا لا يقبل الله سواه، واتبع سبيل المسلمين، وكفر بما يعبد من دون الله فهو الأخ المسلم فله جميع حقوق المسلمين كائنا من كان وعليه ما على المسلمين.

ومن لم يتبين له الحق وتردد أو توقف يبين له الحق وتشرح له الحقائق حتى يتبع الحق، ومن أعرض وعاند وحاول أن يقف في سبيل سير الدعوة، ليعرقلها، فالسيف أولى به، ولا شيء غير السيف هذا، لأن آخر العلاج الكي، ولأن « الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن »[1] هكذا تعاون حملة المصحف، وحملة السيف حتى حقق الله لهم أمنيتهم الغالية، ووصلوا إلى الهدف المنشود ــ وهو :

(إقامة دولة إسلامية تحكم بالشريعة)، وتقيم الحدود، وتدعو إلى تجريد العبادة لله، والمتابعة لرسوله عليه الصلاة والسلام، هذا هو الصراط المستقيم الذي دعت إليه الرسل ونزلت من أجله الكتب.

وبعد : فلم تصل دعوة ابن عبد الوهاب إلى ما وصلت إليه من النصر وعزة أتباعه والدنيا تبش في وجهها، وتهش وتضحك له الأيام دون ردود فعل.

(١) من قول عمر وعثمان رضي الله عنهما كما تقدم.

بل قامت الدنيا وقعدت ــ كما أشرنا سابقاً ــ غضباً وحنقاً على الدعوة وصاحبها وأبى الله إلا أن يظهرها كما رأينا لأنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

النواحي التي ركزت عليها دعوته رحمه الله

ومن أطلع على الأسباب التي حملت الشيخ على القيام بدعوته، ثم درس الكتب والرسائل التي كتبها الشيخ، أو كتبها أولاده وأحفاده، وتلاميذهم يقطع دون شك أن دعوة الشيخ ركزت على ناحيتين هامتين :

(أ) دعوة الناس إلى تجريد العبادة لله وحده بحيث لا يعبد مخلوق مخلوقاً مثله من دون الله أو مع الله، وتجريد المتابعة لرسول الله وحده بحيث لا يقدم قول أحد أو رأي أحد على قول رسول الله عليه الصلاة والسلام.

(ب) دعوة الناس وخصوصاً الحكام إلى تحكيم شريعة الله وحدها بحيث لا يتخذ بعض الناس بعضاً أرباباً من دون الله يحللون ويحرمون : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[1].

وذلك يعني أن دعوة محمد بن عبد الوهاب كانت ــ ولا تزال تحارب ــ جاهليتين خطيرتين منتشرتين في العالم الإسلامي في العصر الحديث :

أولاً : جاهلية عبادة المخلوق مخلوقاً مثله بدعوى حب الصالحين، أو التوسل بهم، أو الاستشفاع بهم، إلى غير ذلك من الأعذار التي تشبه قول المشركين السابقين الذي حكاه القرآن ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[2] وقد قاومت دعوة الشيخ هذه الجاهلية وطاردتها ولا تزال تطاردها في كل مكان ولله الحمد والمنة.

ثانياً : جاهلية الحكم بغير ما أنزل الله، وبين هذه الجاهلية والتي قبلها صلة قرابة كما لا تخفى على من رزق الفقه في الدّين، لأن التحاكم إلى غير شريعة الله يعني

(١) سورة يوسف (٤٠)
(٢) سورة الزمر (٣)

اتخاذ أرباب يشاركون الله في إصدار الأحكام والتشريع، لذا فإن دعوة الشيخ اعتبرت هذه الجاهلية قرينة التي قبلها وأن حكمها واحد في نظر الإسلام فحاربتها كما حاربت الجاهلية التي قبلها.

من هنا نعلم خطأ الذين يزعمون بأن دعوة ابن عبد الوهاب عالجت ظاهرة عبادة غير الله فقط في الوقت الذي أهملت الناحية الدستورية ثم وهذا الزعم ــ في نظري يصدر من أحد رجلين :

أحدهما : رجل مغالط ومتجاهل للحقائق، وهذا لا نرى أن نطيل معه الحديث لأن البحث مجرد جدال عقيم، وغير منتج فلنتركه هو وجداله.

ثانيهما : رجل قاصر النظر والفهم للأمور، فهذا يجب أن يبصر بأن نريه بأن هذه الدولة الإسلامية السعودية التي قامت في قلب الجزيرة العربية لتحكم بالشريعة الإسلامية، وتحارب جاهلية الحكم بغير ما أنزل الله، وجاهلية عبادة غير الله حتى أصبحت غريبة بين دول العالم ولكنها من أعاجيب الزمن حيث استطاعت ببركة تحكيم الشريعة تحقيق استقرار أمن منقطع النظير في دنيا العصر الحديث، حتى صارت تغبط لدى الدول التي يسمونها الدول الكبرى، وتفردت هذه الدولة بالرجوع إلى المصحف الشريف فى أحكامه.

بهذا يتبين لنا بأن قيام هذه الدولة أثر من آثار هذه الدعوة المباركة بتوفيق الله، وهل يصدق بعد هذا من يقول : إن دعوة ابن عبد الوهاب أهملت الناحية الدستورية فالجواب : لا، إلا إن كابر.

أعداء الدعوة

جندت الأقلام الرخيصة ــ كعادتها ــ لمحاربة الدعوة، وأخذت تكتب ضد الدعوة غير متحرية للصدق وهذه الأقلام تنتمي في الغالب إلى الطوائف الآتية :

(أ) الطوائف الصوفية المحترفة باسم الدّين.

(ب) الفقهاء الجامدون المقدسون للآراء.

(جـ) أهل الكلام المتطرفون.

(د) الطوائف المبتدعة المحترفة باسم الإسلام.

تواطأت الأقلام على تشويه الدعوة وعرقلة سيرها؛ لو استطاعت وقامت بنشر ما يشبه التعميم العالمي ـــ إن صح التعبير ـــ فشاع في العالم، وعم الدنيا بأن دعوة محمد بن عبد الوهاب تعادي المذاهب الأربعة جهلا من هذه الأقلام أن ابن عبد الوهاب نفسه حنبلي المذهب إلا أنه غير متعصب كما نشرت الأقلام المجرمة بأن ابن عبد الوهاب وأتباعه يكرهون الرسول، ولا يصلون عليه، ويعادون الأولياء وينكرون كراماتهم والحكايات وروايات الناس كثيرة في هذا الباب ولا استحسن سردها بل أستبشع ذلك، لبعدها عن الذوق، وقد كتبت تلكم الأقلام عن الدعوة كل شيء إلا حقيقة الدعوة وأهدافها فلم تتعرض لشيء من ذلك طبعاً ! !

نجاح الدعوة على رغم كثرة أعدائها

قابل صاحب الدعوة تلكم الدعاة التي بثتها أبواق الأعداء وتسطرها أقلام الأجراء قابلها بالإعراض عنها عملا بقوله تعالى : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] فمضت الدعوة تشق طريقها في الافاق على رغم أنوف الأعداء، ولا تدخل الدعوة بلداً فيتعرف عليها أهله ويعرفونها على حقيقتها إلا اطمأنوا إليها وأحبوها وأقبلوا عليها غير متأثرين بدعاية الأعداء إذا تبين لهم الحق.

ولا أشبه هذه الدعوة إلا بالقادة الفاتحين الصالحين الذين إذا أقبلوا على البلاد التي يريدون فتحها خافهم أهلها وأصابهم الذعر والقلق، وإذا فتحوها فدخلوها، وعرفهم الناس فعرفوا فيهم الرحمة والإنصاف والعدل أحبوهم وتفانوا في حبهم وتقديرهم وفدوهم بالنفس والنفيس بل انضموا إلى معسكرهم وصاروا من أنصارهم.

---

(١) سورة الأعراف (١٩٩)

هذا مثل دعوة ابن عبد الوهاب تماما.

وأنا أعرف شخصياً بعض البلاد الإسلامية والعواصم العربية التي كانت تتصور دعوة ابن عبد الوهاب قبل عشرين سنة تقريباً كأنها ملة أخرى غير إسلامية ولا يستطيع أحد أن يحرك بنت شفة ليتحدث عنها، ويذكرها بخير فضلا عن أن يدعو إليها.

العاقبة للمتقين

أما اليوم فتوجد في بعض تلك العواصم التي وصفناها مراكز قوية لهذه الدعوة تعمل في تصحيح العقائد والإصلاح العام، وتحذير الناس من الوثنية والجاهلية المنتشرة هناك وتهاجمها بشجاعة وقوة.

وأصحاب تلك المراكز ليسوا من خريجي الجامعات السعودية ـــ كما يظن ـــ ولكنهم من سكان تلك البلاد والذين كسبتهم الدعوة وجندتهم لكونها موافقة للفطرة السليمة ﴿ (**فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾[1] فسيطرت الدعوة على الموقف، فأخذت تلاحق الجاهلية، جاهلية دعوة غير الله وتطاردها أينما كانت حتى رجع الناس إلى الدّين الصحيح.

وقصارى القول أن الدعوة تعنى أن يفهم الناس الإسلام من جديد في العصر الحديث كما كان يفهمه المسلمون الأولون، نابذين البدع والخرافات التي لا أصل لها في الدّين وراءهم ظهريا، سعياً وراء الوحدة الإسلامية الكبرى، الوحدة التي يكون حجر زاويتها تحقيق التوحيد وهتافها بـ (لا إلـه إلا الله محمـد رسول الله).

وتحقيق التوحيد هو الذي من أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب السماوية كلها، وبتحقيق كلمة الإخلاص نستطيع تكوين أمة قوية بإذن الله، الأمة

---

(١) سورة الروم (٣٠)

التي لها سيادتها ومناعتها، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله وحده، تلك الأمة التي تعنيها آية سورة الحج ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾(١) وسعياً في دعوة ابن عبد الوهاب في تكوين مثل هذه الأمة، فقد نددت بالجاهليات في جميع صورها نددت بها بكل شدة دون مجاملة أو مداهنة، وكانت أكثر صراحة في هذا الباب من أية دعوى أخرى في العصر الحديث، ولذلك كثر أعداؤها منذ ظهورها، ولكنها على الرغم من ذلك بلغت حيث لم يتوقع أنها تصل إليه، بل قد انتشرت كتب الداعية ورسائله في أقطار الدنيا بعدة لغات.

والعجيب من أمر هذه الكتب أنها تدخل أحيانا على بعض الناس وهم لها كارهون لما يبلغهم عنها بواسطة الدعايات المغرضة، وإذا ما درسوها وفهموها رغبوا فيها وأحبوها، وطلبوا المزيد منها.

قصة قصيرة

حدثني من أثق به أنه كان يوجد في بعض مدن الهند عالم يدرس في المساجد وكان من عادته إذا انتهى من الدرس يدعو الله كثيراً وكان في دعائه إنه يدعو على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويلعنه.

وكان ممن يحضر درسه طالب سعودي(٢) واع ولبق، فكر الطالب السعودي كيف ينقذ هذا المدرس المسكين الذي ضللته الدعاية المضللة حتى وقع في هذه الورطة، فهداه تفكيره بإذن الله إلى الحيلة الآتية :

عمد إلى كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. فنزع عنه الغلاف

---

(١) سورة الحج (٤٠ ــ ٤١)

(٢) أغلب الظن أنه الشيخ عبد الله القرعاوي عندما كان يطلب العلم في الهند. والله أعلم. قلت : بل هو كما قال، وانظر تفصيله في رجال ومفكرون عرفتهم للشيخ محمد المجذوب (الفريوائي) .

والورقة الأولى التي تحمل اسم المؤلف ثم تقدم إلى المدرس الهندي فطلب منه أن يقرأ هذا الكتاب ثم يخبره عن مضمونه وما رأيه فيه.

فأخذ المدرس الكتاب فقرأه، فأعجب به، فسأله الطالب في غد عن الكتاب فأخذ المدرس يثنى على الكتاب ثناء عظيما، ويصفه بأنه من أحسن الكتب في بابه، فقال الطالب السعودي : إن مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن عبد الوهاب الذي تلعنه فقدم له الغلاف، والورقة المنزوعة التي فيها اسم الشيخ فاندهش المدرس، فتندم، وأخذ يدعو للطالب ثم غير موقفه مع الشيخ بل غير أسلوب الدعاء فجعل يدعو للشيخ آخر كل درس بدلا من الدعاء عليه فنسأل الله تعالى أن يعفو عنه.

هكذا تضلل الدعاية الناس وتورطهم. ثم تنهج الدعوة إلى الله وبالحكمة كما رأينا في صنيع الطالب السعودي الموفق رحمه الله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[1] صدق الله العظيم.

وبعد فهذه هي دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ نشأتها إلى العصر الحديث، عرضتها بإيجاز مع بعض المشاكل التي واجهتها.

ولقد لقيت هذه الدعوة من أعدائها مشاكل ومحنا لم تلق مثلها أية دعوة في العصر الحديث في الغالب، ولكنها نجحت نجاحاً لم يكن لغيرها من الدعوات في الغالب.

فجزى الله صاحبها، ومن حملها من بعده خير ما جازى به المصلحين، كما نسأله تعالى أن يثيب ملوك آل سعود وأمرائهم الذين كانوا لهذه الدعوة خير عون والذين قاموا بنشرها والدفاع عنها ونشر كتبها ولا يزالون كذلك تقبل الله منهم هذه الأعمال الخيرية ووفقهم لما يحبه ويرضاه.

وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه.

---

(١) سورة النحل، آية (١٢٥).



المحاضرة السابعة (*)

الإسلام في افريقيا عبر التاريخ

(*) طبعت هذه المحاضرة في رسالة مستقلة في القاهرة عام ١٣٩٦ هـ .

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تقديم

هذه الرسالة بيان لما اشتبه على بعض الناس في أمر انتشار الإسلام ودخوله قارة أفريقيا، وما ذخل في روع الكثير منهم، بأن للصوفية دورهم في هذا المجال، وأن هذه حسنة من حسنات التصوف والصوفية، وأنه لولا قيام الصوفية بهذا الدور، ما عرف الإسلام قلب أفريقيا.

ولكن المؤلف الأستاذ محمد أمان بن علي، الأستاذ بكلية الشريعة بالمدينة المنورة بجامعتها الإسلامية، يكشف لنا عن هذا الخطأ، ويبين أن الذي نشرته الصوفية ما هو إلا وثنية من نوع الوثنيات التي كان عليها الأفارقة قبل غزو التصوف لهم، وإذا اختلفت وثنية التصوف في شيء عن هذه الوثنية الأولى فإنما في تقنعها بقناع الإسلام اسماً وشكلاً، وأما هي في نفس الأمر وحقيقته فهي من نوع الوثنية الأولى السافرة، والأستاذ الكريم يقدم هذه الحقيقة بدليلها؛ وأمثلتها المستقاة من نفس البيئة والواقع الذي عليه هؤلاء الأفارقة، وهو بصفته أفريقي أثيوبي، وله زيارات للقارة الأفريقية ضمن وفود الجامعة الإسلامية التي تجول في هذه القارة للدعوة إلى الإسلام وتبصر المسلمين به لتنفيذ أحد أنشطة الجامعة العالمية التي تقوم بها لخدمة الإسلام والمسلمين ــ قد لمس ذلك عن قرب، وعاينه مواجهة فرأى أن ما عليه هؤلاء المسلمون الذين دخلوا الإسلام على يد المتصوفة، ليس من الإسلام في شيء، ما هو إلا تصوف، قد ألغى شخصية الفرد، في شخصية صاحب الطريقة، أو القطب أو الغوث، وأنه لا يتحرك إلا بحركة هذا الشيخ، أو تأثير ذلك القطب ! . ونبحث عن الله في عقيدة هذا المتصوف الأفريقي الذي تأسلم، فلا نرى له وجوداً، فقد حل القطب أو الغوث مكانه، بعد أن كان من قبل يعبد حيواناً، أو شجرة، أو حجراً. الفرق أن هذا الأول صنم متحرك متكلم، والأخير صنم لا يتحرك، وإذا

تحرك فإنه لا يتكلم، وقد طمست العبادات تحت الطقوس والأوراد، التي قدمها الصوفية، كبديل لما أتى به الله.

وحقيقة أخرى يضعها فضيلة المؤلف أمامنا، وأن هذه الحقيقة لو عملنا بمقتضاها لطمسنا هذه المعالم الوثنية، الصوفية، وغير الصوفية، وأحلنا القارة إلى أمة إسلامية، وقد يكون لها دورها في الحديث كما كان لعرب الجزيرة العربية في القديم.

هذه الحقيقة، هي أن أفريقيا كانت أول مهاجر إسلامي، حين هاجر المسلمون الأولون، وهم لا يزالون في مكة إلى الحبشة، فوجدوا في ملكها وأهلها إخوة متحابين ــ ووجدوا فيها الوطن الأمين، حين افتقدوه بين قومهم وعشيرتهم، وكان أن أسلم النجاشي قبل أن يدعوه الرسول رسمياً إلى الإسلام.

فهذا الموقف من النجاشي وقومه يعطينا أن الأفارقة أناس صفت نفوسهم، وليس لهم تعصب في الباطل، وإنما هم أولو بصيرة نفاذة، وعقل وقاد، وقدرة على التمييز بين الخير والشر، فحينما يعرض عليهم الخير يستجيبون له، ويميلون إليه، ويولون للشر ظهورهم. وقد تجلى ذلك في أقوى صورة، حينما قدم عمرو بن العاص على النجاشي يسترد المسلمين المهاجرين، ويطعن في دينهم، فلما عرف النجاشي من المسلمين دينهم، وسمع قرآنهم، في مواجهة عمرو (رضي الله عنه) رفض طلبه ورد عليه هدية قريش التي جاء بها، وقال له، (والله لا أسلمهم إليكم أبداً) كذلك يقدم لنا انتشار الإسلام في افريقيا في أدواره المتتابعة عبر التاريخ من عهد الخليفة عثمان إلى الآن، فيطلعنا على قوم فيهم خصوبة دينية، واستجابة إلى الحق وبحث عنه. وما أحرانا أمام هذه الأرض الخصبة وأمام هذه التربة الطيبة أن ننمي فيها ما غرس من أصول الإسلام من قبل وفي أنحاء متفرقة من مجاهلها التي تتحرق شوقاً إلى الإسلام الآن، وأن نغرس الغراس الجديد بين القوم الذين لم يصلهم الإسلام إلا على أيدي التجار والصوفية، وأخذوا منه التسمية فقط، وبقوا على خرافاتهم ووثنياتهم الأولى أو زادوا عليها ما قدمه لهم المتصوفة من وثنيات البيئات المتحضرة، وكذلك نغرس هذا الإسلام الذي جاء في كتاب الله العزيز، والذي قدمه أحد رسل الإسلام إلى رستم

أكبر قواد الفرس في قوله : (جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام). والذي قدمه أبو سفيان إلى هرقل بهذه الصورة، فكان جواب هرقل قيصر الروم أن قال له : « لئن صح ما قلت فسيملك (محمد ﷺ) موضع قدمى هاتين؛ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ولو أنى أعلم أنى أصل إليه لتجشمت لقاءه »[١].

فهذا هو الإسلام، وغيره ليس بإسلام، وهو إذا حل في بيئة أحياها كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[٢].

والمؤلف الجليل صاحب هذه الرسالة القيمة ذات الأثر العظيم إن شاء الله، يرسم للمملكة العربية السعودية بصفتها المشرفة الأولى على هذا الجهاد وتلك الدعوة المباركة ما يجب أن يتخذ في هذا المجال، كي نصل إلى الغرض المنشود كما يعتبر تخطيطه في مجال الدعوة هذه تخطيطاً لكل الدول والجماعات الإسلامية للعمل في أفريقيا وفي غيرها، فهذه مهمة المسلمين المتصلة، والتي لا يصح أن تتوقف فى أي زمن أو عصر : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله؛ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم** ﴾[٣]. وفق الله أمتنا الإسلامية إلى العمل على إعزاز الإسلام، وإعلاء كلمة المسلمين.

د. ابراهيم ابراهيم هلال
مدرس الدراسات الإسلامية
بكلية بنات عين شمس

رمضان سنة ١٣٩٦

(١) انظر قصة الهجرة الأولى إلى الحبشة في سيرة ابن اسحاق (١٩٤ — ٢٢١) والسيرة النبوية لابن هشام (٣٢١ — ٣٤١)
(٢) سورة الأنفال (٢٤)
(٣) سورة آل عمران (١١٠)

الإسلام في أفريقيا عبر التاريخ

مقــدمــة

قصدت من هذا العنوان أن نقوم بجولة خاطفة، نمر خلالها على بعض جوانب القارة، تلك الجوانب التي تهمنا في مجال الدعوة الإسلامية، لنعرف ماضي هذه القارة، ولنربط ماضيها بحاضرها في الجوانب التي ذكرناها. ولكي نعرف الأدوار التي مرت على العمل الإسلامي في القارة، استنتاجاً من واقع الدعوة الإسلامية هناك، ابتداء من عهد النجاشي إلى الوقت الحاضر (بشكل مختصر جداً).

أقول مستعيناً بالله وحده ..

الإسلام في أفريقيا عبر التاريخ

قارة أفريقيا أول قارة سعدت وتنورت بنور الإسلام بعد الجزيرة العربية إذ قفز الإسلام رأساً من مكة المكرمة أول ما وفد على الجزيرة فحل في جزء من أفريقيا (الحبشة) المعروفة اليوم بأثيوبيا، وبالتحديد في (أريتريا) حل الإسلام في ذلك الجزء من أفريقيا قبل أن يعرج على أي مكان آخر، حتى على المدينة المنورة دار الهجرة.

وذلك عندما اشتد على نبي الرحمة وأصحابه أذى الكفار ولم يتمكنوا من عبادة ربهم بحريتهم، وأذن النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة بعد أن طمأنهم بأنه يوجد في تلك الأرض ملك لا يظلم أحد بجواره وهو النجاشي رحمه الله. وهو يومئذ لا يزال على نصرانيته.

فغادر الوفد الإسلامي مكة المكرمة بعد أن ضاقت بهم شعاب مكة، وجبالها، بل الجزيرة كلها في طولها وعرضها، فنزلوا بلد النجاشي، فوجدوا الرجل كما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام طبعاً، وجدوه رجلا يتمتع بحصافة العقل والتثبيت في الأمر وحسن الجوار، رجلاً لا تؤثر فيه الهدايا الثمينة، ولا الكلام المزخرف، ولو

كان محدثه أهدى رجالات العرب المعروف بمعرفة الكلام، وحسن الإلقاء، وسحر البيان كعمرو بن العاص.

الإخوة الأفاضل !

إن هجرة الصحابة هذه لهجرة فريدة من نوعها، إذ لم تكن انتقالا من دار الكفر إلى دار الإسلام — كما يقول بعض من يعرف الهجرة — بل لم تكن انتقالا من مكان مفضول إلى مكان أفضل، بل كانت من مكة المكرمة إلى أرض الحبشة بأفريقيا، والحبشة لم تكن دار إسلام، بل لم يكن قد دخلها الإسلام بعد، أجل لم يحصل في تلك الهجرة هذا المعنى ولا ذلك.

لأن هدف القوم كان هو الفرار بدينهم، وعقيدتهم التي عذبوا من أجلها، ليجدوا مكاناً، يعبدون الله فيه بحريتهم دون معارض. هذا هو ما تحقق لهم عند النجاشي — بحمد الله — قبل أن يتحقق لهم عند غيره.

والذي يظهر من حال القوم، ومن الظروف التي خرجوا فيها، ومن سياق قصتهم أنهم كانوا لاجئين، وكان يهمهم أن يجدوا أرضا يظهرون فيها شعائر دينهم، ويعبدون الله ربهم بعيدين عن الضغط والاضطهاد، هذا ما يظهر من قصة القوم، ولكن الله العليم الحكيم قد بارك في تلك الرحلة الفذة، فصاروا حملة الدعوة الإسلامية إلى القارة البكر أفريقيا.

وأدرك كفار قريش هذا المعنى عندما علموا أن المهاجرين قوبلوا بالإكرام والتقدير، وأعطوا الحرية في دينهم، فصاروا يعبدون الله ربهم دون خوف أو خفاء، من هنا داخلهم الخوف بأن الإسلام السمح ربما خط له طريقاً في أفريقيا ليتصل بقلوب الأفارقة الطيبة واذهانهم الخالية — إن ترك وشأنه — ويعمل فيها عمله فيفوزوا بشرف المبادرة إلى قبول الإسلام في الوقت الذي يفوت في هذا الشرف أهل مكة.

فجعلوا يفكرون ويقدرون لينظروا ما يفعلون، فبينا هم في هذا التفكير والتقدير، فوجئوا يوم بدر بتلكم الهزيمة النكراء، يوم أعز الله فيه الإسلام والمسلمين،

وأذل الشرك والمشركين، فازداد تفكيرهم في شأن المهاجرين، فقرروا أخيراً إرسال وفد مهمته محاولة استرجاع المهاجرين إلى مكة ــ لو استطاعوا ــ وكان يرأس وفدهم رجل أدهى رجالات العرب وأقدرهم على سحر البيان : عمرو بن العاص الغنى عن التعريف.

قدم الوفد أرض الحبشة، فنزل في ضيافة النجاشي ــ طبعاً ــ وهو يحمل معه أحب الهدايا إلى ملوك الحبشة ــ كما يقول علماء السيرة ــ فبادر الوفد فور وصوله بتقديم الهدايا إلى البطارقة، رجاء أن يتعاونوا معهم في التأثير في النجاشي حتى يسلم لهم المهاجرين، وقد رشوا الأرض، ومهدوا الطريقة في زعمهم ــ لو صح هذا التعبير ــ ولكن المفاوضة أسفرت عن نتيجة عكسية، ذلك لانهم حاولوا أن يسلم لهم النجاشي المهاجرين قبل أن يسمع كلامهم، بل بمجرد الاستماع إلى شرحهم المزخرف. ولكن النجاشي لم يوافق على هذه النقطة، بل طلب حضور المهاجرين ليسمع كلامهم، كما سمع كلام الآخرين، وهو الأسلوب السليم الذي يقتضيه العقل والمنطق، بل هو الموقف الذي لا ينتظر من النجاشي غيره، وهو من عرفناه إذا هو الملك الذي لا يظلم أحد بجواره بإخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ما أعظمها من منقبة، لذلك كله وعملا بمبدأ الإنصاف وهو من الإيمان بمكان ــ طلب النجاشي حضور المهاجرين ليسمع كلامهم، ولما وصل الوفد إلى باب الملك وقفوا عند الباب قبل أن يدخلوا تمشياً مع تعاليم الإسلام ليستأذنوا للدخول.

كيف تتوقعون صورة استئذانهم أو على الأصح كيف يتوقع وفد قريش صورة وكيفية استئذان جماعة غريبة ومستضعفة ولاجئة إلى تلك الأرض النائية إلى جوار ذلك الملك الرهيب ؟ لا شك أنهم كانوا يتوقعون استئذانهم كاستئذان قوم أذلاء، يدخلون مطاطئين رؤوسهم للملك، راكعين على ركبهم، أو ساجدين على جباههم، أمام ذلك الملك المهيب الذي صارت له عندهم بعض يد الإحسان والإكرام.

ولكن الذي حصل غير ذلك، أجل أن الذي حصل أن رئيس وفد المهاجرين جعفر بن أبي طالب وقف بالباب فصاح قائلا : يستأذن عليك حزب

الله، فقال : النجاشي مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل. فقال النجاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته، فدخلوا ولم يسجدوا طبعاً، فقال النجاشي : ما منعكم أن تسجدوا لي ؟ قال جعفر بكل هدوء وبأسلوب له تأثيره : نسجد لله الذي خلقك وملكك. ثم تابع كلامه قائلاً : وأما السجود لغير الله، فإنما كان تحيتنا يوم كنا نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبياً صادقاً وأمرنا بالتحية التي رضيها، وهي السلام تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أنهم حزب الله حقاً واثقون به، ولا يخافون فيه لومة لائم، وأن ما يقولونه، في التوراة والإنجيل.

وهذا الموقف الجرىء من الوفد المحمدي هو درس للجانبين معا الجانب القرشي والجانب الأفريقي، وخطاب موجه إلى قلوبهم جميعاً لو كانوا يفقهون وكأن جعفراً يقول لهم إذا كان وفد قريش مغروراً بفصاحة عمرو وبلاغته، وسحر بيانه، وبما قدمه من الهدايا الثمينة للبطارقة كثمن لاسترجاعنا، وإذا كانت البطارقة تستضعفنا، وتحاول أن تؤثر في النجاشي ملكهم ليسلمنا لعمرو ابن العاص، على الرغم من ذلك كله فنحن حزب الله العلي القدير متوكلون عليه، واثقون به فلا نبالي لأنه سبحانه مولانا فنعم المولى ونعم النصير، أجل نحن حزب الله ألا أن حزب الله هم الغالبون، فوقعت خطبة جعفر هذه من النجاشي موقعاً. فطلب منهم من يمثلهم في المفاوضة معه والحوار وليرد على ما زعمه وفد قريش. فقال جعفر : أنا. فقال له : تكلم، فقدم جعفر بين يدى كلامه مقدمة تدل على حصافة عقله، وأنه من الذين يعرفون أن ينزلوا الناس منازلهم، فقال : إنك ملك لا يصلح عندك كثرة الكلام والظلم، فبعد هذه المقدمة الوجيزة طلب جعفر من النجاشي أن يوجه إلى وفد قريش الأسئلة التالية :

١ ــ أهم عبيد أم أحرار ؟

٢ ــ هل أراقوا دماً فهربوا ؟

٣ ــ هل أخذوا أموال الناس فخرجوا بها ؟

فأجاب عمرو عن الأسئلة الثلاثة بالنفي طبعاً أي لم يكونوا عبيداً ولا قتلة

ولا سراقاً، فقال النجاشي ماذا تطلبون منهم إذاً ! قال عمرو : كنا وهم على دين واحد، دين آبائنا، فتركوا ذلك الدّين واتبعوا غيره. فترى أن عمراً حصر نقطة الاختلاف بينهم أنهم تركوا ما كان يعبد آبائهم واتبعوا ملة أخرى جديدة ولا شيء غيرهما.

فسئل جعفر : ما الدّين الذي تركوه ؟ وما الدّين الجديد الذي اتبعوه ! ..

فبالإجابة على هذين السؤالين ينجلي الحق ويظهر ليزهق الباطل لأنه زهوق دائماً في النهاية والعاقبة للمتقين.

فقال جعفر في شجاعة وثبات ــ كما عرفناه ــ : أما الدّين الذي كنا عليه، فتركناه فهو دين الشيطان. ثم أخذ يفسره قائلاً : كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الدّين الذي تحولنا إليه فهو دين الله ــ الإسلام ــ جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى بن مريم موافقاً له.

فأثارت هذه العبارة الأخيرة في نفس النجاشي ما أثارت ! فقال : تكلمت بأمر عظيم، فعلى رسلك ! ثم أمر بضرب الناقوس ــ على عاداتهم ــ فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، ثم قال لهم : أسألكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين يدي عيسى وبين القيامة نبياً مرسلاً ؟ فقالوا اللهم نعم ! قد بشرنا به عيسى فقال : « من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي » ثم أخذ النجاشي يسأل جعفراً عما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام. وبم يأمرهم ؟ وعن أي شيء ينهاهم ؟.

فأجاب جعفر بالتفصيل الآتي قائلا : يقرأ علينا كتاب الله. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ويأمر بحسن الجوار وبصلة الرحم وبر اليتيم، وبعبادة الله وحده لا شريك له، ثم أبدى النجاشي رغبته في سماع ما تيسر مما نزل على النبي محمد عليه الصلاة والسلام. فقرأ عليه جعفر شيئا من القرآن الكريم، ففاضت عين النجاشي وبعض أصحابه ففيهم نزل قوله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى**

أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ [1] الآيات، قاله قتادة وغير واحد من المفسرين. ثم استزاد قائلا : زدنا سن هذا الكلام الطيب فقرأ عليه سورة الكهف كما تقول بعض الروايات. وعمرو بن العاص جالس يترقب فرصة ليتمكن أن يقول كلمة تثير غضب النجاشي، فلما أخذ جعفر يزيد النجاشي من ذلكم الكلام الطيب من هنا وهناك وعينه تفيض من الدمع، ازداد غيظ عمرو فقال ثائراً : إنهم يسبون عيسى وأمه. وكأن الله أراد أن يظهر الحق ولو بهذه الصورة على حد قوله تعالى :

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾[2] فجعل جعفر يقرأ سورة مريم، رداً لما ادعاه عمرو، ولما سمع النجاشي ما جاء في عيسى وأمه أخذ عودا من الأرض فقال : ما زاد المسيح على ما يقول هؤلاء مثل هذا مشيراً إلى العود الذي بيده. فهذا يعنى منه إعلانا بإيمانه بالنبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام بطريقة غير رسمية ــ طبعاً ــ فلما تناخر بعض بطارقته الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم قال لهم النجاشي : وإن نخرتم والله، ثم قال للمهاجرين اذهبوا وأنتم آمنون بأرضي. من سبكم غرم فلا هوادة.

وتقول بعض روايات السيرة إنه قال : ما أحب أن لى دبر[3] من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم، ثم قال : ردوا عليهم هداياهم فلا حاجة لي فيها. ثم استطرد قائلا : فوالله ما أخذ الله مني رشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه فخرج الوفد القرشي فاشلاً مردودا عليه ما جاء به، هكذا أكرم الله النجاشي بالإسلام، وهو في أرضه، إذ بارك الله في تلك الرحلة الموفقة بأنها كانت لله وحده وما كان لله دام وأثمر.

هكذا دخل الإسلام القارة الإفريقية في تلك الظروف الحرجة في وقت مبكر من ظهور الإسلام، في الوقت الذي كان يطارد فيه الإسلام في مهبطه ومكانه الأول، ذلك من فضل الله سبحانه.

---

(١) سورة المائدة (٨٣)

(٢) سورة البقر (٢١٦)

(٣) الدبر بلغة الحبشة : الجبل.

الدور الأول

وهذه الفترة تعتبر الدور الأول من الأدوار الثلاثة للعمل الإسلامي في أفريقيا، وهو دور دخوله ووضع قدمه فيها، وتبين مما تقدم أن الذين حملوا الإسلام إلى أفريقيا في هذا الدور هم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنهم الذين فهموا الإسلام كما جاء قبل أن يدخل فيه أي دخيل أو فكرة أجنبية أو رأى فاسد بل أخذوه من في رسول الله عليه الصلاة والسلام غضاً طرياً كما نزل، فبلغوه كما فهموه بأمانة دونها كل الأمانات، وبإخلاص يقف دونه كل إخلاص، لذا صار لتبليغهم ذلك التأثير الذي عرفناه في نفس النجاشي وبعض أتباعه ممن أراد الله لهم الهداية ووفقهم، ولقد رأيناهم كيف تأثروا بسماع القرآن، ثم علمنا أن النجاشي لم يتردد في إيمانه رسمياً عندما بلغه كتاب رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي يدعوه فيه إلى الإيمان به وبما جاء به، لأنه قد آمن قلبه قبل وصول الكتاب إليه عندما أخبر بما يدعو إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، لذا سمينا إيمانه أو إعلانه بإيمانه رسمياً لأنه في واقع الأمر مؤمن قبل ذلك، كما لا يخفي، فيعد النجاشي أول ملك يؤمن برسول الله ودينه من ملوك الدنيا ــ فيما نعلم ــ كما تعد قارته الأفريقية أول قارة تطؤها تلكم الأقدام الطاهرة أقدام أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وفيهم بعض آل بيته وأقاربه، بل بعض بناته عليه الصلاة والسلام، وشرفت بالإسلام، هكذا دخل الإسلام قارة أفريقيا باعتبار جزء مهم منها، وهو الحبشة، فإطلاق الكل وإرادة الجزء ليس وليد كلامي، ولا هو من بدعتي بل هو أسلوب عربي معروف وسبيل مسلوك لا ينتطح حوله عنزان.

والذين لبّوا دعوة الإسلام في هذا الدور فهموه حق فهمه لأن الدعاة كانوا من النخبة الممتازة لأن معلمهم الذي لقّنهم الإسلام، وأخذوا منه دينهم هو رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وليس بخاف على أحد ما للمعلّم من الآثار الطيبة، أو السيئة على تلاميذه. فلا غرو إذاً يكونوا بذلك المستوى الممتاز في فهم الإسلام وتصوره، وأن يكونوا

بذلك المستوى الممتاز أيضاً في أسلوب الدعوة والتبليغ، وعلو الهمة، حتى يكون لدعوتهم ذلك التأثير وذلك القبول لدى الناس حتى صار النجاشي أخاً لهم بدعوتهم، يستغفرون له ويصلون عليه يوم وفاته.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج إلى المصلى فكبر أربع تكبيرات فقال : استغفروا لأخيكم[1]، وذكر السهيلي : فكان موت النجاشي في رجب سنة تسع من الهجرة، ولما صلى عليه رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه بالمدينة، وتكلم المنافقون فقالوا : يصلى على علج مات بأرض الحبشة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، لم يصل رسول الله عليه الصلاة والسلام على علج[2] قط، وإنما صلى على من أكرمه الله بالإسلام حتى صار فرداً من أفراد أتباعه عليه الصلاة والسلام.

فتور الدعوة لعدم القيادة

وبعد وفاة النجاشي وقبل انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، مرت على القارة فترة غير قصيرة فترت فيها الدعوة الإسلامية لعدم القيادة ولزوال السلطة التي كانت تحمي الدعوة والدعاة معا بوفاة النجاشي رحمه الله.

ولما بسط سلطانه على معظم الدنيا ودخلت العرب في دين الله أفواجاً وفي عهد الخليفة الثالث بالتحديد عثمان بن عفان رضي الله عنه أخذت الدعوة الإسلامية تنتشر في القارة من جديد إذ دخلت الجيوش الإسلامية تزحف على شمال أفريقيا حتى فتحوا تونس في غزوة معروفة بغزوة العبادلة. إذ اشترك فيها سبعة من الصحابة اسم كل واحد منهم عبد الله. وهم :

١ ـــ عبد الله بن أبي سرح.

---

(١) البخاري : الجنائز، باب الصلاة على الجنازة بالمصلى والمسجد (١٩٩/٣) وباب الصفوف على الجنازة (١٨٦/٣) ومسلم : الجنائز، باب في التكبير على الجنازة ٦٥٦/٢/٦٥٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) كافر من الأعاجم.

٢ ــ عبد الله بن الزبير.

٣ ــ عبد الله بن عمر.

٤ ــ عبد الله بن عباس.

٥ ــ عبد الله بن جعفر.

٦ ــ عبد الله بن مسعود.

٧ ــ عبد الله بن عمرو بن العاص.

ثم لما استقر الأمر لمعاوية رضي الله عنه استأنفت الجيوش الإسلامية زحفها على شمال أفريقيا، حتى تم لهم النصر والفتح، ودخل الإسلام شمال أفريقيا ثم غربها، وحمل إليها عقيدة التوحيد الخالص العقيدة السليمة من شوائب الوثنية. يتضح مما تقدم أن دعاة الإسلام دخلوا القارة أحياناً بطريقة سليمة مفاوضية ودعوا الناس إلى الإسلام بأخلاقهم وسلوكهم كما اضطروا أحياناً إلى استعمال السيف والقوة كما رأينا في شمال أفريقيا، وسواء كان هذا أو ذلك نستطيع أن نسمى هذا الدور الدور الأول للعمل الإسلامي في أفريقيا وهو دور دخوله في فترات متقطعة ــ كما رأينا.

الدور الثاني : ((دور انتشار الإسلام))

إن القارة لم تحظ ــ كغيرها من القارات ــ بالدعوة الإسلامية المنظمة والشاملة بعد تلك الفترة الوجيزة التي تحدثنا عنها آنفا وسميناها الدور الأول لذا نلاحظ أن انتشار الإسلام في هذا الدور الثاني لم يكن ــ في الغالب الكثير ــ على أيدي دعاة واعين وعلماء فاهمين يستطيعون أن يفرقوا بين الأصيل والدخيل، ويميزوا بين الغث والسمين.

« الدعـاة في هـذا الدور »

الدعاة في هذا الدور صنفان اثنان :

أما في شرق أفريقيا فقد وجد تجار العرب من جنوب الجزيرة منافذ إلى الحبشة والسودان والصومال فدخلوا هذه المناطق لغرض التجارة حاملين مع تجارتهم الإسلام إليها. وطبيعي أن التاجر العادي غير الدارس للإسلام دون فهمه لأساليب التجارة، وطرق تنمية الأموال وإن كان يعتز بانتسابه إلى الإسلام بل وبالدعوة إليه في حدود فهمه الضيق لذا تجدهم قد حملوا إلى المنطقة إسلاماً هزيلا مرقعاً كل رقعة تخالف التي بجوارها وبينهما تنافر وتناقض. وربما سموا إسلاماً ما ليس بإسلام من تقاليدهم، وعاداتهم إلا أن ذلك كله لم يكن لسوء قصد وإنما كان لسوء فهم وقصور علم لأنهم غير واعين، ولأنهم عبروا البحر لأجل التجارة، ولما دخلوا المنطقة وجدوا أنفسهم أحسن شيء في الباب ـــ كما تقول بعض الاصطلاحات ـــ فاشتغلوا بالدعوة إلى الإسلام وهم حاطبوا ليل يأخذون ما تقع عليه أيديهم فيدفعونه إلى سكان القارة علما منهم بأن الرجل الأفريقي الذي يعيش في تلك العصور سوف لا يرد ما يأتي به الرجل العربي بل سوف لا يناقشه ويسأله : أصحيح ما يلقيه أو يمليه أم لا ؟ إعتقاداً منه أن الرجل العربي لا يقول أو يقدم باسم الدّين أو ينشر بين الناس إلا ماجاء به النبي الأمي العربي هذا هو اعتقاد الرجل الأفريقي في الرجل العربي، وخصوصا إذا كان الرجل العربي داعية إلى الإسلام، فيعتقد فيه كل شيء دون العصمة، وفي ظني الذي يشبه اليقين أن رجال جميع القارات غير العرب يشاركون الأفارقة في هذا الاعتقاد والتقدير المبالغ فيهما نحو الرجل العربي كما لاحظنا في بعض زياراتنا لبعض الجهات غير أفريقيا.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد والتقدير المبالغ فيهما، قبل سكان المنطقة من التجار كل شيء أتوا به باسم الدّين دون مراجعة أو مناقشة.

فلضعف البصيرة في التجار حملوا إلى المنطقة كل شيء باسم الإسلام، ولحسن ظن السكان قبلوا منهم كل شيء. فانتشر الإسلام في القارة هزيلا مدخولا

مرقعاً كما قلنا فيما تقدم وهذا ما يملكونه (وفاقد الشيء لا يعطيه) طبعاً.

وميزة هؤلاء الدعاة وهم التجار أنهم كانوا يتمتعون بحب الإسلام وحب الخير لسكان القارة. وكانوا حريصين أن يعلموا الناس كل ما علموه صوابا أو خطأ وليسوا باستغلاليين أو نفعيين، فجزاهم الله خير الجزاء على حسن نياتهم ومجهوداتهم.

هكذا نترك هذا الصنف من الدعاة وهم التجار ــ راجين لهم المثوبة من الله ــ لننتقل إلى الحديث عن صنف آخر من الدعاة ــ في زعمهم ــ وهم المتصوفة.

وقد قام هؤلاء بالعمل باسم الإسلام في أفريقيا شرقاً وغرباً وشمالاً.

وقبل أن أخوض في الحديث عنهم، ذكرني موقفهم وتصرفهم عنوان كتاب لبعض الكتاب المعاصرين « الإسلام المفترى عليه » ثم أقول يمكن أن نوجز عمل مشايخ الصوفية فنقول : إنهم دعوا إلى كل شيء غير الإسلام بالمفهوم الصحيح.

أما الإسلام النزيه الذي جاء به رسول الإسلام، وسيد الأنام، فلاصلة لدعوتهم به، ولعلي لا أشق عليكم، أو لا أحرج أحداً لو استطردت حديثاً غير طويل لنعرف شيئاً عن دعوة المتصوفة لأن المشاع على ألسنة بعض الناس أن لمشايخ الصوفية دوراً بارزاً ومهماً في ميدان الدعوة إلى الإسلام، ويزعمون أن الإسلام دخل بعض المناطق في أفريقيا وغيرها على أيديهم.

التحقيق

الواقع أن لمشايخ الصوفية أعمالا ومجهوداً ملموساً في القارة، وأنهم دعوا الناس إلى شيء إلا أن ذلك الشيء غير الإسلام في حقيقته وجوهره، وهم يعلمون في الغالب الكثير هذه الحقيقة من أنفسهم، وإن كان يوجد فيهم من يجهلون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

يعرف تفاصيل ما أجملت كل من خالط القوم، بل قد صرح بذلك بعض

من تاب الله عليهم فتابوا وصرحوا بأنهم ليسوا على شيء قبل التوبة، فنسأل الله لنا ولكم العافية، وأما بعض العبادات التي يؤدونها وفق تعاليم الإسلام وبعض الأوراد التي يترنمون بها في حضراتهم، وتنطلي على السذج، وما قد يتظاهرون به مما ظاهره الإسلام أمام العوام فكل ذلك ملعقة عسل في كوب من السم القاتل فاحذروها لعلكم تسلمون. وقديما قيل (اسأل مجربا ولا تسأل طبيباً).

أهداف مشايخ الصوفية في دعوتهم

يهدف القوم في الغالب الكثير باسم الدعوة إلى الإسلام يهدفون إلى الأمور الآتية :

١ ــ تسخير العوام واستخدامهم في مصالحهم الخاصة بدعوى أنهم أهل الله وخاصته فيجب على الناس جميعاً أن يخضعوا لهم، ويكونوا طوع أمرهم مهما كلفهم الأمر، وإن لم يكونوا كذلك فهم مهددون بسلب إيمانهم وسوء الخاتمة.

وتفادياً لهذا الخطر الجسيم يبالغ عوام المسلمين في الخضوع لهم إلى حد العبادة، وهذا أحد مفاهيم الدعوة إلى الإسلام عند القوم فما رأى القارىء الكريم ؟

وانطلاقاً من هذا المفهوم تقول قاعدة صوفية معروفة :

يجب على المريد أن يكون بين يدى الشيخ كالميت بين يدى الغاسل، مسلوب الحرية والاختيار، فاقد الإرادة والحركة، حتى حركة الضمير وحديث النفس، لأن من صفات الشيخ معرفة مافي الضمائر، ومن خرج على هذه القاعدة يكون عرضة لغضب الشيخ، ومن يحلل عليه غضبه، فقد هلك.

٢ ــ تزهيد الناس في علماء الشريعة وطلاب علم الكتاب والسنة بدعوى أنهم أهل الحقيقة والعلماء أهل الشريعة، أو هم أهل الباطن، والعلماء أهل الظاهر، وعلوم الشريعة قشور غير نافعة ما لم يكن في داخلها اللب الذي عند الصوفية، وهو ما يسمونه بالعلم الباطن أو العلم اللدني. وهذا كما ترى محاربة سافرة لما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام من علم الكتاب والسنة ومحادة لله ولرسوله من

حيث لا يشعرون أو من حيث يشعرون أحياناً.

٣ ــ أنهم يسعون مشمرين عن ساعد الجد للوصول إلى ما يسمونه بالحرية المطلقة وهي التحلل الكلي من جميع التكاليف، وهو دين وحدة الوجود، ويعدون بعض الملاحدة كابن عربي وابن الفارض من أقطابهم، ويحاولون الوصول إلى ما وصلوا إليه من الزندقة، والخروج على الكتاب والسنة، ويلقبون هؤلاء الزنادقة بالألقاب الآتية :

الواصلون : العارفون بالله، الأقطاب وأخيراً الغوث الأعظم، ما أعظم الفرية ؟ وكأن الغوث لا يجمع في إصطلاح القوم، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وبعد؛ فهل يجوز ــ والحال كما وصفت ــ اعتبار مشايخ الصوفية من دعاة الاسلام ؟ كما يحلو لبعضهم اعتبارهم من الدعاة، ومن الممثلين للمسلمين لدى الأجانب كما يسميهم بعض المخدوعين بهم ؟ إن هذا الاعتبار والتمثيل قد شوه جمال الإسلام لدى غير المسلمين، وقضى على سماحته، لأنهم أظهروا الإسلام بمظهر طقوس وثنية واستغلالية ومكنوا بذلك لأعداء الإسلام أن ينالوا من الإسلام أيما نيل، لهذا كله لا أبيح لنفسي، ولا لمن يسمع نصيحتي القول بأنهم من دعاة الإسلام بل الذي يجب أن يقال لبيان الواقع ولكشف الحقائق : إنهم دعوا الناس إلى عبادة مشايخهم وأقطابه، وصرفوا الناس عن المفهوم الصحيح للإسلام، وقد يقول قائل منهم : إنهم قد أدخلوا كثيراً من الوثنيين في الإسلام.

الجواب حقا أنهم أخرجوهم من الوثنية السافرة، وأدخلوهم في الوثنية المقنعة بعد أن أطلقوا عليها اسم الإسلام لتقبل وتستساغ.

أما الإسلام بمفهومه الصحيح فهم في معزل عنه فضلاً عن أن يدخلوا غيرهم في صميمة وأني لهم ذلك. إذ « فاقد الشيء لا يعطيه ».

ولا شك أن هذا التخبط نتيجة لإهمال دعاة الإسلام واجبهم، وتقصيرهم في أداء واجب الدعوة الإسلامية كما يجب، لذا وهم يتحملون تبعة ذلك كله لأنهم مع فهمهم وقدرتهم تركوا المجال لغيرهم حتى خلا الجو لمشايخ الصوفية ومن تبعهم بغير إحسان.

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري[1]

وخشية أن يقول قائل ــ ولو في نفسه ــ إن كل ما ذكرته من أوصاف القوم وأحوالهم نعتبره دعوى. وهل لديك دليل على ما زعمت ؟ خشية أن يرد هذا النوع من التعليق، لنسمع معاً بيتين لبعض أقطابهم أحدهما لابن الفارض حيث يزعم أنه اتحد مع الله بحيث لو صلى فإنما يصلي لنفسه فسجوده لنفسه وركوعه له وهكذا، وذلك إذ يقول :

لها صلوات بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

والبيت من تائيته المشهورة التي يطرب مشايخ الصوفية عند قراءتها، فأنت ترى إنه يزعم أنه صار رباً وعبدا في وقت واحد عبداً يصلي، وربما يصلى له، وقد صرح بهذا المعنى أحد رؤسائهم ــ أحسبه ابن العربي ــ إذ يقول :

الرب عبد والعبد رب ليت شعري من المكلف

هذه هي المنزلة التي يشمر لها كل شيخ من مشايخ الصوفية كما يعرف ذلك كل من له اتصال بالقوم. وهل يمكن إدخال هذا المعنى في مفهوم الدعوة الإسلامية ! ! !

وأما البيت الثاني فقد قاله الكولحي الأفريقي وهو يدعو الناس إلى تقديس نفسه، والغلو فيه إلى حد العبادات، زاعماً أن محبته ورؤيته توجبان للمرء دخول الجنة ولا محالة حيث يقول :

ومن أحبني ومن رآني في جنة الخلد بلا بهتان

وأكتفي بهذا النموذج من كلام القوم شاهداً ودليلاً على ما ذكرت من

---

(١) انظر الزهد لوكيع (١٦٤) وفضائل الصحابة للإمام أحمد ٥٦٧ رقم ٨٧٩، وحياة الحيوان للدميري في باب قبره (٢/٢٤٠) وياقوت الحموي في معجم البلدان في باب معمر (١٥٨/٥) من شعر طرفة.

شطحاتهم، وما أوردت من أحوالهم وصفاتهم ومن أراد المزيد فعليه بكتب القوم، وهي منشرة في مناطقها طبعاً. والله المستعان.

ومن هذا الشرح الموجز نتبين أن الإسلام دخل القارة أول ما دخل بمفهومه الصحيح، وخالطت بشاشته القلوب وذاقت حلاوته، ثم بعد فترة غير قصيرة أخذ ينتشر على أيدي جماعة تتمتع بحب الإسلام وحب الخير والهداية للمسلمين ولكنها لم تهضم الإسلام ولم تفهمه حق فهمه وهم التجار.

ولما رأى مشايخ الصوفية خلو الميدان وتقاعس دعاة الحق عن واجبهم، نزلوا الميدان ولقبوا أنفسهم بما سبق أن سمعناه من الألقاب الخداعة، فنزلوا ميدان الدعوة إلى الإسلام، ليتاجروا بالدين وليجعلوا الإسلام واجهة لدعوتهم الوثنية أو الإلحادية أحيانا على ما تقدم، فأفسدوا في الأرض بعد صلاحها، وحجبوا القلوب عن الله، وأفسدوها حتى صار أتباعهم ومريدوهم يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية، ويراقبونهم أشد من مراقبتهم لله، هل هذا هو الدّين ؟ وهل هذه هي الدعوة إلى الإسلام ؟ وأي إسلام هذا ؟ يا سبحان الله.

وللأسف الشديد هذا هو مفهوم الدّين الإسلامي عند جمهور المسلمين الذين تلقوا الإسلام على أيدي مشايخ الطرق، ولدى كثير من الذين يحسنون الظن بهم، والذي يؤسف أكثر وأكثر أن يكون هذا موقف بعض علماء المسلمين الذين درسوا ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنهم لم يرزقوا الفقه في الدّين، (ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدّين)[1]، والدراسة شيء والفقه شيء آخر، الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وله الحمد والمنة وحده، ربنا لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

تمكين التصوف لجرائم الشيوعية

عندما دخلت الشيوعية كثيرا من الأقطار الإسلامية التي يزعم سكانها

(١) تقدم تخريجه

أنهم مؤمنون كيف كانت مقاومة إيمانهم لنار الشيوعية ؟

هل اطفأها إيمانهم ذلك حتى صارت برداً وسلاماً على سكان تلك الأقطار؟ أم المشاهد أن نار الشيوعية سرت في تلك القلوب سريان النار في القصب اليابس ؟ أو ليس المشاهد أن إيمان أولئك السكان المؤمنين ذاب أمام الشيوعية ذوبان الملح في الماء ؟ وأكلته الشيوعية كما تأكل النار الحطب ؟ هذا هو الواقع ولماذا ؟ لماذا لم نجد المقاومة من أولئك المؤمنين ؟ ولماذا هذه الهزيمة أمام الشيوعية ؟ وما السر في ذلك ؟ ونحن نعلم جميعاً أن الإيمان الصادق لا تقف أمامه الشبهات والشهوات بل لا يصادف شبهة أو شهوة أو ذنباً إلا أحرقه — كما يقول بعض أهل العلم — وهذا حال الصادق في إيمانه من علماء الشريعة الذين مصدر إيمانهم الوحي الإلهي — الكتاب والسنة.

فأين أتباع الصوفية وأشباههم في الجهل من مثل هذا الموقف ؟

أقول مستعينا بالله : إن الذي أستطيع أن أقوله جواباً عن هذه الاستفهامات، استنتاجاً من واقع جمهور المسلمين : هو أن الفكرة الشيوعية عندما جاءت إلى المنطقة، وجدت بعض القلوب تطوف حول صنم المادة، ووجدت قلوباً أخرى تطوف حول صنم الشهوات البهيمية، كما وجدت قلوباً أخرى تطوف حول وثن التصوف متعلقة بأستار أضرحة المشايخ، لائذة بها، راكعة وساجدة أمام عظمة الشيخ أو المشايخ، ناسية ربهم وخالقهم، أجل وجدت الشيوعية تلك القلوب في هذه الأماكن القذرة — على الرغم من دعوى الإيمان، فساقتها كلها من حول تلك المعبودات الرخيصة، وجمعتها وذوبتها وقضت عليها ولا حولا ولا قوة إلا بالله، وهذه القلوب هي التي كان إيمانها إيماناً تقليدياً ضحلا ولم يبلغ درجة اليقين، وهي قلوب جمهور المسلمين الذين انتسبوا إلى الإيمان على أيدى مشايخ الصوفية وأتباعهم وأشباههم في الجهل ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم يذوقوا حلاوته، ولا يخص هذا الموقف القارة التي نتحدث عنها ولكنه بلاء عام، والله المستعان.

أما القلوب المؤمنة بالله المطمئنة في إيمانها والتي لم يجدوها حول تلك الأصنام

والأوثان. بل لم يستطيعوا الوصول إليها. لأنها كانت مع الله في عبادة الله، في ذكر الله، في بيت من بيوت الله، وكانت مشغولة بالله عن غير الله في جنة الأنس بالله، وقد أغمضت عينها عما سوى الله، في تدبر كتاب الله تجول في مخلوقاته وآلائه ونعمائه لتثنى على المنعم بها سبحانه.

وقد ابتعدت عن جيفة المادة وروث الشهوات وشرك الصوفية بل قد سمت همتها حتى كادت أن تكون مع الملائكة في طهارتهم وسموهم. هذه القلوب في واد، والشيوعية في واد آخر. لا يجتمعان، بل لو مرت الشيوعية بواديهم لأذابها إيمانها وأخمدها، وهذه القلوب هي التي بقيت في المنطقة اليوم مؤمنة بالله وبكتابه وبرسوله واليوم الآخر والله ولي التوفيق.

الدور الثالث والأخير

دور التصحيح

مما لا يختلف فيه أثنان فاهمان للإسلام حق فهمه أن مفهوم الإسلام بحاجة إلى التصحيح لدى كثير من المسلمين في قارة أفريقيا وغيرها من القارات ولعل إنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوة بهذا المستوى العالي يعتبر عنواناً بارزاً في دور التصحيح ـــ إن وفق المسؤولون فيها وأحسنوا التصرف في استغلالها في ميدان التصحيح ـــ لأن تجمع أبناء المسلمين من أقطار الدنيا في هذه الجامعة الفتية ليدرسوا منهجاً موحداً في جو إسلامي كهذا، ثم ليرجعوا إلى ديارهم ليفقهوا قومهم، فهذا العمل بحق نوع من أنواع التصحيح إن صدق طلاب الجامعة، وأخلصوا عملهم لله ونصحوا، وأنصفوا، وهو المتوقع منهم بإذن الله.

ولقد أدركت الجامعة الإسلامية، وإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض حاجة القارة الإفريقية الماسة إلى هذا التصحيح، وقدرتا ذلك كما يجب، فتقديراً منهما بتلك الحاجة، قد اتفقتا على التعاون، وتنسيق العمل التصحيحي فيما بينهما بأن تختار الجامعة الإسلامية من خريجيها من يحصل بهم المقصود فتقدمهم لرياسة إدارة البحوث العملية بالرياض لتبعثهم إلى القارة شرقها وغربها ووسطها، وهو كما ترى تعاون إسلامي مشكور ومثمر بإذن الله إلا أنه لا يزال بحاجة إلى مزيد من التخطيط والتنظيم فنسأل الله تعالى مزيد التوفيق للمسؤولين في كل من الجامعة وإدارة البحوث حتى يتم تنظيم هذا العمل الجليل أكثر من ذي قبل، ليتحقق الغرض الذي نظم التعاون من جله على أحسن وجه، وهو تجديد وتصحيح مفهوم الإسلام لدى جمهور المسلمين وإزالة تلك الرواسب الوثنية التي علقت بعقيدتهم والبدع التي شاعت في عبادتهم وفساد الأخلاق الذي ساد صفوفهم وإلحاد الدستور الذي استوردوه من بلاد أعدائهم، واستبدلوا به كتاب ربهم، وسنة نبيهم، وإزالة تلك الوحشية التي خيمت على قلوبهم، حتى فقدوا نعمة الأنس بالله

والتوكل عليه والثقة به والالتجاء إليه والاكتفاء به، هذه هي ميادين التجديد والتصحيح.

وإذا سمينا هذا الدور دور التصحيح فليس يعنى ذلك الحط من قيمة الأعمال الجبارة التي يقوم بها الدعاة هناك لأن التصحيح الذي نعنيه لا يتم بجرة قلم أو بجعل حرف مكان حرف أو جملة مكان جملة أخرى، بل هو تصحيح يعنى استئصال الجاهلية المزمنة ليحل الإسلام مكانها، وتطهير القلوب من آثار الوثنية والبدع، والخرافات القديمة، حتى تحيا تلك القلوب بنور الإيمان والتوحيد الخالص، وحتى تحل الأحكام الإسلامية العادلة مكان تلكم الأحكام الجائرة التي خلفها الاستعمار وورثها قوما آخرين.

وعمل كهذا ليس بالأمر السهل بل هو عمل شاق وجهاد عظيم رزقنا الله وإياهم الإخلاص فيه، وابتغاء وجهه بنفع عباده وتعليمهم ما يجهلونه، إنه عليم بذات الصدور.

« دعـــاة محليـــون »

هنا أمر مهم أرى ضرورة التنوية به. وهو أن القارة الأفريقية قد حظيت بالدعاة المحليين المصلحين في فترات متقطعة وأماكن مختلفة عبر التاريخ الطويل من أهم هؤلاء الدعاة وأسبقهم زمنا وأشملهم دعوة، السلطان المجاهد العالم السلفى الشيخ عثمان بن محمد المعروف بابن فودى الفلاني.

ولد الداعية عثمان فودى سنة ١١٦٩ هـ وتوفى سنة ١٢٣٢ هـ وبدأ في العمل الإصلاحي والدعوة إلى الإسلام سنة ١١٨٨ هـ، وقد دعا الناس إلى الإسلام الصحيح الذي ابتعد عنه كثير من الناس، وجاهد وقاتل في سبيل ذلك إذا دعت الحاجة إلى القتال، واتصل بالأمراء، والعلماء التائهين عن الصواب، دعاهم ليعودوا إلى الصواب وإلى فهم الإسلام وتصوره على حقيقته يوم جاء من عند الله عقيدة وعبادة وسياسة وخلقاً، ولا تزال تلوح آثار دعوته في شمال نيجيريا، وخصوصاً

أمهات المدن التي كانت عواصم لدعوته ودعوة أبنائه وأحفاده من بعده مثل سكتو وزاريا وجص وغيرها، من أراد أن يعرف الرجل : دعوته وأسلوب دعوته فعليه بقراءة بعض مؤلفاته، ومن أهمها :

« سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان » وهو كتاب صغير الحجم، لكنه جم العلم وكثير الفوائد ينبيء عن علم صاحبه وحرصه الشديد على هداية العباد مع ما يلاحظ من حزمه وصرامته وصراحته في بيان الحق.

ومن ذريته : الشهيد الإسلامي الحاج أحمد بلو رئيس وزارء شمال نيجيريا الذي ختم الله له حياته بالدعوة إلى الإسلام. وقد اعتنق الإسلام على يده خلق كثير من الوثنيين والمسيحيين. وقد حضرنا أنا وزملائي أعضاء وفد الجامعة الإسلامية حملته العظيمة في التبشير بالاسلام في شمال نيجيريا عام ١٣٨٥ هـ وقد تحولت مناطق كثيرة مسيحية أو وثنية إلى مناطق إسلامية بحمد الله تعالى، وكم من قرى مسيحية وأخرى وثنية كانت تصبح مسيحية أو وثنية فتمسى إسلامية بدعوته، وكم من كنائس نصرانية تحولت مساجد إسلامية بين عشية وضحاها، وقد كانت الجرائد اليومية في نيجيريا تحمل إلى القراء أرقاماً خيالية للمسلمين الجدد كما كانت الاذاعة المحلية تبث أخباراً تثلج صدور المسلمين، وتضيق عنها صدور الحاقدين من الصهاينة والنصارى الذين تواطئوا على تدبير تلك المؤامرة الأثيمة التي أدت إلى اغتيال الشهيد بعد أن قدم أمامه تلك الأعمال الجليلة، فنسأل الله تعالى أن يتقبلها منه ويلحقه بالصالحين إنه لا يضيع أجر المحسنين.

٢ ــ الشيخ محمد عبد الله المالى المدنى، وقد عاش هذا الداعية في المدينة المنورة فترة من الزمن، وتولى إمامة المسجد النبوى في أوائل عهد الملك عبد العزيز رحمه الله، ثم سافر إلى الهند، ثم صنعاء اليمن، ثم دخل شرق أفريقيا عن طريق الصومال والحبشة، وهي جولة علمية وتبليغية معاً إلى أن انتهى به المطاف إلى وطنه مالي، ليصدع بالحق، معرضاً عن الجاهلين من مشايخ الصوفية وأصحاب الشعوذة وأرباب التقليد الأعمى ــ المعتزلة المعطلة وأتباعهم فأخذ ينشر علم الكتاب والسنة

وعقيدة سلف هذه الأمة الذين ينحصر كل خير في اتباعهم وهم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام والتابعين لهم بإحسان وقد أحسن من قال :

وكل خير في أتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وقد بدأ دعوته المباركة في شرقي مالي عام ١٣٥٧ هـ واستمر في دعوته وجهاده إلى أن توفى عام ١٣٧٣ هـ رحمه الله ـــ بعد أن ترك آثار دعوته ظاهرة وورث العلم والعقيدة السلفية عدداً لا يستهان به من طلاب العلم الذين ساروا بعده سيرته وصاروا خير خلف في الدعوة ومحاولة الاصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

٣ ـــ الشيخ طاهر الجزائري ـــ وقد عالجت دعوته جانبا مهما هو جانب العقيدة وإصلاحها، وقد ألف في ذلك عدة رسائل نافعة بإذن الله ومن مؤلفاته :

(أ) الإيمان.

(ب) الشرك ومظاهره.

(جـ) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية.

وهو من العلماء الأبطال الذين شاركوا في ذلك الكفاح المرير ضد الفرنسيين في الجزائر الذي كتب الله له النجاح في النهاية.

هكذا يتضح لك أيها المستمع الكريم أن دراسة تاريخ القارة،ودور الدعوة الإسلامية وتاريخها يجعل تلك العبارة المشهورة «مجاهيل أفريقيا» خرافة تاريخية لا تدل على الواقع والحقيقة الملموسة في القارة بل الواقع يكذبها كما لا يخفي.

وبعد؛ أحسب أنني أعطيت القارىء الكريم صورة واضحة عن الدعوة الإسلامية في القارة عبر التاريخ أو ـــ على الأقل ـــ أثرت في نفسه شعور الاستطلاع ليدرس تارخ القارة، ودورة الدعوة الإسلامية فيها، وسبقها إلى الإسلام، وموقفها الكريم من دعاة الإسلام في صدر الاسلام، وهم أصحاب رسول الله .

ﷺ، أجل، أرجو أني أعطيت القارىء تلك الصورة، أو هذا المعنى للدعاة لأعود إلى الحديث عن الدعاة الذين هم في الميدان الآن، وأتحدث عن بعض الشروط الضرورية لنجاح الدعوة بإذن الله في القارة الأفريقية وغيرها.

شروط الدعاة

إن نجاح الأعمال في الغالب الكثير يتوقف على نوعية العاملين، لذا أرى من الضروري وضع شروط تحدد لنا نوعية الدعاة الذين نبعثهم إلى الميدان لندون تلك الشروط لدى الجهات المسئولة فتطبق عند انتخاب الدعاة واختيارهم وهي كالآتي :

(أ) يجب أن يكون الدعية ذا عقيدة راسخة وصادقة، وكم منيت شعوب كثيرة بدعاة خالية قلوبهم عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، وكم منيت تلك الشعوب بدعاة لم يتصوروا حقيقة الإسلام، ولم يفهموه حق فهمه، دعاة إلى حفلات الموالد، دعاة الرجبية والشعبانية، دعاة الأوراد الصوفية المبتدعة، بل منيت بدعاة يدعون إلى نفى صفات الله تعالى وتعطيلها بعد أن أثبتها الله لنفسه، يفعلون ذلك بدعوى التنزيه، بل الدعاة الداعين إلى التحلل والابتعاد عن الفضيلة لتحل محلها الرذيلة بدعوى الحرية والتطور، يدعون إلى كل ذلك باسم الإسلام إنه الإسلام المفترى عليه.

(ب) الفقه في الدّين والبصيرة في أسلوب الدعوة، استنتاجاً من قوله تعالى :

﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾(١)

(جـ) الحكمة والإتزان وعدم الطيش **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾**(٢)، **﴿ ومن يؤت الحكمة، فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾**(٣). والحكمة بأوجز عبارة وأدقها هي اللين في موضع اللين والشدة في موضع الشدة.

---

(١) سوره يوسف (١٠٨).

(٢) سورة النحل (١٢٥).

(٣) سورة البقرة (٢٦٩).

(د) تجنب المداهنة، وهي من أخطر الصفات في الداعية، وهي التودد والتملق للناس على حساب الدين بحيث يعجز في النهاية عن بيان الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مراعاة لخواطر الجمهور، فيكون معه إذا صلح الناس صلح معهم، وإذا فسدوا فسد معهم.

(هـ) الصبر والتحمل لأن علاج الأوضاع القائمة في الأقطار الإسلامية يحتاج زمناً طويلا يقرب من طول عمر الجاهلية المزمنة أو أطول.

وإذا طابقنا هذه الشروط أو ما يقاربها من الصفات في الدعاة الذين يعملون في هذا الدور ـــ دور التصحيح ـــ صرنا قريبين من درب النجاح في عملنا بإذن الله، وإن كنا ندرك الحاجة الماسة إلى إعادة النظر في تنظيم عمل الدعوة بصفة عامة، بل العمل الإسلامي من حيث هو لم يحظ بالتنظيم الدقيق بعد، علماً بأن العمل القليل المنظم خيرٌ وأكثر ثمرة من العمل الكثير غير المنظم كما لا يخفى.

عندما يرى المرء عمل المبشرين، ودقة تنظيمهم لحركتهم التبشيرية، والتضحية التي يقدمونها أثناء القيام بعمل التبشير، والصبر، والتجلد منهم، ثم قارن ذلك بالفوضى والتخبط اللذين يسودان صفوف المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية، وعدم الجدية في عملهم، بل يعتبر العمل الإسلامي عملا ثانوياً إضافياً يقوم به الإنسان في أثناء فراغه من الأعمال الرسمية الجادة في نظره، إذا قارن الإنسان هذه المقارنة يرى قوماً أهل باطل يجدون في الدعوة إلى باطلهم، ويخلصون في دعوتهم بينما يرى أهل الحق يهملون حقهم، ويتكاسلون، ولا يتنافسون في سبيله والله المستعان.

وعلى الرغم من كثرة المراكز التي تحمل اسم الدعوة إلى الإسلام، وعلى الرغم من كثرة من ينتسبون إلى الدعوة ويعيشون تحت عنوان الدعاة إلى الإسلام، وكثرة ما يكتب ويذاع باسم الدعوة إلى الإسلام، على الرغم من ذلك كله، فإن الدعوة إلى الإسلام تأسيساً وتصحيحاً أو تجديداً لا تزال تشكو عدم الجدية من أصحابها في الغالب الكثير، بل كثيراً ما تستغل كأسباب للمعيشة وكأسباب للحياة أو الوصول إلى المناصب الدينية المرموقة التي لا يمكن الوصول إليها إلا باسم

الدعوة إلى الإسلام حتى تكسب الثقة وتنال الشهرة على حسابها، كما تشكو عدم الكفاءة العلمية والأسلوبية وقلة الحكمة، وضعف الإخلاص من كثير من أصحابها، والله المستعان.

وفي يقيني أن رياسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد تدرك هذه الحقائق، ولعلها تحاول أن تخرج بالدعوة الإسلامية من هذا المأزق بأن تقوم بتوحيد مراكز الدعوة وأمانات الدعوة الإسلامية وتجند للمركز العام للدعوة خبراء ومخططين إسلاميين يعملون في المركز ثم تجند لميدان الدعوة المباشر رجالا عرفوا بالعلم والحكمة والجدية والتحمس الذاتي للدعوة الإسلامية لا لكونها وظيفة تدر عليهم الرزق الواسع والمرتب الضخم وتكسبهم الجاه العريض والشهرة العالمية.

وأملنا قوى، وآمال جميع المسلمين في الداخل والخارج في سماحة الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بعد الله ليقوم سماحته بهذه المهمة الإسلامية الإصلاحية ليحقق الله على يده هذه الآمال لأنه صاحب هذه المهمة، وهو أحق بها وأهلها المسئول عنها على جميع المستويات حفظه الله ونفع المسلمين بعلمه وجهاده إنه خير مسئول.

سير الدعوة في القارة الأفريقية

تمكنت بتوفيق الله من زيارة عديد من القارة وأكثرها في غرب أفريقيا، والفضل في ذلك راجع ــ بعد الله ــ للجامعة الإسلامية إذ كنت عضواً في وفود الجامعة التي ترددت إلى تلك الدول للزيارة الأخوية وللدعوة والتوجيه والتوعية وللمساهمة مع الدعاة القائمين بالدعوة هنالك.

وإذا قارنا بين زيارتنا لتلك الدول في سنة ١٣٨٥ هـ وسنة ١٣٨٦ هـ وبين زيارتنا في الصيف الماضي سنة ١٣٩٥ هـ، وجدنا ما يفرح القلب ويثلج الصدر من سير الدعوة الإسلامية في تلك الدول وتقدمها، ولله الحمد والمنة.

والدول التي تمت لنا زيارتها هي :

١ ــ تشاد.

٢ ــ الكمرون.

٣ ــ نيجيريا.

٤ ــ داهومي.

٥ ــ توجو.

٦ ــ النيجر.

٧ ــ ساحل العاج.

٨ ــ فولتنا العليا.

٩ ــ مالي.

١٠ ــ سنغال.

١١ ــ ليبيريا.

١٢ ــ سيراليون.

١٣ ــ موريتانيا.

١٤ ــ غانا

١٥ ــ غينيا.

وفي زيارتنا الأولى والثانية كنا نلاحظ في بعض تلك الدول المذكورة غربة شديدة يعانيها الدعاة والدعوة معا. وكان وضعهم يشبه تقريبا وضع الصحابة يوم كانوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم قبل إسلام عمر وحمزه رضى الله عنهما في مهدها سرية. وخوف على النفس وخوف على الدعوة أن يقضى عليها دعوة باسم الدعوة الوهابية ما أشبه الليلة بالبارحة.

وأما زيارتنا الثالثة في الصيف الماضي. فقد أسلم عمر وحمزة معا وسلمت الدعوة وزال الخوف وأمن الدعاة أنفسهم وعلى دعوتهم بل جهروا بها بل بنوا مساجد للجمعة والجماعات، وأسسوا مدارس وأنشأوا جمعيات تحت عنوان «الجمعية المحمدية» أو جمعية أهل السنة، أو ما يقارب هذه الألفاظ على اختلاف بلدانهم.

ولقد لا حظنا في الدعاة السنيين روحا عالية، وعزيمة ماضية وروح الجهاد والتضحية مع ما ينقصهم من الإمكانيات المادية والثقافية، ولكنهم في الواقع أنشط وأصدق في دعوتهم من الكثير من الذين يملكون الإمكانيات الضخمة مادية وثقافية والله المستعان.

ولك أن تتساءل هنا وعليّ أن أجيبك، لك أن تسأل على يد من تم هذا التقدم الذي وصفته بالنسبة للدعاة السنيين ودعوتهم في بعض دول غرب أفريقيا ؟

الجواب : اشتركت عدة جهات في العمل المذكور

أولا : صغار طلبة العلم من سكان القارة الذين عاشوا في الحرمين الشريفين برهة من الزمن، وتتلمذوا على بعض المدرسين في الحرمين، ثم رجعوا إلى بلادهم فبلغوا ما فهموه عملا بقوله تعالى ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾[1] وقد عملوا بالقليل الذي علموه، زادنا الله وإياهم من العلم النافع.

ثانياً : الدعاة التابعون لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الذين تعرفون عنهم الكثير، ولست بحاجة إلى التعريف بهم.

ثالثاً : وفود الجامعة الإسلامية، ووفود إدارة البحوث العلمية التي تكررت زيارتها للمنطقة، وقاموا بما أمكن لهم من التوعية والتوجيه والتعليم بواسطة المحاضرات والندوات العلمية، والأمسيات الدّينية، والاتصالات الرسمية وغير الرسمية.

---

(١) سورة التغابن (١٦)

رابعاً : زيارة بعض الشخصيات السعودية الذين زاروا بعض تلك الدول بدعوة من الجهات الرسمية كزيارة إمام المسجد النبوي الشيخ عبد العزيز بن صالح الذي زار بعض تلك المناطق، ولزيارته أثر فعال في باب التوعية والتوجيه ومحاربة البدع وبعض مظاهر الوثنية.

خامساً : بعض حجاج القارة الذين تكررت زيارتهم للمملكة واستفادوا مما يسمعونه أثناء موسم الحج من المدرسين في الحرمين الشريفين وندوات التوعية. وقد يتأخر بعضهم بعد أداء فريضة الحج لغرض الإزدياد من العلم والمعرفة برهة من الزمن حسب ظروف النظام.

هذه الجهات الخمس هي التي تعاونت في تطوير الدعوة في المنطقة فيما نعلم، وقد بارك الله في تعاونهم حتى وصلت الدعوة إلى الدرجة التي وصفناها من التقدم والظهور ولله الحمد والمنة؛ فنسأل الله تعالى أن يوفق الجامعيين الأقارقة حتى يكملوا هذا البناء الذي أسسه إخوانهم الذين سبق أن وصفناهم إنه ولي التوفيق ليكتب لهم أجر المساهمة في هذا الخير، وفي هذا الجهاد العظيم الذي من أجله تعلموا، ومن أجله سيعملون إن شاء الله.

دور الجامعيين الأفارقة

إذا تحدثت عن الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية عبر التاريخ الطويل اعتباراً من هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى ذلك الجزء من القارة وهي الحبشة ـــ إلى يوم الناس هذا لا أستطيع أن أغفل الحديث عن دور الجامعيين الأفارقة وهم خير سكان القارة لأنهم أهل العلم والمعرفة ـــ فهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ !

وقد يحملنا على التفاؤل لمستقبل القارة، أن الجامعات الإسلامية، وفي طليعتها جامعتنا هذه أخذت تخرج عدداً كبيراً من أبناء القارة في الوقت الذي

يعتبر ــ بحق ــ خير وقت وأسعده وأبركه وأصلحه للعمل الإسلامي في القارة، وهو الوقت الذي تحاول فيه شعوب المنطقة التخلص من آثار الاستعمار الغربي والشرقي معاً، لتربط علاقتها الوثيقة مع إخوة لها في الدين والعقيدة وهم الشعوب العربية والإسلامية، ثم هو الوقت الذي أخذ فيه الوعي الإسلامي يتقدم في المنطقة بشكل ملموس كما لاحظنا في زيارتنا المتكررة.

وفي هذا الوقت الذي تتوفر فيه عوامل التشجيع على العمل الإسلامي، أخذت جامعتنا تخرج أبناء القارة، ليأخذوا أماكنهم في صفوف الإصلاح الإسلامي، ويقدموا لقومهم خير ما يقدم المسلم لأخيه المسلم، وهو العقيدة الصحيحة، وتعميق الإيمان وإثباته، والتوجيه الإسلامي العام الذي يشغل جوانب الحياة كلها، إذ في إمكان الجامعيين أن يلعبوا في القارة دوراً لا يمكن لغيرهم أن يلعبه، في إمكانهم أن يحاولوا ــ مستعينين بالله ــ تحويل القارة إسلامية خالصة بعد أن نفضت غبار الاستعمار عن وجهها لتثبت شخصيتها الأفريقية الإسلامية وسيادتها الذاتية، لتصبح إسلامية في سياستها واقتصادها وأخلاقها وجميع جوانب حياتها.

ويرجى لعمل الجامعيين النتائج الإيجابية إذا صدقوا مع الله وأخلصوا العمل لله لأنه سبحانه هو الذي له الأمر كله، وله الخلق كله،وبيده الخير كله. ترجى لعملهم نتائج إيجابية إذا راقبوا الله، ثم ضحوا في سبيل نصرة دينهم بكل ما يملكون من رخيص وغال، وتركوا الاتكال والكسل والخلودإلى الراحة ليعيشوا حياة الأبطال المجاهدين، حياة العلماء العاملين والدعاةالمخلصين المصلحين.

إن العمل الإسلامي في القارة بحاجة إلى تخطيط يسبق العمل ذلك شأن كل عمل ترجى نتائجه، وإلى دراسة طويلة وصامتة دون جعجعة أو ثرثرة أو استعمال بوق أو ضرب الناقوس.

وقصارى القول : إن القارة بحاجة إلى مجهود أبنائها المخلصين الذي يتم في هدوء تام وحكمة وروية، إن القارة أحوج إليهم أكثر من حاجتها إلى غيرهم لأنهم الذين يعرفون من تقاليدها وعاداتها وأساليب حياتها ولغاتها الكثيرة ما لا يعرفه غيرهم. لذا

أعود فأقول : لا ينبغي للجامعيين الأفارقة أن ينسوا أماكنهم في الصفوف الأولى في ميدان العمل الإسلامي في القارة لأنهم أحق بها وهم أهلها وأصحابها، ويستطيعون حل مشاكلها المزمنة سياسية أو اجتماعية تلك التي خلفها الاستعمار الغربي وزاد من تعقيدها الاستعمار الشرقي الجديد في المنطقة الذي تمكن في أقطار من القارة على حين غفلة من أهلها.

أيها الإخوة الجامعيون ! الفرصة سانحة إن أحسنتم استغلالها والاستفادة منها لأن الشعوب الأفريقية أقبلت على الإسلام اليوم إقبالا لا نعلم له نظيراً في التاريخ، وأوضح دليل وأقربه ماذكرت ما جاء في مؤتمر نواكشوط الذي انعقد في أول هذا الشهر الجارى جمادى الأولى، وبينما أنا أعد هذه المحاضرة وقعت في يدي جريدة المدينة المنورة العدد الصادر يوم الأبعاء السادس من هذا الشهر جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ وهي تحمل العنوان الآتي : المؤتمر الأفريقي الإسلامي يبحث نشر الإسلام في أفريقيا وفي الواقع : إن العنوان راعى كثيراً، فأخذنى لأقرأ ما كتبه مراسل الجريدة وهذا نصه : كانت النقاط الرئيسية التي تم تناولها في اليوم الأول للمؤتمر الأفريقي الإسلامي الذي افتتح في (نواكشوط) هي : نشر الإسلام في أفريقيا، وتعميم اللغة العربية والوحدة والتضامن » . ولعل المراد بالوحدة والتضامن الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وهذه النقاط تصلح أن تكون ميادين لعمل الجامعيين، لأنهم خير من يستغل مثل هذه الفرص والله ولي التوفيق.



المحاضرة الثامنة

نظام الأسرة في الإسلام

الحمد لله وصلاة وسلامه وبركاته على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد، تلقت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة دعوة كريمة من المجلس الأعلى لمسلمى كينيا بنيروبي للمشاركة في هذه الندوة الدينية المباركة ـــ إن شاء الله.

فبادرت الجامعة فلبّت الدعوة، ثم طلبت إليّ الاشتراك في الندوة ممثلا لها ببحث أقدمه فيها.

فلبّيت الطلب طبعا لأنه طلب لا يرد مثله، لأن في تلبية مثل هذا الطلب مساهمة في ميدان من ميادين الدعوة إلى الله والدعوة إلى الله من أهم أهداف الجامعة الإسلامية، ومن أجلها أنشئت.

فهأناذا أتقدم بهذا البحث المتواضع (١) تحت عنوان :

« نظـام الأسـرة في الإســلام »

والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه خير مسئول وأكرم معط، فأقول مستعينا بالله وحده.

إن للدعوة الإسلامية مجالات متعددة، وأساليب مختلفة، ومن أساليبها إقامة الندوات والمؤتمرات التي يلتقى فيها رجال الفكر الإسلامي وفقهاء المسلمين ليعالجوا فيها مشكلات الوقت، ويردوا الشبهات التي تثار حول الإسلام وعقيدة المسلمين، ويبينوا للناس أحكام الدّين الإسلامي في جميع مجالات الحياة لمن يحتاجون إلى البيان ـــ وما أكثر من يحتاجون ـــ ليكون الناس على بينة من أمور دينهم ودنياهم، ويكون ذلك على ضوء الكتاب والسنة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولا سبيل للخروج من ظلمات الجهل والجاهلية إلا بفقه الكتاب والسنة، وتلك وظيفة رسل الله عليهم الصلاة والسلام من أولهم نوح عليه السلام إلى خاتمهم وإمامهم محمد عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في مدينة (كوسومو) في كينيا في (الندوة الدّينية) التي أقامها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في كينيا.

فيقول الله تعالى مخاطباً لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ومبينا لوظيفته ووظيفة أتباعه ﴿ **يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا** ﴾..

في هذه الآى الثلاث من سورة الأحزاب[1] بيان لوظيفة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، ووظيفة أتباعه.

وهي الدعوة إلى الله بإذنه وأمره وعلى بصيرة وعلم ﴿ **قل هذه سبيلى ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[2]..

وتكليف الله نبيه بهذه الدعوة العامة التي لا تخص قومه دون غيرهم — كما هو شأن دعوة الرسل من قبله — بل هي للناس كافة ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس** ﴾[3].

وهذا التكليف له ولأتباعه يثبت له ثم لأتباعه أن يكونوا شهداء على الناس جميعا.

وهذا يعني أن الرسالة المحمدية هي المهيمنة على جميع الأديان السابقة فدينه هو النظام الأخير الذي لا يسع أحدا من البشر إلا اتباعه ولا تجوز مخالفته.

وهو نظام رباني كامل، لأن الله الذي خلق هذا الكائن الممتاز « الإنسان » لا يليق بحكمته أن يتركه هملا دون أمر أو نهى أو توجيه، بل يسلمه للفوضى ليتخبط خبط عشواء، يحلل ويحرم كما يهوى أو يشاء أو يعبد ما يريد، كلا ! ! بل نظم له حياته وعلاقاته المتنوعة، وأرسل رسله لهذا الغرض ذاته، وأنزل عليهم كتبه، وخاتم رُسِلِهِ محمدٌ عليه الصلاة والسلام إذ لا نبي بعده وآخرُ كتبه القرآنُ الكريمُ إذ لا كتاب بعده وبيانُ ذلك الكتاب وتفسيره في السنة المطهرة ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[4]. وبهذا كله نظّم الإسلام علاقة العبد بربه

(١) ٤٥ — ٤٧
(٢) سورة يوسف (١٠٨)
(٣) سورة سبا (٢٨)
(٤) سورة النحل (٤٤)

وخالقه بحيث يصبح عبدا له وحده يعبده دون غيره، يعبده بعبادة منظمة مضبوطة بضوابط الشرع، تولى القرآن تنظيمها جملة أو تفصيلا، وشرحتها السنة المطهرة وزادتها بيانا وتوضيحا، على اختلاف درجاتها وشعبها الكثيرة إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

(الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا اله إلا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)(١).

وهذه الشعب كلها عبادات وطاعات، على تفاوتها.

وجميع العبادات يجب أن تكون مقيدة بشريعة الله التي تؤخذ رأسا من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وخاضعة لأحكامه، وسلوكُ العبْدِ هذا المسلكَ في جميع عباداته ومعاملاته، وجميع تصرفاته هو الذي نعينه بالعلاقة بين العَبد وربه وهي العبودية الخالصة، وحقيقتها ألا يفقد الربُّ عبدَهُ، حيث أمره ولا يَجِدَهُ، حيث نَهَاهُ، وإن هفى أحيانا، وخالف أمر ربه بادر بالتوبة والرجوع إلى الصواب، ليمحو أثر مخالفته وعصيانه بالتوبة والإنابة لأن التوبة تجب ما قبلها ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾(٢).

هكذا نظم الإسلام ــ بالإختصار ــ علاقة العبد بربه وخالقه، فكما نظم هذه العلاقة على الوجه الذي ذكرنا، كذلك اهتم الإسلام بتنظيم الأسرة.

وقد حث الإسلام على إنشاء مؤسسة الأسرة بتشريعه الزواج، وحثّه عليه مبينا أن الزواج سكونٌ للنفس للطرفين وهدوءٌ لهما وراحة للجسد، وطمأنينة للروح وامتدادٌ للحياة إلى آخر مطافها.

فلنستمع الآن إلى بعض الآيات القرآنية في هذه المعاني إذ يقول الله

---

(١) البخاري : الإيمان، باب أمور الإيمان (٥١/١) ومسلم : الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان (٦٣/١) من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة النور (٣١)

تعالى — وهو يحث عباده على الزواج — : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾[1] .. ويقول : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[2] وحيث يقول : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[3].

ويقول :﴿ **نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم .. وقدموا لأنفسكم واتقوا الله** ﴾[4].

هكذا يتحدث القرآن عن مؤسسة الأسرة في عديد من الآيات، وبأساليب مختلفة كما رأينا وكما نسمع مرة أخرى آية سورة النساء التي تبين أن طرفي هذه المؤسسة خلقا من نفس واحدة، وكأنهما شطران لنفس واحدة، فلا فضل لأحد الشطرين على الآخر في أصل الخلقة ومن حيث العنصر، وإنما يحصل التفاضل بينهما بأمور خارجية ومقومات أخرى غير ذاتية وصفات مكتسبة إذ يقول الله تعالى في هذا المعنى :

﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة .. وخلق منها زوجها ..وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾[5] هكذا يحث الإسلام على إنشاء الأسرة لتكون امتدادا للحياة وراحة للطرفين.

أهداف الزواج في الإسلام

التشريع الإسلامي تشريع حكيم، وله هدف ومغزى.

فالله تعالى من أسمائه الحكيم لذا يجب أن نعتقد جازمين أنه تعالى حكيم في

(١) سورة النساء (٣)
(٢) سور الروم (٢١)
(٣) سورة البقرة (١٨٧)
(٤) سورة البقرة (٢٢٣)
(٥) سورة النساء (١)

تشريعه كما هو حكيم في خلقه وصنعه.

فحكم تشريع الزواج تكمن في الأمور التالية :

(أ) غض البصر من الطرفين : وقد اهتم الإسلام في قرآنه وسنة النبي الكريم ﷺ بهذا الأمر، يقول الله تعالى : وهو يأمر الرجال والنساء معا بغض البصر : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن** ﴾[1].

والتساهل في مسألة غض البصر يؤدي إلى الانزلاق الخلقي كما هو مشاهد في أكثر مدننا وعواصمنا الإسلامية ـــ وللأسف الشديد.

(ب) حفظ الفرج : وقد تناولت الآيات التي تقدم ذكرها قريبا الأمر بحفظ الفرج مع الأمر بغض البصر، ولعل الأول ينتج الثاني بمعنى أن غض البصر ينتج حفظ الفرج في الغالب الكثير لأن من تمكنت منه مراقبة الله تعالى فلازم غض بصره خوفا من الله وحياء منه سوف يحفظ فرجه عما حرمه الله عليه ولا يقع في الفاحشة.

وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : (العينان تزنيان وزناهما النظر والأذنان تزنيان وزناهما السماع) .. إلى أن قال : « والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »[2] ..

(ج) الحصول على النسل الذي هو لبنة في بناء المجتمع وسبب إكثار أتباع خاتم الأنبياء والمرسلين :

ويزيد الأمر وضوحا الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عبد

---

(١) سورة النور (٣٠ ـــ ٣١)

(٢) راجع مسند أحمد (٢/٢٧٦، ٣١٧،٣٢٩، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٧٢، ٣٧٩، ٤١١، ٥٢٨، ٥٣٥، ٥٣٦) والبخاري : الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج (١١/٢٦) والقدر، باب وحرام على قرية أهلكناها الخ (١١/٥٠٢ ـــ ٥٠٣) ومسلم : القدر، باب قدّر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره (٤/٢٠٤٦ ـــ ٢٠٤٧) وأبو داود : النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر(٢/٦١١) كلهم من حديث أبي هريرة.

الله بن مسعود، والذي يخاطب فيه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام شباب المسلمين بذلك الأسلوب الرقيق ليرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم إذ يقول عليه الصلاة والسلام :

يامعشر الشباب ! من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء، وعند البيهقي من حديث أبي امامة تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم[1].

وقد تقدمت بعض المعاني التي يمكن أن تعد من أهداف الزواج كالهدوء وراحة النفس مثلا.

وقد يخطىء الذين يظنون أن الغرض من الزواج هو الحصول على اللذة والمتعة كيفما تيسرت، وليس وراء ذلك غرض آخر، وهذا التصور الخاطىء قد أوقع كثيرا من الشباب في مهالك خطيرة وسقوط في الخلق والانحطاط، مما جعل حياة عديد منهم في كثير من البلدان شبيهة بحياة الحيوانات التي ليس عليها قلم التكليف، بل هم أضل سبيلا وأسوأ حالا.

من يتولى إدارة مؤسسة الأسرة ؟

إن الإسلام لم يهمل إدارة هذه المؤسسة وبيان من يرأسها، أو من أولى الناس لتحمل مسئوليتها ؟

والذي يتضح من دراسة الإسلام أن الاختصاصات أو الصلاحيات موزعة بين الطرفين، والواجبات محددة، ولكلٍ جانبٌ خاصٌ هو مسئول عنه :

للرجل اختصاصات لا تشاركه فيها المرأة ولا تقوى على الاضطلاع بمهمتها وسياستها، وللمرأة اختصاصات لا يصلح لها الرجل ولا يحسن القيام بها.

---

(١) النكاح، باب قول النبي ﷺ : من استطاع الباءة فليتزوج (١٠٦/٩)

فمحاولة أحد الطرفين التدخل في اختصاص الطرف الآخر يعرض المؤسسة للارتباك والاضطراب ويسلمها للفوضى.

فلنستمع إلى بعض الآيات القرآنية، وهي تنظيم حياة الأسرة، وتحدد المسئوليات، فتعطى الرجل القوامة والإدارة حيث يقول الله عز وجل :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾[1].

فالآية صريحة في إعطاء الرجل إدارة المؤسسة، والقوامة عليها كما ترى، ولم تهمل الآية بيان السبب، بل بينت إذ يقول الله عز وجل : **﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾**، ثم إنه مما لا نزاع فيه أن أي مؤسسة أو شركة إنما ينتخب لإدارتها من لديه دراية وخبرة وقوة على الإدارة، وعلى الصبر على العمل، وحنكة في سياسة طبيعة العمل، ومؤسسة الأسرة من أهم المؤسسات وأخطرها على الإطلاق إذ بصلاحها يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد المجتمع، لأنها هي التي تقدم للمجتمع أفراداً، هم لبنات بناء المجتمع، والبناء إنما يكسب صفاته من مواد البناء قوة وضعفاً.

لهذا كله حمَّل الإسلام الرجلَ هذه المهمة، وهي أمانة ثقيلة لأنه أليق بها، وأقوى على أدائها والمرأة المنصفة تعترف بذلك.

يقول الأستاذ محمد الغزالي في كتابه « حقوق الانسان في الإسلام » :

« ولما كان الرجل بعيدا عن مشاغل الحيض، والنفاس، والحمل، والرضاع، كأن أجلد على ملاقات الصعاب، ومعانات الحرف المختلفة، وكان الضرب في الأرض ابتغاء الرزق ألصق به هو، ومن ثم فقد كلفه الإسلام على زوجته وعلى قرابته الإناث الفقيرات » اهـ

---

(١) سورة النساء (٣٤)

ما ذكره الأستاذ الغزالي جانب مهم ومعقول لترشيح الرجل لهذه المهمة مهمة القوامة.

وهناك جوانب أخرى تبدو عند التأمل من بعض النواحي وهي كثيرة، نكتفي بهذه الإشارة اقتصادا في الوقت.

« مسئولية المرأة في الأسرة »

إذا كان الرجل هو الذي كلف ليمثل سياسة الأسرة الخارجية والاقتصادية على ماوصفها فإن المرأة هي المسئولة عن إدارة الأسرة الداخلية تحفظ بيت زوجها في حضوره وغيابه، وتحفظ ماله، وتحفظ أولاده، وعليها تنظيم المنزل إلى غير ذلك من الشئون المنزلية.

ولهذا كله تتمتع بكل احترام وتقدير من أفراد الأسرة طالما حافظت على مسئولياتها الداخلية، ولم تتطلع إلى ما وراءها مما لا تستطيع القيام به من صلاحيات الرجل.

« الإسلام لم يظلم المرأة »

كثيرا ما نسمع تلكم الأصوات المنكرة التي تنادي بأن الإسلام هضم حقوق المرأة، وظلمها، ولم يعطها حريتها، ولم يساو بينها وبين الرجل إلى آخر تلكم العبارات المترجمة عما يكتبه أعداء الإسلام.

وفي الواقع أن أصحاب هذه الدعوى هم أحد رجلين اثنين :

أما أحدهما : فجاهل ساذج، سمع الناس قالوا قولة، فاتبعهم، بل صار لهم بوقا يبلغ ما يقولون، وليس لديه علم يستند عليه فيما يقول ويذيع، بل ليس له من الأمر شيء إلا البلاغ، وهو يهرف ما لا يعرف.

وقد اغتر به كثير من الناس الذين لم يؤتوا من الفقه في الدّين شيئا، ولا سيما النساء المثقفات بثقافة غير إسلامية أو الجاهلات المقلدات على غير هدى.

وهذا الصنف من الناس يضل ويضلل غيره لأنه جاهل، وفي الوقت نفسه أنه يجهل جهله، يصدق عليه قول القائل :

إذا كنت لا تدري بأنك لا تدري فذاك إذاً جهل مضاف إلى جهل

وأما الآخر : فهو إنسان ماكرٌ يمكر ويكيد للإسلام والمسلمين، ويريد أن يفسد عليهم دينهم وأخلاقهم عن طريق إفساد الأسرة متأثرا بأعداء الإسلام، ومنفذا لخطتهم في محاربة الإسلام.

إن هذا وذاك هما اللذان يطلقان هذا الصوت المنكر في كل مكان لمحاولة التضليل، وقد تأثرت به الكثيرات من المسلمات الجاهلات ظنا منهن بأن هذا النداء في صالحهن، فضمت أصواتهن إلى ذلك الصوت.

فبذلك تصبح المرأة المسلمة المتأثرة بذلك النداء ظالمة لدينها وإسلامها متهمة إياه بأنه ظلمها، ذلك الإسلام الذي رفع من شأنها لو كانت تعلم وتفقه ـــ وأين الفقه لدى نسائنا إلا ما شاء الله ـــ والله المستعان.

فعلى المرأة المسلمة المثقفة أن تدرس دينها لتعرف موقف الإسلام بن المرأة وما لها من الكرامة في الإسلام ولا تتبع كل ناعق.

وفي الوقت نفسه عليها أن تطلع على ما في القوانين الأجنبية مثل القوانين الفرنسية وغيرها لتعلم موقف تلك القوانين (١) من المرأة، ثم عليها أن تعرف كيف كانت المرأة قبل الإسلام حيث كانت سقط المتاع، فاقدة القيمة والكرامة، وما أكرمها إلا الإسلام.

(١) في القوانين الفرنسية في الأسرة لا يسمح للمرأة أن تتصرف في مالها الخاص إلا بإذن زوجها وتنتسب إلى زوجها لا إلى أبيها.

تتمتع المرأة في الإسلام بالحقوق المدنية مثل الرجل

المرأة المسلمة حرية كاملة في الحقوق المدنية، وهي مثل الرجل في هذه الحقوق.

للمرأة المسلمة أن تبيع وتشترى وتهب وتقبل الهبة وتعير وتستعير وتتصرف في مالها، ولها جميع التصرفات المالية مثل الرجل.

الحقوق الدينية للمرأة المسلمة

فالمرأة المسلمة تشرع لها جميع العبادات كالرجل فهي تصلي، وتصوم وتزكي من مالها، وتحج وتثاب على عباداتها وطاعتها مثل ما يثاب الرجل، وليس أجرها دون أجر الرجل.

إلا أن الإسلام قد يخفف عن المرأة بعض العبادات تقديرا لظروفها الطارئة فمثلا يسمح للمرأة الحائض في ترك الصلاة ولا تؤمر بقضائها بعد الطهر لما في ذلك من المشقة والحرج ﴿ **وما جعل عليكم في الدّين من حرج** ﴾[1].

ولها أن تترك الصيام أيام عادتها، ولكنها تقضى على السعة لعدم المشقة عليها في قضاء الصوم بخلاف الصلاة، والنفساء تعامل بنفس المعاملة.

حرية الزواج للمرأة المسلمة

الإسلام يعطي المرأة حرية كاملة في الزواج فهي التي تختار الزوج الصالح لها قبل أن يكلفها وليها على من يختاره هو، بل ليس له أن يزوجها إلا بإذنها الصريح بالنطق إذا كانت المرأة ثيباً لأنها قد جربت الرجال، ولا تستحى أن تقول : « نعم » أو « لا ».

---

(١) سورة الحج (٧٨)

وأما البكر فيكفي في إذنها السكوت حين الاستئذان، فلابد من الاستئذان، ولو زوجها أبوها في صغرها وقبل بلوغها فلها الخيار إذا بلغت بين إجازة ذلك الزواج أو رفضه.

هذا هو حكم الإسلام في الزواج حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، وإذنها صمتها أي سكوتها »، أو كما قال عليه الصلاة والسلام رواه البخاري من حديث أبي هريرة[1].

إرث المرأة في الإسلام

وقد ركز دعاة المساواة على هذه النقطة فتمكنوا من تضليل الكثيرات من المسلمات الغافلات حيث زينوا لهن بأن الإسلام يفضل الرجل على المرأة فيعطيه في الميراث أكثر من النساء فيعطيه مثل حظ الأنثيين ولماذا ؟؟!!..

وللأجابة على هذا السؤال أقول :

حقا إن الإسلام يعطي الرجل نصيب امرأتين، وهذا التفضيل في الميراث لا يترتب عليه تفضيل الرجل على المرأة في كل شيء كما سنرى قريبا إن شاء الله.

كما لا يلزم منه الحط من مكانة المرأة بل إنه عطاء عادل ومنصف.

بيان ذلك ما سبق ذكرنا من أن الإسلام يكلف الرجل وحده بالانفاق على الأسرة المكونة من الزوجة والأولاد، بل وعلى كل محتاج من أقاربه، ولم يكلف المرأة حتى بنفقه نفسها، بل نفقتها على زوجها، ولو كانت هي أغنى من زوجها، وأما قبل الزواج فنفقتها على أهلها.

فهل من الإنصاف أن تعطى المرأة المنفق عليها مثل الذي ينفق عليها ؟ ؟ ! !

---

(١) النكاح : باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (١٩١/٩).

أعتقد أن المرأة المسلمة المنصفة سوف تبادر بالجواب على هذا السؤال قبل الرجال قائلة : إن ذلك ليس من الإنصاف لو حصل.

بل الإنصاف ما فعله الإسلام، وقد أنصف الرجل والمرأة معا ولله الحمد والمنة.

سفر المرأة في الإسلام

النقطة الثانية من النقاط التي يركز عليها دعاة الحرية والمساواة مشكلة سفر المرأة يقولون : إن الإسلام لا يسمح لها بالسفر كما يسمح للرجل، ولو في سفر أداء فريضة الحج ولماذا ؟ ؟ ! !

والعجيب من أمر هؤلاء أنهم كثيرا ما يقلبون الحقائق ليغالطوا الناس فيجعلون الإهانة كرامة والكرامة إهانة كما في هذه المسألة.

والمرأة المسلمة الجاهلة تسمع لكل ناعق لجهلها أمر دينها واستجابة للعاطفة أحيانا.

وفي الواقع أن الإسلام لم يمنع المرأة من السفر المباح إلا أنه قيد سفرها بقيد واحد. وهذا القيد في الحقيقة إكرام لها وحفظ لشرفها لو كانوا يعلمون.

يشترط الإسلام لسفر المرأة وجود زوجها معها في السفر أو أحد أقاربها الذين تحرم عليهم تحريما مؤبدا كأبيها وأخيها مثلا، لأن هؤلاء سوف يضحون بأنفسهم في سبيل المحافظة عليها، وحفظ كرامتها، ولا تصل الذئاب إليها إلا على أشلائهم.

كما يقومون بخدماتها في سفرها حيث تعجز عن الخدمة، وهل اشتراط الإسلام لسفرالمرأة هذا الشرط يعتبر إهانة للمرأة أم هو إكرام لها ؟ إنها لأحدى الكبر ! !

فلتقول المرأة المسلمة الإجابة على هذا الاستفهام.

أما السفر من حيث هو فالإسلام لا يمانع فيه.

فالمرأة تسافر للحج، وتسافر للتجارة، وتسافر لزيارة أهلها وأقاربها وتسافر لطلب العلم ولغير ذلك من الأسباب طالما الشرط متوفر، وهو وجود الزوج أو المحرم معها.

هذا هو حكم الإسلام في سفر المرأة أيها المسلمون إذ يقول رسول الله ﷺ (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا ومعها رجل ذو محرم عليها)(١).

وللحديث ألفاظ كثيرة وروايات متعددة وكلها تدل على أن الإسلام يشترط في سفر المرأة وجود الزوج أو رجل ذي محرم عليها تحرم عليه تحريما مؤبدا.

وهذا يعد إكراما للمرأة المسلمة لو كانت تعلم، وبالله التوفيق.

موقف الإسلام من التبرج والاختلاط والخلوة

إن موقف الإسلام واضح من هذه الجاهليات، وهو موقف فطري ومعقول، بل ومقبول لدى الأذواق السليمة، والإسلام يشدد الإنكار على هذه الجاهليات ولاسيما جاهلية الخلوة إذ يقول رسول الهدى عليه الصلاة والسلام (ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)(٢)، (لا يخلون أحد بامرأة الا مع ذى محرم)(٣).

---

(١) البخاري : تقصير الصلاة، باب في كم يقصر الصلاة ا (٥٦٦/٢) والحج، باب سفر المرأة مع محرم (٩٧٧/٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) مسند أحمد (٣٣٩/٣) و (٤٤٦) من حديث جابر بن عبد الله وعامر بن ربيعة.

(٣) مسند أحمد (٢٢٢/١) والبخاري : النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم (٣٣١/٩) ومسلم : الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (٩٧٨/٢)

هكذا يقول رسول الإسلام أيها المسلمون ! وفي النهي عن جاهلية التبرج يقول الله تعالى : ﴿ **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾[1] ويقول مخاطبا لنبيه وخليله محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ، من جلابيبهن** ﴾[2]هكذا يأمر الإسلام المرأة المسلمة ابتداء من أمهات المؤمنين الطاهرات إلى يوم الناس هذا بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. يأمرها بالحشمة والحياء وعدم الاختلاط لأن الحياء شعبة من الإيمان وينهى عن هذه الجاهليات، ويشدد الانكار عليها، لأنها ذرائع للفساد الخلقي الذي إذا أصيب به المجتمعات ضاعت وذهبت ولقد صدق الشاعر حيث يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

موقف الإسلام من عمل المرأة

ولسنا نقول ـــ كما يظن ـــ أن المرأة لا تخرج من بيتها لمزاولة الأعمال، كلا بل للمرأة المسلمة أن تعمل، ولها مجالات واسعة للعمل والقول بأن الإسلام يمنع المرأة عن العمل إساءة إلى الإسلام وسمعته كما أن القول : مجال عملها ضيق قول غير محرر فالمرأة المسلمة لها أن تزاول أعمالها دون محاولة أن تزاحم الرجال أو تختلط بهم أو تخلو بهم. للمرأة أن توظف مدرسة أو مديرة أو كاتبة في المدارس النسائية، ولها أن تعمل طبيبة أو ممرضة أو كاتبة أو في أي عمل تجيده في المستشفيات الخاصة بالنساء إلى آخر الأعمال المناسبة لها.

أما المرأة التي تخرج من بيتها بدعوى أنها تريد أن تعمل ـــ متبرجة ـــ بزينتها ومتعطرة ومنكرة[3] مائلة مميلة وكأنها تعرض نفسها حين تتجول بين الرجال.

فموقف الإسلام منها أنه يشبهها بالمرأة الزانية لما ثبت عند الترمذي من

(١) سورة الأحزاب (٣٣)

(٢) سورة الأحزاب (٥٩)

(٣) مستعملة ما يسمى بالمناكير في أظفارها.

حديث أبي موسى الاشعري عن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

« والمرأة إذا استعطرت، فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية »، قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح[1] ومثله عند أبي داود[2] والذي يبدو أن اللفظة يعني «زانية» من قول أبي موسى الأشعري تفسيرا لكذا وكذا والله أعلم.

وهذه المرأة مَثَلُهَا كَمَثَلِ طَعَامٍ شهي بذل صانعه في إعداده كل ما في وسعه، ثم أخذه فجعله في قارعة الطريق وبجوار المستنقعات فرفع عنه الغطاء فهاجرت إليه الحشرات من كل مكان تستنشق ريحه فأخذ الذباب يحوم حوله فيسقط فيه أحيانا، والناس ينظرون إليه مستقذرين وعابسين وجوههم.

وفي النهاية يصبح عشاء للكلاب إذا تغلبت على الحشرات، ولابد أن تتغلب هذا مثل المتبرجات المتجولات فلتربأ المرأة المسلمة بنفسها وشرفها عن هذه المنزلة المنحطة ولتسدل جلباب الحياء على وجهها كما أمرها ربها، وذلك خير لها عند الله وأمام المجتمع.

ويريد الإسلام من وراء هذا الكلام كله المحافظة على الأسرة المسلمة لأن سلامتها تعني سلامة المجتمع كما أن فسادها فساد للمجتمع كله كما تقدم.

وقد حرص الإسلام على هذا المعنى كل الحرص وأنه لا يُغْفِلُ هذه المحافظة حتى في حال أداء بعض العبادات التي تؤدى في حال اجتماع الرجال والنساء في مكان واحد، كالجمعة والعيدين مثلا، فقد نظم الإسلام كيف يتم هذا الاجتماع لأداء تلك العبادات.

يقول رسول الهدى عليه الصلاة والسلام ــ وهو ينظم الصفوف ــ :

---

(١) الأدب، باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة (١٦/٥).

(٢) الترجل، باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج (٤٠١/٤)، وأخرجه النسائي أيضا في الزينة، باب ما يكره للنساء من الطيب (٢٧٦/٢)

« خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها »[1].

ولعلمه ﷺ ما تثيره المرأة المتعطرة في صدور الرجال أمرها بقوله : ((إذا خرجت المرأة إلى المسجد فلتغتسل من الطيب كما تغتسل من الجنابة))[2].

وبعد :

إن هذا الحديث والذي قبله يعتبران ـــ بحق ـــ من أبرز أمثلة سد الذرائع كما ترى. والله الموفق.

إنهاء الحياة الزوجية

تنتهي الحياة الزوجية بأحد فراقين اثنين :

١ ـــ فراق بالموت، وهو أمر لا يملك كل من الطرفين تقديمه أو تأخيره فلذا نمسك عن الحديث عنه.

٢ ـــ فراق بالطلاق وهو محل حديثنا : يعتبر الطلاق في نظر الإسلام مخرجا مما قد يتفاقم بين الأزواج من الخلافات والنزاعات، وهو بمثابة الكي في حل المشكلات الزوجية والكي آخر العلاج.

حيث يبدأ علاج المشكلات الزوجية على النحو التالي :

(أ) الوعظ : الوعظ الذي يتضمن النصح والتوجيه، وبيان ما على الزوجة من حقوق الزوج كما يتعرض لبيان حقوق الزوجة على الزوج، ويركز على بيان ما يترتب على تضييع حقوق الزوج وعصيانه.

---

(١) مسلم : الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة (٣٢٦/١).

(٢) النسائي : الزينة، باب اغتسال المرأة من الطيب (٢٧٦/٢)

(ب) الهجران في الفراش : الهجران الذي يجلب لها نوعا من الوحشة وعدم الأنس، ويدعو إلى التوبة والرجوع إلى الطاعة.

(ج) الضرب شريطة أن يكون ضرب تأديب وتخويف فقط لا ضرب انتقام يجرح الجلد أو يكسر العظم.

(د) جلسة مفاوضة ومناقشة يشترك فيها حكم من أهله وحكم من أهلها وإذا لم يُجْدِ شيء مما ذكر، وضاق كل واحد منهما نفسا بالحياة الزوجية، هنا يأتي الطلاق لإنقاذ الموقف بإنهاء تلك الحياة التي تحولت جحيما لا تطاق بعد أن كانت مودة ورحمة وطمأنينة وراحة.

وهذه المراحل التي تسبق الطلاق — وربما تمنع الطلاق — بينتها سورة النساء في الآيتين التاليتين إذ يقول الرب عز من قائل :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليا كبيرا ﴾.

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما، إن الله كان عليما خبيرا ﴾(١).

لماذا جعل الإسلام الطلاق في يد الرجل فقط

وقد تبين مما تقدم أن مشروعية الطلاق أمر له أهميته في الموضوع، إذ ثبت أنه العلاج الأخير في المشكلات الزوجية.

---

(١) (٣٣ — ٣٤)

وبقى في المقام سؤال له وزنه إذا فهم جوابه حق الفهم، وهو لماذا جعل الطلاق في يد الرجل فقط ؟ ؟ ! ! قبل أن يكون للمرأة فيه دور يذكر اللهم إلا ما كان من قبل الخلع، وهو فراق تشترك فيه المحكمة الشرعية ولا تستقل به المرأة كما هو معروف.

الجواب على هذا السؤال أن يقال :

لما كان الرجل هو الغارم الذي عليه المهر وسائر النفقات جعل الطلاق في يده لأنه سوف لا يفرط في الحياة الزوجية التي غرم في تأسيسها بل سوف يكون أحرص ما يكون على بقاء مؤسسة الأسرة متمتعة بالهدوء والراحة كلما وجد إلى ذلك سبيلا، ولو جعل الطلاق في يد المرأة لرأينا الآتي :

رأينا رجلا يؤسس، ثم يؤثث، فيحرص على النتائج المنتظرة من المؤسسة، ثم رأينا امرأة ــ ناقصة العقل والتفكير ــ تهدم المؤسسة وتبعثر الأثاث لأتفه الأسباب، لأنها لم تغرم شيئا عند تأسيس المؤسسة بل ربما رغبت عن هذه المؤسسة لتجرب غيرها.

وفي اعتقادي أن المرأة المسلمة المنصفة تصدقني فيما ذكرت قبل الرجل نفسه لأن بعض الوقائع من تصرفات بعض النساء تشهد لما قلنا في الوقت الذي ليس في يدها الطلاق، والله أعلم.

وبعد، أيها الأخوة المسلمون ! فلنمثل إسلامنا بالعمل ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، لا بالقول فقط لأن الإسلام دين عمل وتطبيق، فالمسلم معناه هو الإنسان المستسلم المنقاد لأوامر ربه وخالقه والمنفذ لأحكامه.

والقصد الحسن والنية الصادقة والعمل الصالح ومحاولة تطبيق الشريعة هذه المعاني هي محل نظر الرب من عبده إذ يقول رسول الهدى عليه الصلاة والسلام : ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم

وأعمالكم))[1].

أيها الأخوة ! إن لديكم الفرصة لتعملوا لدينكم وإسلامكم لأن قانون بلدكم يسمح لكم أن تخدموا دينكم بكل حرية فعليكم أن تدركوا أن هذه الحرية نعمة من نعم الله عليكم فعليكم أن تستغلوها بالعمل الجاد لنشر تعاليم إسلامكم ! !

والله معكم إن صدقتم في أعمالكم لأنه تعالى مع العاملين الصادقين يوفقهم ويهديهم.

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[2] ..

وصلى الله وسلم وبارك على رسول الهدى محمد وآله وصحبه ..

محمد أمان بن على الجامى

مدرس في كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية

بالجامعة الإسلامية ــ بالمدينة المنورة

---

(١) مسلم : البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله (١٩٨٧/٤)

(٢) سورة العنكبوت (٦٩).

فهرس مراجع التعليق

- القرآن الكريم
- الأباطير والمناكير والصحاح والمشاهير : الجورقاني : الحسين بن ابراهيم (ت ٤٥٣ هـ)

  بتحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائى، الجامعة السلفية، بنارس، الهند سنة ١٤٠٢ هـ.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية : ابن مفلح : شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي

  بتصحيح وتعليق : العلامة السيد محمد رشيد رضا ــ مطبعة المنار ــ مصر.
- الأسماء والصفات : البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)

  تعليق : محمد زاهد الكوثري، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت.
- الاعتصام :الشاطبي بتحقيق رشيد رضا، ط. مصر
- اقتضاء العلم العمل : الخطيب البغدادي : أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٥٨ هـ)

  بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني،ط. المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٧ هـ
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ)

  تحقيق : عبد العزيز غنيم : محمد أحمد عاشور : محمد ابراهيم البناء، الناشر : الشعب، مصر
- الجامع الصحيح : البخاري : محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ)

  تحقيق : فواد عبد الباقي (مع شرح فتح الباري) ط. السلفية، مصر
- الجامع الصحيح : مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القيشري

النيسابوري (ت ٢٦١ هـ).
تحقيق : فواد عبد الباقي.
ــ حلية الأولياء : أبو نعيم : أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)
دار الكتاب العربي، بيروت (١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م)
ــ حياة الحيوان : الدميري، كمال الدّين، المكتبة التجارية الكبرى، توزيع دار الفكر ــ بيروت.
ــ خلق أفعال العباد : البخاري : محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ)
(في ضمن عقائد السلف) تحقيق د/علي سامي النشار، وعمار جمعي الطالبي الناشر : نشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١ م
ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور : السيوطي جلال الدّين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)
دار المعرفة، بيروت
ــ كتاب الزهد : وكيع بن الجراح الرؤاسي (ت ٢٩٧ هـ)
تحقيق وتخريج : عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي
مكتبة دار المدينة المنورة.
ــ سبيل الدعوة الإسلامية : د / محمد أمين المصري، دار الأرقم، الكويت (١٤٠٠ هـ) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : الألباني، محمد ناصر الدين ط. المكتب الإسلامي ــ دمشق بيروت
ــ سنن الترمذي : الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ)
تحقيق أحمد شاكر وجماعة، تصوير المكتبة الإسلامية ــ بيروت
ــ سنن الدارمي : الدارمي : أبو عبد الله عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥ هـ)
تصوير بيروت
ــ سنن أبي داود : أبو داود : سليمان بن الأشعث السجتاني (ت ٢٧٥ هـ)،

تحقيق : عزت عبيد الدعاس، نشر وتوزيع : محمد علي السيد، حمص، دمشق، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م

— سنن ابن ماجه : ابن ماجه : محمد بن يزيد القزدني (٢٧٣ هـ)
تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي بيروت، ١٣٩٥ هـ.

— سنن النسائي : النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ)
مع التعليقات السلفية لمحمد عطاء الله الفوجياني، ط. السلفية، لاهور، باكستان ط/٢ (١٣٩٦ هـ).

— سير أعلام النبلاء (الجزء التاسع) : الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)
بتحقيق كامل الخراط وتخريج شعيب الأرناوط
مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ هـ

— سيرة ابن اسحاق : محمد بن اسحاق بن يسار (ت ١٥١ هـ)
تحقيق : د. محمد حميد الله، ط. الربا، المغرب

— السيرة النبوية : لابن هشام، تحقيق : مصطفى السقا، ورفقاؤه. طبع بمصر.

— شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم : اللالكائي : الحافظ أبو القاسم هبة الله الحسن بن منصور الطبري، تحقيق : د. أحمد بن سعد بن حمدان رسالة دكتوراه بجامعة أم الشور بمكة المكرمة (١٤٠٢ هـ)

— شرح العقيدة الطحاوية :لابن أبي العز الحنفي
تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط، المكتب الإسلامي، بيروت

— شرح أصحاب الحديث : الخطيب البغدادي (ت ٤٥٨ هـ)
تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي، دار احياء السنة النبوية، تركيا

— صحيح الجامع الصغير : محمد ناصر الدين الألباني، ط، المكتب الإسلامي، بيروت

— الفتوى الحموية الكبرى : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت

٧٢٨ هـ) (ضمن عقائد السلف) ط، مصر.

ـــ فتح الباري في شرح صحيح البخاري : العسقلاني : ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ)

تحقيق فواد عبد الباقي، ط، السلفية، مصر

ـــ فضائل الصحابة : أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)

تحقيق : د. وصى الله عباس (رسال دكتوراه في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٠٢ هـ)

ـــ الفوائد : ابن قيم الجوزية (٧٥٨ هـ)

مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

ـــ مجمع الزوائد : الهيثمي : نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧ هـ)

دار الكتاب، بيروت ط/٢ (١٩٦٧ م)

ـــ المستدرك : الحاكم : محمد بن عبد الله النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)

تصوير دار الفكر، بيروت

ـــ المسند : أحمد حنبل (ت ٢٤١ هـ) تصوير المكتب الاسلامي، بيروت

ـــ مشكاة المصابيح : التبريزي : محمد بن عبد الله الخطيب

تحقيق : محمد ناصر الدين الألبابي، المكتب الإسلامي ٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م، بيروت

ـــ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة : السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

ـــ موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان : الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)

تحقيق : محمد عبد الرزاق حمزة، مكتبة المعارف، الرياض

ـــ موطأ مالك : أبو عبد الله مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ط، مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م

فهرس الموضوعات

المحاضرة الثالثة :

مقدمة

الكلام على بعض الأحاديث

المحاضرة الرابعة :

نوعية المنهج

المحاضرة السابعة :

المحاضرة الثامنة



